وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

رسالة إلى سيدة

(نصّ)



يوسف سامي يوسف

آفاق ثقافية
١٠٧

رسالة إلى سيدة

آفاق ثقافية

يوسف سامي يوسف

رسالة إلى سيدة

(نصّ)

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٢م

آفــاق ثقافيــة

العـدد (١٠٧)

آذار ٢٠١٢م

رسالة إلى سيدة: نصّ / يوسف سـامي يوسـف .- دمشق : الهيئة العامة السورية للكتـاب، ٢٠١٢م .- ٢٢٤ ص؛ ٢٠ سم.

(آفاق ثقافية؛ ١٠٧)

١- ٨١٨,٠٣ ي و س ر ٢- العنوان ٣- يوسف
٤ - السلسلة

مكتبة الأسد

M

ابتـداءً، أود أن أنـوّه بـأنني أوجّـه هـذه الرسـالة إلى صـورة المـرأة الكليـة، أو التجريديـة، أكثـر ممـا أوجههـا إلى امـرأة معينـة أو محـددة الهوية. وجُلّ أمرها أنها محاولة أتوخّى مـن ورائهـا أن أنـتج نـصاً أدبيـاً له بعض المزايا الجمالية التي قد تجعلـه صـالحاً لإنتـاج المتعـة الأدبيـة أو الفنية. ومع أن لهذا النص مناخاً يشبه منـاخ الروايـة الحديثـة، إلا أنه لا ينبغي أن يكون روايـة ولا قصيدة نثـر. ولعـل الأنـسب أن أسمـي هـذه الرسـالة نـصاً أو كتابـة بـالمعنى الـدارج لكلمـة «الـنص» أو لكلمـة «الكتابة». والمقصود من هاتين الكلمتين اليوم هو النص الأدبـي الـذي لا يقبـل التـصنيف في أي جـنس مـن الأجنـاس الأدبيـة التقليديـة، كالرواية أو القصة أو المسرحية أو القصيدة، وذلك لأنه جنس لا يدخل في أي باب من الأبواب المألوفة.

بيد أن هذه الرسالة تشبه الرواية والقصيدة فعلاً. ومما يـشجعني على أن أذهب هـذا المـذهب هـو أنهـا تنطـوي علـى ذكـر أحـداث تـشبه أحداث الرواية، كما يندرج فيها شيء من روح الشعر التي أؤمـن بأنهـا

ينبغي أن تنبث في كل عمل أدبي ذي بال، وأن تتخلل معظم خلاياه، أو تغلغل في الكثير من شذراته وتفاصيله، وإلا غابت عنه اللدانة، أو غابت المزية، بل خرج من فصيلة الأدب ودخل في ماهية أخرى لا يسعني تحديدها. والحقيقة أننا حين نصنع شكلاً فنياً فإننا نزوّد الشعور بقوام متماسك أو بهندام يليق به تماماً.

ولكن ما يستحق الذكر ههنا هو أن كاتب هذه السطور، الذي لا يزمع إلا إنتاج نص أدبي ممتع وصالح للقراءة بالدرجة الأولى، قد أحبّ فتاة يانعة حباً عذرياً صادقاً في سالف زمانه، أو يوم كان في مقتبل العمر منذ أكثر من نصف قرن، وعايشها فترة من الزمن ليست بالقصيرة. ولقد تزوجت تلك الفتاة ورحلت إلى البعيد، ولم يرها إلا مرة واحدة، وذلك بعد مضي تسع سنوات على مغادرتها لمدينة دمشق. وفي الحق أن تلك التجربة الغرامية ليست سوى الهيكل العظمي لهذه الرسالة التي يتدخل فيها الخيال كثيراً، بل كثيراً جداً، وذلك ابتغاء إنجاز غرضها الأكبر، أعني إنتاج نص أدبي ممتع قد يصلح تعويضاً عن قبح هذا الطور التاريخي الكئيب.

إذن، صار ناصعاً أن النص الراهن منسوج من مادة واقعية، ولكنها خام، أو من حادثة حقيقية، ولكنها نحيلة جداً. وهذا يعني أن كاتب النص قد حاك من الأخيلة الشيء الكثير وأضافه إلى الواقعة

التي لا تؤلف من هذه الرسالة سوى عظامها، بل سوى شبح النص، ليس إلا.

وأحسبني قد بينت ما فحواه أن هذا النص لا يبتغي وصف شيء كان له وجود فعلي في دنيا الواقع، بل هو يهدف إلى إنشاء أخيلة وأفكار تنتسب إلى قبيل الأدب دون سواه. وهذه حال لا تشين الرسالة الراهنة بتاتاً. فربما جاز لي أن أزعم بأن عالم الخيال أشرف من عالم الواقع وأنبل. ولكنني جازم بأنه أمتع وأحلى وأبهى وأكثر امتلاءً بالعذوبة والجاذبية، وذلك لأنه يخطف النفس ويأخذها إلى البعيد، فينجز للمرء سياحة في النائيات، أو ربما في فسحة عالمه الداخلي حصراً.

ولعل أهم ما يبتغيه كاتب هذا النص من وراء تدبيجه له هو أن يتمكن من الإسهام في تجاوز الضعف الذي راح يعتور الأدب العربي خلال الطور التاريخي الراهن. ففي حسباني أن الكتابة العربية قد أخذت تسفّ وتتضع في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي، أو إثر وفاة ابن عربي في دمشق سنة ١٢٤٠م، وأن هذا الاتضاع قد ترسخ بعد ثلاثمائة سنة تقريباً، أو بعد الاحتلال العثماني لشطر واسع من الوطن العربي، وذلك إثر معركة الريدانية سنة ١٥١٧م.

فقد اعتادت اللغة العربية قبل ذلك أن تنتج، في ما تنتج، ثلاثة أصناف من أكابر الكتاب، وهم الشاعر والمؤرخ والصوفي (المتنبي وابن

الأثير وابن عربي، مثلاً). ولكن هذه الأصناف الثلاثة قد اندثرت منذ بداية العصر العثماني حتى اليوم، ولم نحصل على ما يعوّض عنها إلا لماماً، وذلك على الرغم من نشوء بعض الظواهر الخلّب التي حاولت أن توهم الناس بأن إحياء الكتابة العربية قد أخذ يدب في شرايين النصوص الجديدة. وهذا يعني أن الاتضاع قد استمر حتى الآن، أي حتى بداية العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين. ولعل في ميسور من كانت له بصيرة ثاقبة أن يراه رابضاً في جوف النصوص الأدبية الحديثة، ولنقل في معظمها إن لم يكن في مجمل منجزاتها.

وما دام الحال على هذا النحو الإشكالي، فقد بات من واجب أهل الغيرة والحميّة أن يبذلوا قصارى جهودهم كي ينجزوا استقلاباً في سيرورة الأشياء، فيرفعوا مستوى الكتابة العربية من الحطة إلى الرفعة الباذخة. ولا مرية في أن هذا الاستقلاب المأمول هو المهمة الكبرى للنخبة الثقافية العالية التي حاولت الغوغائية الحديثة المنخرطة في عصابات تهديمية منظمة أن تطفئ وجودها، أو أن تعطبها فتصيبها بالشلل. وفي رؤيتي أن الفرصة مهيأة جداً لانتصار الغوغائية في هذا الزمن الذي شبّه أحد الشعراء القدامى زمناً مثله «بجلد الأجرب». كما أومن بأن إحياء الكتابة العربية السامية التي تتبنى قيماً وأخلاقاً ليست غريبة عن مجتمعاتنا الشرقية، هو عمل وطني جليل لا يقل

أهمية عن إعادة إدراج الأمة العربية في سياق التاريخ البشري الشامل، أو عن إيلاجها إلى داخل النسق الكلي لحركة العالم، وذلك بعدما فككها الزمان ونفاها إلى أقصى الهوامش الهامدة.

وفي زعمي أن تدبيج النص الراهن ما كان له أن يتمّ إلا من أجل هذا الغرض حصراً. أما أن يكون قد أدى مهمته أو لم يؤدها البتة، أو هو قد أداها على نحو نسبي وحسب، فذاك شأن متروك لحصافة القارئ الأريب، بل لجريان الزمان الذي أعتقد بأنه الناقد الأعظم، دون مراء. ولكنني ميال إلى الظن بأنه لن يكون بغير جداء، مهما يكن الأمر، وذلك لأنه محاولة أرجو لها ألا تكون موهونة أو هزيلة الحال، وأن تهدف إلى الإسهام مع جهود أخرى بذلها بعض المتميزين من أجل تفعيل معجم الضاد واستنفاره بكثافة، وذلك لتصير اللغة قادرة على أن تتكلم بدلاً من أن ترطن وتلغو. ففي قناعتي أن استرداد المستوى الذي بلغه أسلوب النفري، وهو من وصل النثر العربي بعد القرآن الكريم إلى أوجه على يديه، لا يقل عن كونه بغية نفيسة لا محيد عن إنجازها كي يترسخ إحياء الكتابة العربية إلى حد لا لبس فيه ولا جدال. وعندي أن البلوغ الفعلي إلى هذه البرهة الرفيعة هو المعيار الأكبر لانتصار النخبة الضامرة على الغوغائية الظافرة والنافية لكل سموّ على الدوام.

* * *

وأياً ما كان جوهر الحال، فإن مما يؤكد الطابع الأدبي، بدلاً من الواقعي، لهذه الرسالة الراهنة أنها تضفي على المرأة التي يتوجه إليها الخطاب بعضاً من السمات أو الصفات الصوفية. فلا يخفى أنها تحاول جاهدة كي تصوغ صورة لامرأة شديدة الشبه بصورة المرأة التي صاغها ابن الفارض في شعره، ولاسيما في «التائية الكبرى»، كما تشبه صورة المرأة التي رسمها ابن عربي في بعض قصائده، وكذلك في بعض نثره. وأتمنى من صميم قلبي أن تتمكن هذه الرسالة من البرهنة على أنني تلميذ لابن عربي وابن الفارض، أو أقله أن أكون متأثراً عميق التأثر بفهمها للغرام الكلي الشامل. فلئن فعلت هذا فإنني سوف أبتهج كثيراً، وذلك لأنني أكون قد التزمت بأسوة حسنة، أو بأسلاف فالحين، سواء في الفكر أو في الغرام.

والحق أن كلاً من هذين الكاتبين قد حاول أن يرفع المرأة إلى أفق باذخ شامخ، وذلك انطلاقاً من إيمان الصوفية، وهي الموغلة في التفاؤل واحترام الحياة، بأن الأنوثة هي قوة الخلق والابتكار والإبداع في الكون كله، أو لنقل بأنها الينبوع الذي ينبع منه كل موجود حي. وهذا يعني أنها ظل الله على الأرض، أو الحامل الأول لإرادته الفاعلة. وفي موضع من مواضع تراث ابن عربي، وهو تراث ضخم وشاسع المساحة، وربما في أكثر من موضع واحد، يوحي ذلك

العملاق، الذي لا يخلو من متاعب فاحشة، بأن الذكر حين يبدع، فإن الأنثى التي تحايثه هي التي تنجز كل إنجاز ذي بال. ولهذا، اعتقدت الصوفية بأن المرأة، أو الأنوثة جملة، هي اللب الذي يحتل مركز الوجود برمته، فكان أن رفعها بعض الكتاب الصوفيين إلى أسمى مرتبة بين جميع مراتب الإمكان، فصارت في نظرهم تلك القوة الخالقة على مدى الكون بأسره. ولما كان للمرأة موقع كهذا الموقع، سواء في الوجود أو في مذهبهم، فقد نظروا إلى العالم بوصفه تجسيداً للحسن الذي هو السمة الأولى للأنوثة. ولهذا، قال ابن عربي في المجلد الثاني من «الفتوحات المكية»: «ما ثمة إلا جمال». (ولكن المذهب المثنوي يؤكد أن من المتعذر أن يكون هنالك جمال دون أن يتنطع له القبح.) .

وكما أسلفت للتو، فإن هذه الرسالة الراهنة لا تتوجه إلى أية امرأة بعينها، بل هي تتوجه إلى كنه الأنوثة أو الجوهر النسوي بوصفه تجريداً شاملاً لجميع النساء. وهذا يعني أنها تلتقي مع ابن عربي حين يقول في الجزء الثاني من «الفتوحات المكية»: وألطف ما في الحب أن تجد عشقاً مفرطاً يعتلج في نفسك، ولا تدري في من ولا يتعين لك محبوبك. وبهذه الصفة، فإن النفس «تجهل حالها، ولا تدري بمن هامت، ولا في من هامت، ولا ما هيمها». وعندي أن هذا

الشأن دليل على أن ذروة الغرام هي الحنين إلى جوهر الأنوثة، وليس إلى ذرة محددة من تعيناته التي لا تحصى ولا تعد. وللحق أن ابن عربي، وهو أستاذ بغير تلاميذ في هذا الزمن القاحل الذي يوهم بأنه خصيب، قد أنجز نظرية في الحب بثّها داخل مؤلفاته، وأن تلك النظرية الجديرة بالدرس والتمحيص والتنمية والتحسين، هي أقدم إنجاز من صنفها في التاريخ البشري كله.

ولئن كنت شديد الإعجاب بفكر ابن عربي، فإنني أشد التصاقاً وولعاً بشعر ابن الفارض، وهو من أراه التجلي الأمثل للدماثة واللطافة وهيف الوجدان. ولهذا، فقد جاز الظن بأن ذلك الشاعر واحد من نقاوة الشعراء الذين أنجبتهم الثقافة العربية التراثية، وبأنه يصلح للإسهام في تربية الجنس البشري، إلى جانب دانتي وشكسبير. وعندي أنه قد أثّر في شاعر إيطاليا الأكبر، كما أن ذلك الإيطالي قد أثر في وريثه الانجليزي. وهذه حقيقة لم ينتبه لها أي من الذين درسوا تراث دانتي. ففي الحق أن بياترس، بطلة الفردوس، هي صورة استلها الشاعر من جوف الصوفية العربية، ولاسيما من «التائية الكبرى» التي قرضها ابن الفارض قبل ولادة دانتي بنصف قرن، أو زهاء ذلك. إنها شديدة الشبه بإلهي المطلقة التي يحاورها شاعر الصوفية العربية الأكبر في تلك القصيدة نفسها.

بيد أن عدم التشابه أو التماثل بين الصورتين، أعني صورة المرأة في هذه الرسالة الراهنة وصورتها في شعر ابن الفارض، لا يعني البتة أن هذا النص الحالي قد أخفق فذهب أدراج الرياح، بل يعني بالضبط أنه ظل مقصراً عن الشأو المرجوّ.

وههنا صار لزاماً عليّ أن أنتهي أو أكف عن كتابة هذه الكلمة التوضيحية الوجيزة التي لا بد منها، وذلك لأن غرضها الختامي قد صار ناصعاً تمام النصوع.

- ١ -

أيتها المرأة التي ما عدت أشاهد منها غير طيفها الراخم في فسحة البال، طيفها الزاهر الفينان مثل سروة باذخة، يطلّ من وراء الغيب والمسافة المنداحة، ثم يتبختر في ساحة الخيال دون كلل أو ملل، أيتها المرأة التي لم أرها منذ عشرات السنين، هي ذي رسالتي الثانية أرسلها إليك عسى أن لا تختل قناعتك بأنني ما فتئت لك عاشقاً تيمّه الهوى وأضناه، حتى وهو يوشك أن يدبّ على عصا الشيخوخة المنخورة بمبزل الزمن، وكذلك لتوقني بأنك ما زلت في نظري تلك البارحة التي لا تبارح بتاتاً، مع أن مدة طويلة جداً انقضت بعد إخفاق غرامنا الصِبوي الذي أجهضته الظروف والحظ العاثر.

وفضلاً عن هذا، فإن بودي أن أخلّد الحب المنفيّ الذي عشناه في يفاعة الزمن وفتائه السعيد، أو في صدر الشباب الذي هو وقت الحب بامتياز، كما أرغب في أن تبقى ذكراه راسخة في ذاكرة العالم حتى أكثر الأزمان بعداً عن هذه الحقبة الراهنة. وأتمنى لو أن في الإمكان أن أكتب حروف هذه الرسالة بمداد من نور مذاب، وعلى صحائف سوداء فاحمة حالكة، وذلك لكي تجيء ناصعة

نصوع الشمس في رأد الضحى، فلا تعجز مقلة العين، مهما تك حسيرة أو كليلة، عن قراءتها وإدراكها بسهولة ويسر.

أيتها المرأة المتلألئة مثل قوس قزح، إني لا يخامرني أدنى ريب في أن أنبل عشق وأعفّ غرام خبرته الأرض هو ذاك الذي عشناه ذات يوم، عندما كان العالم نفسه في الريعان. فنحن لا يضارعنا أحد في هذا الشأن النفيس الجليل إلا العذريون الذين علموا البشرية الطهر ونقاء السريرة وبياضها الثلجيّ الضاحي، ولقنوا الناس، جميع الناس، درساً مؤداه أن لذائذ الروح أعمق وأبهج من لذائذ الجسد بكثير، وأن مخاطبة الحبيب هي أمتع المتع وأدومها في الذاكرة، وإذا ما كلمه المرء فإنه يكون قد نال الربح الذي لا يبذه أي ربح آخر. وأنت موقنة بأن هذا هو حالي وحالك، يا سيدة الصفاء والبراءة والعذوبة ورزانة الشخصية. ولقد طرح واحد من أولئك العذريين هذا السؤال النفيس منذ مئات السنين: «وما خير حب لا تعفّ سرائره؟»

أيتها السيدة النائية كالأحلام أو كنجوم السماء، مع أن ردحاً طويلاً من الزمن قد مضى على الغرام المبارك الشريف، فإنه لم يزل مكيناً في سويداء فؤادي لا يتخلخل ولا ينزاح. فربما تلاشت جبال الألب، بل جبال هملايا التي تناطح الكواكب، ولكن ولعي بك، أو لهفي عليك، يندّ عن سطوة الزوال أو التلاشي ويستعصي إلى أبد الآبدين. فأنت الزيت في مصباحي، بل أنت شمسي

وقمري ونجمتي القطبية التي تهديني سواء السبيل، لأنك ما زلت تمدينني، وعلى نحو سري، بكل ما أحتاج إليه من إلهام.

ولقد رحت أجوس خلال الزمان بحثاً عمّا يملأ ويعني، ولكنني لم أعثر على أي شيء ذي بال، بل كنت أشعر دوماً بأن الأشياء ليست سوى عدمٍ اشتهى أن يتجسد فأعطي طِلبته وصار شيئاً محسوساً أو ملموساً باليد. كما أنني أخذت أطوي السنين وأعبر من طور إلى طور آخر في غضون هذا العمر المديد، ومع ذلك فقد ظللت مقيماً على الولاء والوفاء لوجهك الأنيس، وبقيت صورتك في بؤرة البال، تماماً مثلما كانت في غابر الزمان، لا تعنو لأي تبدل أو تحول. وهذا هو الشيء الوحيد الذي أفعم حياتي وزوّدها بالفحوى، مع أنه ليس سوى شيء ينتسب إلى فصيلة السلب والشقاء. يا الهي! أن لا يترع حياتي شأن غير البؤس، أن أشقى بك إلى حد اللوعة المريرة، ذاك أمر لم يكن في الحسبان يوم انخرطنا معاً في غرام خالد لَحَمَ الاثنين في وحدة لا تعنو لأي انفكاك أو استنكاف.

أجل، سوف تظلين هكذا حتى نهاية العمر، بل حتى نهاية الزمان، إن كان للزمان أية نهاية. فمع أن حكايتنا قد ألغاها التقادم، أو حوّلها تصرم الأوقات إلى هباءٍ منثور، منذ عشرات السنين، ثم أسدل عليها ستاراً فمحاها من ذاكرة الناس الذين علموا طرفاً منها، بل مع أن أولئك الذين أطلوا عليها قد اندثروا

أو طواهم كَفَنُ النسيان، فإنني ما زلت وسأبقى، أخالك محور الكون، أو القطب الذي يدور عليه رحى الوجود، ما دام هنالك وجود يتنفس. ولست أغالي إذا زعمت بأنك أنت النور الذي يملأ حياتي، والذي لولاه لتعذّر عليّ أن أكون.

فها هي ذي السنون تمرّ وتثابر على الانقضاء، وتمل من المضيّ والتجدد الدائمين، ويتغير كل شيء، يحول أو يزول، ولكنك تظلين كما كنت، دون أن تمسّك يد الزمن ذات المخالب الفولاذية ولو بلمسة ناعمة أو خفيفة الوطأة. وليس من قبيل الصدفة أن يكون هذا الحب الموّطد الأركان، فنحن ندرأ عنا وحشة الكون وبذاعته بهذا الغرام الذي يفعم حياتنا بالفحوى، أو بما يملك أن يصنع المزية للعيش. وفضلاً عن ذلك، فإن استمرار هذا الحب أو مثابرته على الوجود تترعني بالأمل الكبير بأن لقاءً عظيماً سوف يتم ذات يوم، وإن يك نائياً كنجم العيوق.

وما انفك طيفك وحده يؤنسني على الدوام، ولا سيما حين أكون في العزلة الدامسة، أو ذات اللون الكالح. أما في برهة التوقان المنهوم إلى لباب الأشياء وجوهرها، أو حين أشتاق إلى كل ما هو من فصيلة النائيات، فإنني لا أحنّ البتة إلى أي شيء سواك وسوى محيّاك الفاتن الخلاب. يقيناً، إنني ألوب عليك كما يلوب الفطيم على ثدي أمه المحظور. فأنت العنصر الشارط الذي إذا غاب خسرت الحياة عذوبتها ومذاقها الطيب وصارت اعتلافاً بالتبن والزؤان. ثم إنني، وحق وجهك الناضر الكريم،

كثيراً ما أراك أماً لهذا الكون الطليق السراح، والذي لا تحده الحدود ولا تقيده القيود.

إذن، ما أنت إلا فلذة افتلذت من كبدي، بل من سويداء فؤادي بالضبط. وعندما أحن إليك فإنني أحن إلى بضعة قُطِعت من نسيج روحي أو نسيج بدني، سيان. ولكن أعند الحقائق، أو تلك الواقعة التي تصفعني باستمرار، ودون حياء أو تحفظ، بل دون شفقة أو رحمة، فهي أن مسافة فلكية تفصل بيننا على الدوام، ودون أمل كبير في امِّحائها كي لا تعرقل الوصال والاتصال. وكان من شأن هذه الحقيقة الطاغية طغيان المستبدين أن أقنعتني، ولو إلى حد ما، بأن حياتي إخفاق كلي شائن أو معيب. ولهذا بالضبط، فإنها لا تستحق أن تعاش.

ومع أنك سمراء اللون، كما تعلمين، فإنني أشعر، حين أتخيل طيفك الجليل، بتيارٍ من البياض الثلجي الناصع البهيج يتدفق عارماً كأنه هالة تحيط بمحياك الأغر، ولا تشبهها إلا تلك الهالة التي تحيط بالقمر في بعض الليالي الرائقة، وخاصة حين يكون بدراً مكتمل الاستدارة. وإنه لشيء يعادل في اللون زهر اللوز أو زهر الكرز الذي يشتعل في أوائل الربيع كل سنة كأنه بسمة تطلقها الطبيعة لتبشر بالخصب والمسرة التي سوف تسري في شرايين البشر مصحوبة بالدفء والخلاص من استبداد البرد المقيت.

ولئن كانت ومضة من البرق كفيلة بأن تضيء الليل حتى وإن كان أشد كثافة من القار، فإن طيفك الوضيء حين يخطر في البال، ولو لهنيهة وجيزة، يملك القدرة الكافية على إنارة روحي كلها بنور يمكن له أن ينير الأرض من قطبها الشمالي إلى قطبها الجنوبي. وهذا يعني أن غيابك له بعض مزايا الحضور، بل له قدرة كبيرة على الفعل والتأثير، ولا سيما حين تشتعلين في البال كذكرى غابرة ترفض أن تغبر، وتستعصي على كل وأد أو إهمال، وذلك لشدة ما تتصف به من حرن وعناد. ولهذا، يسعني القول بأن غيابك له من المحاسن مقدار يساوي ما له من المساوئ، كما أملك أن أزعم بأن مأواك سريرتي الباطنية، شأنك في ذلك شأن روحي، سواء بسواء.

وكل يوم قضيته معك في الأزمنة الخوالي كان بمثابة عيد حقيقي ملون بألوان قوس قزح الزاهية، أو كان فرحاً له من العرام ما جعله شبيهاً بالعرس والطقس الجمعي. وإنه لفرح زفافي ذاك الذي كان يضمنا فيوحدنا خلال كل لقاء، مهما يك قصير المدة. ولهذا بالضبط، فقد كنت يومئذ أراك تنتسبين إلى إقليم أغانيه منسوجة من صداح العنادل وبغام الأطفال الرّضع، وذلك لأن صوتك الرخيم يشبه الأنغام الرقيقة التي تهدهد الروح وتُحلّ الشعور بالدعة محل الشعور بالإنهاك والإجهاد.

أو يعقل أن يكون هنالك ظمأٌ سرمديٌّ يجهل كل ارتواء؟ أجل، إن هذا الأمر جد معقول، بل هو يربض في بؤرة العقل

حصراً، وذلك لأن للعطش والسغب وظيفة إيجابية مفادها أنهما يحثّان النفس على الحراك ابتغاء توفية النقص الذي رأته الحكماء بمثابة محرك يحرك الحياة ويصد عنها التأسن في الجمود أو في الركود. فإما الحاجة والنقص، يا سيدة الكمال، وإما السكون الخامل البليد. وهذا يعني أن النقص ينبغي أن يرى بوصفه والد الحركة الخلاقة، حركة البكارة والابتكار التي أبدعت الإنسان وجعلته على ما هو عليه الآن. وبفضل هذا الغياب، أو هذا النقص، نتحرك صوب ما يلزمنا من لوازم ملحّة، بل صوب ما لا بد منه كي تصير الحياة سيرورة مقبولة، أو بنية ترمم نفسها بنفسها. ولكن أرقى الحركات هي تلك التي تتجه صوب الكرامة العظمى، أو تحاول أن تستجيب للحاجة الروحية الأولى، أعني الحب الذي هو ملح الحياة وزيتها و وقودها اللذيذ، أو مغزاها وغايتها النهائية التي لا غاية لها بعدها. وإنه الرعشة المحظية أو التجربة الأثيرة والمفضلة على جميع التجارب. ولا يدانيه في الرتبة إلا الصدق والإخلاص. ويلوح لي أن هذه ثلاثة أقانيم لهوية موحدة وشديدة التراص.

أما غيابك أنت فهو النقص الكبير الذي يحرك حياتي بأسرها، بل يحرّضني على أن أكون، أو أن أصعد صوب الأسمى فالأسمى دون انقطاع، ودون زوغان عن السمت. ففي الحق أن حضورك كان يصنعني، وقد راح غيابك يصنعني هو الآخر، وبلا توقف. ولهذا، جاز لي أن أزعم بأنك الأسّ الذي تنبثق منه

صيرورتي برمتها طوال عشرات السنين، حتى كأنك «المحرك الذي لا يتحرك»، على حد عبارة أرسطو. وفي هذه اللحظة المأهولة بمعناك النفيس، يجب عليّ أن أذكر قول ابن عربي في «الفتوحات المكية»: «من كمال الوجود وجود النقص فيه». إذن، إنك أنت الآية الحاسمة على أن النقص والكمال يندرجان في جدل يشد كلاًّ منهما إلى الآخر على نحو أزلي. فلولا غيابك لما كنت إلا على حال تغاير ما أنا عليه الآن تمام المغايرة. وههنا أراني محقاً إذا ما صرّحت بأنه ما من شيءٍ قد صنعني إلا هذا النقص المبدع، أيتها الكاملة التي تمارس الابتكار، سواء في الحضور أو في الغياب.

- ٢ -

ما زلت أذكر يوم قلت لي بأن اللغة هي الخير الأسمى، وذلك لأنها الشرط الأول لوجودنا على الأرض، ثم لأنها العربة التي تقلنا باتجاه المثال، وهو ما لا نكهة للعيش من دونه إلا أن يكون زائفاً أو مصطنعاً إلى حد لا يخفى على الألبّاء، أو حصراً على الحسّاسين منهم. وكنت صادقة إلى آخر تخوم الصدق الذي هو مركز الأخلاق. فنحن باللغة وحدها نغادر الحيوانية ونيمّم صوب إنسانيتنا، أو صوب مثلنا الأعلى الذي أراه مظلتنا الواقية من حرارة هذه الدنيا وشمسها التموزية الكاوية. فما جداء عيش مغمّس في المادة ولا يعرف أيما ارتقاء نحو الأفق السامي الرفيع؟ وما قيمة حياة لا تفصلها عن موقع الحيوانية سوى مسافة قصيرة لا تزيد عن بضع خطوات؟

بيد أن اللغة وحدها لا تكفي. فلا أعرف فاصلاً يسعه أن يفصل بين الإنسان والحيوان سوى الحب بأشكاله المتنوعة كافة. ولكن الحياة لا يسعها البتة أن تكون حباً بغير كراهية. فلا مرية في أن الحياة مبنية على المبدأ المثنوي. ولهذا فإن علينا أن نكافح لنقلص مساحة البغضاء لصالح مساحة الحب. «الإنسان

ذئب الإنسان؟» حسناً، هذا هو الواقع. ولكن المطلوب هو أن يصير الإنسان أخاً للإنسان، لا يظلمه ولا يضطهده ولا يعدو عليه. وهذا يعني توسيع رقعة الإخاء على حساب العداء. وفي البداهة أنه طلب لا يتيسر إنجازه إلا بالمحبة قبل سواها.

وعلى أية حال، فإنه لا معنى لَكَبِدٍ لا تكابد جمالاً مما يتجلى في الكون، أو لا تذوب غراماً ولاً تهيم حباً بكائن يستحق أن يُحبّ لأنه يتمتع بجملة من السمات الاستثنائية. وفي السداد أن يقال بأنه لا معنى لجمال بغير كبد تكابده وتصبو إليه أو تشتاق. وعندي أن على المرء أن يذهب إلى التخوم القصوى للأشياء، ولا سيما للعشق، وإلا فإنه لا يتمتع بأية قيمة خاصة، وإن تك طفيفة المقدار. أما كنا نفكّر بهذه الطريقة؟ أفلا تتذكرين، أيتها المرأة التي لا ترى إلا في الأحلام؟

* * *

حسناً، أود أن أحيطك علماً ببعض أحوالي في هذه الأيام المأزومة، بل المأهولة بالكرب والبلاء.

مع أن الأيام تمر، بل تركض متلاحقة مترادفة على نحو دافق، كأنها بحر محيط تسوطه الرياح بشدة جنونية، ولكن دون أن أعرف لماذا أحتاج إلى هذه الأيام الكثيرة جداً، أو الشبيهة بالطوفان، مع ذلك فإنني لا أعيش بتاتاً، بل أذوب لوعة ولهفة عليك، يا سيدة السيدات وذروة النبيلات. فيا له من سقام بلا دواء

ولا شفاء آخر الدهر. ولهذا، فإنك حقاً صداع في الرأس، صداع لا تشفيه عقاقير الطب كلها. أجل، ما أنت إلا وجع في الرأس وهمّ في النفس، أو لعلك أن لا تكوني غير صَدْعٍ في نظام الأشياء، يخلخلها ويلغي تجانسها المسجوم، ويولج فيها عطالة وخيمة العواقب.

فما عادت حياتي غير كابوس ينخر روحي ويجرها راغمة إلى طور التسوّس والصدأ الذي يصيب الباطن حصراً. ترى، أليست هنالك إجازة أنالها من هذا الكابوس الخانق، ولو لبرهة وجيزة فقط؟ أما من درب قط يفضي إلى خارج هذه اللعنة الجحيمية الغاشمة؟ أما من علالة لهذا الاغتراب المرير؟ وأخيراً، أهكذا يكون العيش دوماً، أم هي الحياة الحديثة وميلها إلى إفراز التوتر، ثم ما تنطوي عليه من مقززات ومنغصات وضغوط على نواة النفس قبل سواها؟

تُرى، ما هذا الكسوف الذي أصاب الحياة في الآونة الأخيرة، فعطبها من سمت الرأس إلى أخمص القدمين، بل حوّلها إلى وليمة من رماد ناشف عقيم؟ فهل يجوز القول بأن شباب الدنيا قد صار خلفها، ومنذ زمن بعيد؟ أم يلوح لي أن العالم بأسره قد شاخ وهرم وما عاد صالحاً لشيء؟ ولكن، ألا يحتمل أن أكون أنا هو من شاخ وباخ وأصيب بالكسوف وبالخسوف، فاستل شعوره الدامس الكئيب من جوفه الماحل ورشقه على الكائنات برمتها، فرآها سوداء كالحة، وذات لون محته ممحاة لا تترك

وراءها إلا البهوت. فشباب العالم جاثم في مركز الديمومة والبقاء إلى ما لا نهاية. كما أن العالم محايد من هذه الناحية، ولا تأثير له على هذا الأمر بتاتاً. وذلك يعني أنه ما من شيخوخة، على الحقيقة سوى شيخوخة الفرد وحده، ولا سيما شيخوخة النفس على وجه الضبط والدقة.

أجل لعل الكسوف أن يكون قد أصابني وحدي، وراح يقضمني من الداخل، أو يقرض روحي بمقراضه كما تقرض الفئران الكتب والدفاتر في مكتبة مهجورة. ماذا، هل بردني مبرد الزمن فحوّلني إلى نثار تذروه الرياح وتبعثره في كل اتجاه؟ فأين أنت، يا أنفس النفائس وأغلى الغاليات، لتشاهدي ما قد حلّ بي بعدما كبرت والتهم الزمن معظمي؟ أيتها السعادة التي خسرت كل شيء يوم خسرتها، ليتني فزت بك، فمن فاز بك فاز بقرّة العين، أو بالبغية التي ليس وراءها بغية قط.

ولكنك يوم غادرت إلى النائي السقيم، أولجتني دفعاً إلى نار جهنم قبل أن أخرج من هذه الدنيا الملعونة بألف لعنة. لقد أرسلتني إلى عالم الموت بغير رأفة أو رحمة وأنا لم أزل على قيد الحياة، أو دون أن أفارق العيش الذي ما عاد رغيداً منذ هاجرت حتى اليوم. رئتاي تتنفسان، وقلبي ينبض، ولكنني لا أعيش. وهذه مفارقة لا رفع لها بتاتاً، كما أنني لا أعرف من تورط في مأزق كهذا المأزق، ولا من أطبقت عليه أزمة كهذه الأزمة الشديدة

الخانقة التي حوّلت حياتي إلى سقام لا يريم. ولهذا، فإنني لا أراها تساوي أكثر من قشرة بصلة هذه الحياة الخمجة المذرة.

أيتها السمراء، يا ذات الضفائر الفاحمة والعينين الدعجاوين والشفتين اللمياوين، كنت يوم أراك أشعر وكأن النهار اندلق من جرّة أسطورية كبيرة لها حجم جبل أشم، أو أقله حجم تل أو رابية عالية، كما أشعر بأن شلالاً من النور قد انهمر وغمر الكون قاطبة، فأنار المحسوسات والمرئيات من سمت الأوج حتى موطئ قدميّ. وفضلاً عن ذلك، فقد كنت أشعر بأن الدنيا بألف خير، وبأن الحياة عذوبة مستساغة هانئة وشمس دافئة، وأنسام بليلة عليلة. كما أنَّ لها قيمة جُلّى، ولهذا فإنها تستحق أن تعاش بإقبال دائم لا يفتر ولا يتراخى. ومما يزيد في قيمتها أنها، بين الأزل والأبد، لا تُعطى للمرء إلا مرة واحدة فقط. أجل، كنت أشعر يوم أراك بأن الوجود روعة وسهولة ويسر، بل لذة ورغد وغضارة عيش ورفاه قبل كل شيء.

فأين تولت تلك السنون التي باتت بعيدة عنا بُعْد الثرى عن الثريا؟ كيف انقضى العمر هدراً أو بغير جداء أو مردود؟ ترى، هل تشعرين بأن عمرك قد أثمر أيّما ثمرة، حتى وإن تك بحجم حبة خردل؟ أم لعلك مثلي تتحسرين على الخسائر التي تندّ عن كل تعويض؟ ولكن ما جدوى الحسرة والتنهد؟ ما جدوى الأسف والندم والاكتئاب على الفائت، إذا فكّر المرء بالمستوى العملي أو الواقعي للأشياء؟

أيتها اللؤلؤة الغالية، أستميحك معذرة لأنني لم أتشبث بك يوم فارقت وارتحلت إلى الأقاصي النازحة، وكذلك لأنني لم أبحث عنك في الأرض، بما لها من طول وعرض، خلال السنوات الخمسين الأخيرة. فكل ما في الأمر أنني ألوب وألوب وألوب، ولكن دون طائل أو مردود. فما جداء هذا اللوبان المحموم على الغائب الفريد النفيس الذي أنهك روحي وأذبلها، فتهتك نسيجها وصارت مثل نبتة في الخريف الشاحب الملتاح؟ ولكن هذا الغائب العزيز هو صنو روحي، فلا أملك إلا أن ألوب عليه وألوب حتى وإن كان ذلك بغير فائدة قط.

وفي الحق أنني بحثت في كل مكان قريب، أو بالضبط حيث لا تكونين إلا وهماً. نقّبت عنك في الأماكن التي اعتدنا على ارتيادها، وفي المرايا التي وقفت أمامها ذات زمن بعيد، والأهم من ذلك كله أنني فتّشت عنك في صدوع الرأس وأوجاع الفؤاد. ولكنني لم أبحث عنك في شقوق الأرض، وإن كان الواجب يحتم عليّ أن أفعل ذلك على سخفه وعدم جدواه. فقد اكتفيت بما يحرّض الأشواق والحنين. ولا مرية في أن هذا الاشتياق المبرّح أضناني وأتلف روحي المهموم بهمك الثقيل.

لقد تكثف العالم فيك، وتلخص الوجود في شخصك الكريم، فصرت قطرة الضوء الوحيدة على هذه الأرض المستهلكة أو المحشوّة بالتلف. وفي الوقت نفسه صرت هاجساً لا يكتفي بأن يخطر في البال بين الفينة والأخرى، بل هو يجول في فسحة الخيال دون أن يهدأ أو يكفّ عن الحراك.

ولكثرة ما هجست بك خلال نصف قرن لم يعد يهمني ما إذا كان لك وجود عيني في الواقع أم لم يكن، وذلك لأنك استحلت إلى صورة أو إلى رعشة أو أخيولة تخفق في رقعة البال على الدوام. وإنها لصورة ألفتها كثيراً حتى ما عاد في مقدوري أن أعيش من دونها قط. ويلوح لي أن المرء دوماً بحاجة ماسة إلى مثال، حتى وإن يك خيالياً أو وهمياً، وذلك لأن العالم طافح بالشراسة، ولأن مبدأه هو هذا: «إما أن تركع وإما أن تموت». فأنّى لي أن أتحمل هذا البؤس كله في عتمة غيابك وغياب صورتك اللطيفة أيضاً؟ ولا بأس إن أحطتك علماً بأنني على الدوام قلق من أجل مثال، أو من أجل عقيدة، أو نواة لمذهب شامل من شأنه أن يحدد موقفي من الكون كله.

أما خلال الليل أو أثناء النوم، فتحتلين جلّ أحلامي، إن لم أقل كلها. نعم تحتلينها، تفعمينها بطيفك الباسم باستمرار، والغالي على فؤادي مثل الماء للظمآن. ولولاك، يقيناً لولاك، لما كان لهذا القلب المسكين أيما لزوم، ولا كانت بي أية حاجة لوجيبه اللامبالي، أو لخفقانه الشبيه بنبض الزمن حين يطاردك الزمن. فليتك تنبجسين فجأة من غيابك الملوّع، ولو لهنيهة أقصر من طرفة عين. ليتك تؤوبين من حيث أنت ولو لساعة من الزمان. أهو أمر يرضاه العقل هذا الذي يجري في جوف التجربة كل

يوم؟ وكيف أتحرر من سطوتك الجائرة وسلطتك المستبدة الجبارة؟ فيا لك امرأة جورها لذيذ، أنت يا من تتماوجين في البال مثل بحر تجلده العواصف والأعاصير بألف سوط وسوط.

ما من شيء يؤنسني البتة بعد رحيلك، وليس ثمة ما يدحر وحشة الوجود التي تطبق على الروح المعذب كأنها كابوس يكاد أن يخنقني دون أن يتصدى له أي رادع يملك أن يصده عني، أو أن يحول بيني وبينه على نحو حاسم. فما الذي يسعه أن يدرأ هذا العدوان الغاشم الذي تمارسه الأشياء، جميع الأشياء بلا استثناء، على روحي الأعزل إلا من اللهفة واللوعة؟ وماذا عساها أن تكون تلك القوة التي تملك أن تردّ هجمات هذا الكرب الذي جعل فؤادي المسلول إناءً للأسقام والأورام؟ وهل ظل هذا الفؤاد صالحاً لخدمة الحياة بعدما لسعته حية الغرام؟ وهل هذه اللسعة نعمة أم نقمة؟ وأين أُصادف عزاء مهما يك نوعه؟ وهل سوف أنال حريتي ذات يوم فأنجو من إسارك وأنفكّ من ربقة همّك، ثم أخرج إلى الفضاء الرحيب، لأعود إلى الحياة المألوفة التي يحياها جميع الناس؟ يا إلهي، ما هذا الشقاء المفتحل الذي لا قبل لي بمنازلته، فلا تحمله حتى الجبال الباذخة؟

أيتها المرأة التي لا يضارع غيابها وعذاب غيابها شيء سوى الكابوس، والتي حولت كل شيء إلى كابوس يجثم على

حنجرتي فيخنقني، أيتها المرأة القدر، يا من لا شفاء منها ولا خلاص، يا حتمية لا محيد عنها قط، كأن الحب (وبخاصة حبك الاضطهادي) هو الأمانة التي أنزلها الله على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، بسبب فداحة عبئها، فحملها قلبي المسكين، فألحق بنفسه ظلماً أو حيفاً يجلده دون انقطاع، وبغير رحمة أو شفقة. ترى، أهي منقبة أم مثلبةٌ ورطة الحب هذه؟ ولكنني أعوّل كثيراً على شخصك الكريم، فأتوسل إليك أن تساعديني على الخلاص من هذا المأزق المكروب. وبودّي أن أحيطك علماً بأنك إن لم تساعديني فلن يساعدني أحد قط في هذا العالم كله.

- ٣ -

أتذكرين إلى أي مدى كانت الدنيا طافحة بالينع والبكارة يوم تعارفنا قبل دهر كامل؟ أجل، لقد كانت كذلك، مع أن جرحنا الوطني كان لا يزال ساخناً نغّاراً لم يرقأ بعد. ولكن الأمل بالنصر كان يومئذ عارماً عرام الطوفان. أما الأعداء الذين شردونا من ديارنا، وكثيراً ما هُم، فليسوا إلا وحوشاً لاحمة تجهل الإنسانية جهلاً مطلقاً تماماً. ولولا فقدانهم لهويتهم الإنسانية لما أنزلوا بنا تلك الكارثة الكربلائية التي تأنف الشياطين من ارتكابها. ومع ذلك، فقد همّ الزمان بالإحسان يوم جمعني بك وجعلك أمنية نفسي ومحور وجودي.

أتذكرين الغوطة التي كانت مستودعاً للجمال، والتي راحت، في مطلع أمرنا، تلامس بيوتنا أو تكاد؟ أما تذكرين كيف كانت تغازل تلك الأكواخ البائسة لتجعل الحياة فيها سعادة خالصة؟ فلعل في الجواز الزعم بأنها ما كانت، يومئذ، إلا جنة مغروسة في هذه الدنيا الساقطة إلى الأبد سقوطاً مبرماً لا رجعة عنه بتاتاً. وإنها لمفارقة لا رفع لها: جنة في وسط هذا الجحيم الجاحم؟ نعم، فهي جنة نشأت من أجل العين، أو ليتناسم الروح

مع الوسامة والينع والاخضلال. ولا يقتصر حسنها وجمالها على نباتاتها الفاتنة، بل يشمل طيورها المتعددة الألوان والأصناف، والتي تملك أن تقنع المتأمل المتوسّم بأن السعادة هي البراءة قبل كل شيء، فلا يعادلها إلا الحب الصِبّوي الذي قد يجعل من الحياة حلماً ومسرة وهناء.

فكثيراً ما كان المرء يبصر طائراً يمخر عباب الفضاء في الأعالي، أو تحت القبة اللازوردية، مثلما تمخر ثبج البحر سفينة أوتيت ما تشتهي من الرياح. وكثيراً ما كانت تسمع الصوادح وهي تصدح أنغامها الموسيقية المترعة بالعذوبة. ولكن، يندر أن ترى العين طائراً من الجوارح وهو ينقض على فريسته، بل على البراءة، بغير رحمة، أو بشراسة تجهل كل اعتدال. وفي بعض الأحيان كان المرء يصادف جمهرة من العصافير، أو طيور الدوري، أو الزرازير الأكبر حجماً، وهي تندلع من الأرض بغتة ودفعة واحدة باتجاه الجو، ثم يتلاشى حشدها بين الأشجار الكثيفة الملتفة كأنها دغل أو غابة استوائية في مجاهل أفريقيا. وفي لحظة لذيذة مثل تلك اللحظة يشعر المرء بعرام الحياة وبهجتها وهي تتموّر بين يديه أو تنفجر. فالغوطة يومئذ تعج بالحياة النباتية والحيوانية المتنوعة، وللحيوية فيها عرام أو جيشان مثل جيشان سيل أطلقته عاصفة هوجاء. ولكن أهم ما في أمرها أن الدنيا لم يكن لديها في ذلك الحين ما هو أروع أو أقدر

على الإيناس والاجتذاب. صدقاً، كانت تلك الجنة صنواً لكبدي، وكان لكل نبتة من نباتاتها موطن أو مستقر في جوف فؤادي الولهان، وذلك لأنها مغروسة في تربة روحي. فإلى أين نزحت تلك الأيام الهنيئة؟ وكيف تلاشت حتى لم يبق منها سوى حفنة صغيرة من صور أو ذكريات؟ وربما جاز لي أن أزعم أنني أحن إلى الغوطة، أو إلى صورتها القديمة، لأنني عشت فيها صباي الباكر الذي لم يفارقه الشعور بالسعادة، مع أنه كان مغمّساً في الفقر وسوء الحال.

وفي ظلالها الوارفة اللمياء، قد يشعر المرء يومئذ بطمأنينة أو بسكينة صوفية وصفاء وجداني قلما يشعر بمثله في أي مكان آخر. أما تلك المداعبة التي يمارسها النسيم على الشجر، أو على أوراقه وأغصانه حصراً، ولا سيما العساليج من الأغصان، فمشهد فاتن أخّاذ، وذلك لأنه يموج بزخم الحركة الدائبة. وأما أزهارها المغسولة بالندى فرؤيتها متعة قد تصلح علاجاً للنفس المضطربة المعكورة، وخاصة إذا شاهدها المرء في أوائل الربيع حينما تتفتق الأكمام عن براعمها المسرورة التي توحي بالطفولة والبداية والبراءة، أو في نيسان بعدما ينهمر وابل من المطر له القدرة على إزالة الغبار والأوساخ عن كل ورقة من أوراق الشجر الطافح باليخضور. ولكن زهرة ناضرة مثلك لم تنبت في الغوطة منذ كانت الغوطة حتى يوم الناس هذا. أجل، يا سيدة الزهور والنساء اليانعات الفاتنات، يا سيدة الراحلات والمقيمات على السواء.

وبعد رحيلك، يا ذات الروح النعناعية، صرت أشعر بأن كل مكان من تلك الأماكن التي ارتدناها معاً في الغوطة، قد راح يسألني عنك حين أزوره بمفردي. بل اعتدت أن أشعر في كل زيارة أقوم بها إلى أي من تلك الأماكن نفسها بأنه ملهوف عليك ويتمنى أن يراك فوراً، ودونما ريث أو إبطاء، وذلك ليبرد حنينه إليك، ولتفتر رغبته في الإلتقاء بك ومعانقة شخصك الكريم. فأنت غالية حتى على الجمادات التي تكاد أن تنطق كي تزّف لك أصدق التحيات. ولكن جميع تلك الأماكن قد صارت بعد رحيلك موحشة، بل كئيبة، كأنها جثث غادرتها أرواحها.

لقد كان عالماً وسيماً لطيفاً تولى إلى غير رجعة. فأي دنيا هي تلك التي خسرناها يوم رحنا نقتلع الأشجار ونزرع بدلاً منها أكداس الإسمنت المسلح؟ يومئذ كنا، أنت وأنا، نخسر شبابنا بالتدريج البطيء عندما راحت الحياة تخسر عذوبتها الرائعة التي طواها النسيان. وكان قدرنا التعيس، بل قدري أنا وحدي لأنك رحلت قبل أن تحل المصيبة بالغوطة، أن أكون الشاهد الحزين على الخراب الذي راح يتفاقم يوماً عن يوم. فأية صلة هي تلك التي تقوم بين الشعور وبين الحياة؟ وهل يجوز الزعم بأن الحياة شعور، ليس إلا ؟ بل يلوح لي أنه ما من شيء له قيمة في هذا الكون المنظور سوى الشعور، أو سوى العالم الجواني المستقرّ في سريرة الذات حصراً.

وأذكر أنني أخبرتك في سالف الزمان أن لوبيا الجليلية، التي مر بها السيد المسيح كثيراً، هي أمي التي أنجبني رحمها، ثم ماتت بعد مضي حفنة من السنين على ولادتي وتركتني شريداً في عالم من الصخور الصوانية والمعادن الفولاذية. وفي الحق أنها المكان الذي غادرته أنا منذ دهر، ولكن دون أن يغادره قلبي حتى الآن، ولن يغادره إلى أبد الآبدين. وإنه لعالم شرس، بل مفترس، ذاك الذي حرمني من مسقط رأسي طوال هذه المدة ومنحه للأغراب والمتطفلين.

أما دمشق التي كانت فاتنة في غابر الأعوام فهي أمّي بالتبني، أمّي التي آوتني وضمتني إلى صدرها الحنون، وأجلستني في حضنها الدافئ الرؤوم، بعدما خسرت الوطن الأول الغالي على فؤادي الملتاع. ومن حسن حظي وحظك، أيتها المرأة المخلوقة من جوهر العذوبة وزبدة البراءة، أننا عرفنا دمشق وهي لم تزل في الريعان، ويوم كنا نحن ما فتئنا أغراراً يافعين. ولست أغالي إذا ما زعمت بأن من لم يعرف دمشق في تلك الأيام الخوالي، أو تلك السنين الهيفاء ذات البياض الثلجي الناصع، ومن لم يستيقظ باكراً ليجيء إلى هذه الدنيا قبل أن تخسر شبابها ويذوي نسغها وينضب زيتها، قد فاته خير كثير وحلّت به خسارة لا تعويض لها آخر الدهر. لقد افتض المال بكارتها، وأفسدتها السياسة ذات الماهية الغوغائية التي لا تمسّ شيئاً دون أن تحوّله إلى هشيم يابس بغير حياة.

ولهذا، فإنني طوال الآونة الأخيرة ما عدت أرى دمشق إلا بوصفها أرملة كانت جميلة ذات يوم.

فيا للغباء الذي أصاب هذه الأرض بسرعة قصوى، فجعل منها مرتعاً لمجمل أصناف النذالة والسفالة. ترى، ما هذا الإنهاك الذي استقلب الدنيا وفتك بالجنس البشري على حين غرة؟ لعله النفط الذي أطلق شيطان المال من قمقمه فاندلع طافراً في فضاء الأرض، وصنع هذا الدمار كله. فعندما أسرف النفط في الاحتراق ازداد البؤس ضراوة، وترسّخ الجحيم على الأرض التي أخذت تتمرغ في الخسة والدناءة كلما ازداد المال والنفط اندلاقاً داخل شرايين هذا العالم المنكوب بالأنذال.

ففي الماضي كانت الحياة عذوبة وهناء، أو كانت العذوبة تحتل معظم رقعتها، وكان هامش التعاسة والشقاء صغير المساحة فعلاً. أما اليوم فقلما أصادف شيئاً لا يرغمني على أن أتقزز، بل إن نفسي تكاد تغثى بسبب كثرة المقززات والمنغصات. وكثيرة هي الأشياء التي تنتسب إلى سلالة إبليس، وما تلك السلالة إلاّ نتاجُ زواجٍ غير شرعي لطرفين منحطين. أو ربما كان عرس الغيلان على السعالي هو الذي أنجب هذا الزمن الأجرب الخسيس. ولعل أهم ما في أمر العصر الراهن أن يكون غياب الوسيم الذي من شأنه، إذا حضر، أن يزوّد الحياة بالفحوى والدلالة، بل بالنكهة الزاكية والمذاق الطيب.

ولكن الغالي غائب على الدوام، وليس في الوسع إلا أن يشوقني، بل أن يلوّع فؤادي الملهوف. ومع ذلك فإنني لا أبجّل من الناس إلا أهل الشوق الذي من طبعه أن يصنع الذوق.

أنهكني تفقد الغياب. وكثيراً ما تفأد هذا الفؤاد واضطرب لأن الوسيم لا يحضر بتاتاً. فيا أيتها النسوة الزنبقيات اليانعات الغاليات، يا نسوة من نسرين وياسمين، ليس عدلاً منكن أن ترشقن عليّ نظرة، ثم تهجرنني على هذا النحو الاضطهادي المتعسف. فبعدكن لم يبق في حياتي شيء سوى الخلاء أجتره على الدوام، بل أقتات به، ولكن دون طائل. يقنياً إن هذا كله ليس من فصيلة المعقول أو المقبول. فهل يستطيع روحي المسكين أن يتحمل هذه الخسائر كلها؟ وهل هنالك من يقيل عثاري بعدما تردّيت في حفرة بغير قرار؟ أفلا أشعر بأن كل شيء يخلّ بواجبه تجاه روحي؟ حقاً، ما من شيء إلا وهو مقصّر عن الشأو المرجوّ، ولا يحدث العكس إلا لماماً وحسب.

لقد استطاع دانتي أن يجد بياترس في هضاب عليّين، أو في حدائقها الزاهرة، وأما أنا فلا أدري أين يمكن لي أن ألقاك، أيتها المرأة التي لا تعنو صورتها للطيّ والإلغاء، أو للمحو من صفحة الذاكرة. أيتها الأنثى المتألقة في البال مثل زهرة من زهور الخزامى في شهر نيسان المبهاج، يا وردة بللها الندى المتلألئ تحت شعاع الشمس مثل حبات الماس، حين أتذكر تلك الأيام

اليافعة، فإنني أتذكر شرخ شبابي المندثر وعمري الذي زال ريعانه أو أحسن أطواره، حتى صار طللاً من أطلال الأرض، فلم يبق إلا الرماد الذي يخلفه الاحتراق بعد الإنطفاء. أيتها المرأة المتدثرة بالمسافة الفلكية، أما من لقاء ولو لسويعة صغيرة واحدة؟ أما من إجازة تمنحها لي هذه اللعنة الكالحة الوجه؟ أما من أُلهية أتلهى بها عن هذا الاغتراب الشبيه بالحصار؟

ها أنا ذا قد ذبلت فولجت طور التصدؤ الكئيب، وهو في نظري برزخ أو وساطة بين الحياة والموت. أن لا يكون المرء حياً وأن لا يكون ميتاً في الوقت نفسه، أن يحلّ في منزلة بين المنزلتين، أن لا يستفحل في خلايا بدنه شيء سوى الضعف والوهن وعرام الدمار، حتى كأنه ما من قوّة تنضج هناك أو تترعرع غير قوة الزوال، ذاك هو البؤس المقيم الذي لا فكاك للمرء منه إلا بالموت وحده. إنني في حال احتضار دائم هذه الأيام. فيا لهذا السلب الصفيق الذي يسمّى المرض، ويا لهذا الشقاء الاضطهادي الذي لا يضارعه أي شقاء آخر بتاتاً. يا امرأة لا أراها إلا تجسيداً للحيوية والحياة، هل أحاطك أحد علماً بأنني أبصق دماً كل صباح تقريباً؟ إنه دم أحمر قان «مثل حناء العذارى»، على حد عبارة أحد الشعراء. فلكل امرئ مبلغ يبلغه ثم يتوقف عنده لا يتعداه بتاتاً. ولقد بلغت مبلغي وقُضي الأمر كله.

ومع ذلك وسواه مما أسرده ههنا، فإنني سوف أظل أحافظ على ذكرياتنا المشتركة ما دمت أتنفس. والأهم من ذلك أنني سوف أشعر بالغبطة والنشوة الدافئة إذا ما تأكدت من أن مكانتي في فؤادك لم تتزحزح بعد. فلئن كنت لا زلت تهجسين بي وتحنّين إلى أيامنا البائدة، بعد هذا الفصال الطويل العريض، فأنت جديرة بأن أجعل منك المثل الأعلى والهمّ الأكبر لحياتي كلها. وهذا يعني أن اضطرابي عليك والغمّ الذي يحاصرني بسبب غيابك الشبيه بقوة العدم، لم يذهب شقاؤهما سدى أو بغير جداء، وذلك لأنك امرأة تستحقين، إن صح التوقع، أن أذوب عليك أسفاً وحسرة وزفرات حرّى تكوي الضلوع.

فلست أتمنى أن يكون لي أي مأوى ديمومي لآوي إليه حتى آخر الدهر غير فؤادك الحميم. أجل، فؤادك المصنوع من الذهب إلا بريز، والذي أتمنى أن يكون قد ظل على حاله المألوف حتى اليوم. كما أتمنى، بل أتوسل إليك، أن تعامليني بالمثل، فيستضيف بالك صورتي على الدوام، تماماً كما يرحب بالي بصورتك دون انقطاع. ولكنني سوف أستاء كثيراً إذا ما علمت أنك قد تنصلت مني ونسيتني وانغمست في تفاهة الحياة اليومية الخاوية من كل ما هو ذو بال.

فاحفظيني في بؤبؤ العين، يا امرأة حفظتها في بؤرة وجداني بالضبط.

- ٤ -

لقد سلف أن بحت لك بواحدة من مثالبي الكبرى، بل بالمثلبة الأولى بين جميع مثالبي، وهي التي تعطب شخصيتي في صميمها عطباً لا يقبل أي رأب، وخلاصتها أن قوة الخلق والإنشاء لم تزوّدني إلا بإرادة مفلولة أو مثلمة. وابتغاء المزيد من الوضوح أقول بأنني بنيت على أساس المطاوعة، بل كنت مذعاناً أو موهوناً من الداخل، ولا أفتقر إلى أية سمة بقدر ما أفتقر إلى الرصانة والتراص، أو إلى المتانة الشخصية التي هي المتانة على الأصالة. فأنا لا أواجه بكلمة «لا» إلا على ندرة وحسب. فأذعن وانقاد مع يقيني بأن إذعاني أو انقيادي ليس في صالحي بتاتاً. وكثيراً ما أشعر بأنني هش كالقش، لا من الناحية الجسدية وحسب، بل من الناحية النفسية بالدرجة الأولى.

ولهذا السبب، فإن في ميسور أي امرئ، ولا سيما إن كان خبّاً أو من الثعالب المراوغة أو المتنمّسة، أن يستولي علي ويبتزني بسهولة ويسر، أو أقله بغير عسر أو مشقة. ما هذا؟ صدقيني أن قدرتي على الرفض، أو على أن أردع أحداً عن النيل مني، ضعيفة جداً، بل هزيلة مثل جسدي في الطور

الراهن. أما الحرن والعناد فشيء أكاد أن أجهله تمام الجهل، حتى وإن كان لصالحي. ولهذا أستطيع القول بأنني مصاب بهشاشة الشخصية، بدلاً من هشاشة العظام، مثلاً. وههنا قد يتضح لك لماذا لم أتمكن من أن أحصل على أي منصب في سلك التعليم فوق مستوى معلم المدرسة.

وفي حسباني، بل في يقيني الجازم، أن لهذه الحال السلبية المقيتة صلة بمصيرنا أنا وأنت، أيتها الدرة اليتيمة التي لا نظير لها قط، والتي متى خسرها المرء خسر كل شيء دون استثناء. أجل، يا جرحي النغّار الذي يند عن كل اندمال أو التئام مهما أبذل من جهد. وبودّي أن أضيف هذا القول، وذلك لمتانة علاقته بمصيرنا المشترك. حيثما لمس المرء النعومة الرخامية والطراء المخملي، فإن عليه أن يتفطن للخبث واللؤم أو للاحتيال الذي قد يمتزج مع الطراء والنعومة تمام الامتزاج حتى يتعذر على المرء أن يفك أياً من الشيئين عن الآخر. فربما كانت هذه هي النعومة القذرة، وكان ذلك هو الطراء الخبيث اللئيم المحتال. فليت الله ينحاز إلى الطيبين والبسطاء، وهم من يجدهم الخبثاء فرائس يتغلبون عليها بسهولة ويسر.

ولكن، هل من درب إليك، يا نفحة نفحتها وردة الأزل ذات صباح مشمس دفيء، فعطرت الأكوان كلها، من سدرة المنتهى حتى قرارة الوجود السحيقة. لقد صرت الحقيقة التي يلوب عليها الذهن منذ أن نشأ الذهن في الدماغ حتى يوم الناس هذا. ولكن

ما معنى أن تغيبي هذا الغياب كله؟ هل هنالك طلاق دائم بين الذهن والحقيقة؟ يا إلهي! إن هذا هو العجب العجاب.

فيا لهذا الحنين المفعم بالحزن والشجى على ما فات واندثر دون أن يخلف أيما أمل في استرداده آخر الدهر. إذن، ما من سبيل إلى تلك الأيام الزنبقية السعيدة التي ذوت وانطفأت قبل أكثر من نصف قرن. وليس هذا الخسران كل شيء. فالمؤسف أن العالم آخذ بالاتضاع دون توقف. فهو في كل سنة يهبط درجة جديدة، ولسوف يثابر على الهبوط المستمر حتى يصل إلى مستوى قد يعطب الحياة ويحولها إلى حطام.

ولعل من حسن حظنا، أنت وأنا، أن كلاًّ منا قد عاش ريّق عمره في عالم ليس بالمضطرب كما هو حال العالم في الزمن الراهن. فأنت لا يفوتك ما فحواه أن التوتر أخذ بالتفاقم والاحتدام طوال السنوات العشرين أو الثلاثين الأخيرة. فمما هو ناصع للأعمى والبصير أن الحقد وحده هو الذي يتنامى، يفتحل أو يتعاظم في هذه الأيام الرعناء. وهذا هو بالضبط ما يجعل الناس مضطربين الآن حتى نِقْي العظام. إنها السياسة التي لا تملك شعاراتها النفيسة إلا أن تفقّس أفعالاً خسيسة.

ترى، هل لهذه الحياة الحديثة المبهرجة، أو المصبوغة بصباغ زائف برّاق، مع أنها في الجوهر مصنوعة من وحل وطين ولزوجة، أو ربما من اللاشيء والخواء حصراً، هل لها أية قيمة

من أي نوع من الأنواع؟ ثم ما هذه الدنيا التي لا تعنو لأي إصلاح، حتى وإن يك خفيض المقدار؟ ولا أحسبني مبالغاً إذا ما ادعيت بأن هذا الطور التاريخي المتوتر الجامح هو طور خمج مذر ذو لون داكن، ومن طبعه أن يدفع الأمور إلى الحضيض، أو إلى التردي المكافئ لأي تدهور خطير. فكأن الأشياء قد خسرت لدانتها المطاطية، أو مرونتها التي بها تتحرك، فلم يبق منها سوى ألياف ناشفة لا حيوية فيها ولا يخضور. كما صار في ميسور العقل أن يذهب إلى أن الإنسان يتجوّف أو يتجيّف في قلب هذا التردي الآخذ بالتفاقم والاستفحال يوماً عن يوم.

ولقد انتصرت الغوغائية وانتشرت ثقافتها أيما انتشار في هذا العصر الأشيب. فها قد صارت الصدارة للرياضة، وزاملتها ثقافة الطبخ والطعام، كما زاملتها ثقافة الأزياء والملابس، وكذلك ثقافة التسلية ممثلة بالمسلسلات التلفزيونية الخاوية من كل محتوى ذي بال، والفقيرة إلى كل عمق وأصالة، والتي يهندسها أساتذة الغوغاء لكائنات بشرية بغير عمق يسهل التأثير عليها أو على عواطفها الهشة الضحلة. أما ثقافة النخبة، أو ثقافة الخاصة وخاصة الخاصة، فقد نفيت إلى أقصى المنافي خلال السنوات الأربعين الأخيرة. وبسبب هذا التردي المريع، قد نبلغ ذات يوم من أيام المستقبل غير البعيد، إلى خراب لم نعرف له نظيراً من قبل بتاتاً. ويلوح لي أن عصرنا شاغر إلى حد لا يسمح بإفعامه بتاتاً.

ولعل أهم حقيقة ينبغي أن ندركها عن إنسان زماننا الراهن، وهو ما أراه رُذالة الأزمان كلها وحثالتها، هي أنه قلما يكون قادراً على الالتزام الأصيل والولاء النبيل لأي شيء مهم، ولا سيما للمثال وما يقع خارج السلعة والمال. ولعل من شأن هذه الحقيقة أن تحرمه من متعة قد لا تبذها أيه متعة روحية أخرى. إنها نشوة الاتصال بالعلو، أو بما فوق المادة. وهي نشوة وثيقة الصلة بالراحة أو بهدأة البال. كما أن انفكاكه عن المثال قد يجعل من حياته اضطراباً وزلزلة عنيفة، أو تداعياً يمهّد للسقوط. بل إن في ميسور هذا الانفكاك أن يضع الإنسان الراهن في وضع يتبدّى من خلاله وكأنه مخلوق يحشرج أو يحتضر. فلا مرية في أن هذا الاستهلاك المتفشي داخل كل بقعة من بقاع الأرض قد أضر بالبشر، لأنه حرمهم من كل شعور نبيل أو أصيل. ولهذا، يبدو لي أن لا محيد عن دفع الضريبة، فلا يكون ثمة مكسب في جانب إلا ويقابله خسران في جانب آخر.

وربما جاز لي أن أزعم بأن الالتزام بالمثال هو أساس متين للالتزام بإنسانية الإنسان وكرامته وقيمة مغزاه بوصفه سريرة دائمة التطلع نحو المثال. وعندي أن أحسن تعريف للإنسان هو هذا: إنه المادة التي تحنّ إلى ماهيات ليست مادية بتاتاً. وإنها لماهيات كريمة شريفة تلك التي تحنّ إليها سريرة الإنسان المفعمة

بالقلق في الغالب الأعم. ويتضمن هذا ما مؤداه أن الإنسان روح قبل كل شيء. ولأنه روح فإنّه الكائن الدنيوي الوحيد المركب من المادة وما يعلو فوقها في آن واحد. فإذا أتخمت جانبه المادي أفقرت جانبه الروحي. والعكس صحيح. ولهذا بالضبط قالت الصوفية: ما خدم ظاهر إلا على حساب باطن.

ولعل هذا الموقف الموالي للروح، أو لفحوى الشخص البشري، أن يكون أعلى نمط من أنماط الالتزام المطلوب ابتغاء إضفاء النكهة الطيبة على الحياة البشرية التي فقدت عذوبتها منذ زمن ليس بالقصير. وربما انبجست أهمية هذا الموقف من كونه يصلح لمجابهة النذالات القادرة على أن تصحن قرص الشمس، وأن تجعل العيش وليمة من رماد ناشف كئيب. ولكن استرداد عذوبة الحياة لن يَتوقف على مجابهة هذه النذالات فقط، بل لا بد من التصدي للاستهلاك الممجوج وما جاء به من متاعب، أو قل إن الترشيد هو بالضبط ما يحتاج إليه إنسان زماننا هذا كي يتخلص من بؤسه الذي يقلقه ويحول بينه وبين السعادة المفقودة أو المنشودة. ففي قناعتي أن إنسان التقشف أو الندرة الاقتصادية السابقة على فوران المال في سبعينيات القرن العشرين قد كان أقل اضطراباً وقلقاً، وربما أسعد، من إنسان عصرنا الراهن.

ولكن أول داء أو أكبر داء من أدواء الإنسان هو الأنانية، وحبّ الذات. ويتضمن هذا النازع جنوحاً نحو الرئاسة، أو نحو

طلب الرتبة العالية والتفوق على الآخرين جميعاً، وهم من لا يراهم الفرد، في الغالب، أنداداً له، بل هو لا يشاهدهم إلا وهم يتوضعون في موقع أدنى من موقعه، أو هكذا ينبغي أن يكونوا لكي تستقيم الدنيا في نظره. ولكن الرتبة ليست الأهم حين يتعلق الأمر بالأنانية، وذلك لأن الشأن الأهم هو الملكية الخاصة، وهي الوثيقة الصلة بالجشع المناقض لكل شبع. مرض الإنسان كله يكمن في ميله العارم إلى الحيازة والتملك اللامحدود. أن تتملك هذا أمر عقلاني تماماً. أما أن تجهل الشبع، أو أن لا يتوقف ميلك نحو التملك عند أي حد من الحدود، فذاك هو المرض، بل الداء العضال الذي إذا شفي منه الإنسان صار ملاكاً أو شقيقاً للملائكة.

وحين تتملك فقد لا تدرك أن هذا الفعل قد تمّ على حساب الآخرين. كما لا يخطر في بالك أن ما تحوزه يحوزك ويتحكم بك. فالجشع الذي هو أخطر أمراض الإنسان لا يقل عن كونه قوة سلب من شأنها أن تجرد الإنسان من ماهيته الإنسانية وتجعل منه وحشاً مفترساً عنيفاً أو مريضاً. ولهذا، فإن تخليص المرء من جشعه، أو من إفراطه في الميل إلى الملكية الخاصة هو علاج له من بعض أمراضه النفسية، كما أنه محاولة تبذل ابتغاء مساعدته على استعادة هويته الإنسانية المفقودة، أو التي تبخرت في حمأة السعي المحموم وراء الممتلكات ليحل محلها الوخم والخبث والمكر، بل الكثير من المثالب والأخلاق المذمومة

المرذولة. ولعل في الميسور إقناعه بأن المبالغ الطائلة التي يحوزها لا لزوم لها بتاتاً لأنها زائدة عن الحاجة، وبأنه قد حرم لذة الراحة ليحصل عليها ويكنزها في موضع من المواضع. كما أنه منع الآخرين من تحصيلها والاستفادة منها على شدة حاجتهم إليها. فأية فائدة يجنيها المرء حين يمتلك مائة مليار دولار يودعها في مصارف الغربيين المحترفين للسرقة واللصوصية والسطو المسلح.

ولعل مما يسع المتأمل أن يلاحظه بسهولة أن الناس يزدادون حنيناً إلى الدين والتزاماً به كلما اشتدت وطأة المال على رقابهم أو على أرواحهم. وهذا يعني أن الدين هو ملاذهم الوحيد حين تنكبهم المصائب الكبرى التي تقض المضاجع.

فهل من طريقة تملك أن تجعل الإنسان يخرج من ذاته فيتنازل عن جزء كبير مما يملك ويمنحه لأولئك الذين لا يملكون. وعندي أن اكتشاف طريقة من هذا الفصيل هو فعل يبذ اكتشاف الفضاء، أو أي اختراع حديث. وتتأتى أهميته من كونه التطبيق العملي للمحبة والإخاء الإنساني. يقيناً، إن هذا الفعل النبيل هو الحب بالضبط. إن علينا أن نضفي على الحب الأخوي سمة إجرائية أو عملية، وإلا فإنه سوف يظل قولاً لا يصلح لغير الثرثرة. ولئن استطاعت التربية أن تبتكر طريقة لها هذا التأثير العميق

في النفس البشرية، فإنها لن تكون قد أنجزت استقلاباً في صلب ماهيتها وحسب، بل إنها سوف تكون قد أنجزت الحلم الذي حلم به جميع أصحاب اليوتوبيات طوال التاريخ.

لن أنسى ما حييت يوم قلت لي بأن كل إنسان لا تكمن قيمته إلا في داخله حصراً، وليس في خارجه أو في أمواله وممتلكاته ونفوذه وتوغله في السلطة، ولا حتى في صورة وجهه التي قد تجعله كائناً شبيهاً بالغرانيق. فمن مبادئك الكبرى أن الحياة بغير أخلاق ليست سوى علف للفوضى الكريهة والفقيرة إلى كل عذوبة وحلاوة. ولذلك، فإن عليّ، إذا ما نلت أيما شيء أن أسأل نفسي هذا السؤال: هل أستحق عن جدارة تامة هذا الكسب الذي حصلت عليه للتو؟ إن أسوأ الناس عندك هم أولئك الذين ينالون ما لا يستحقون، ولا سيما إذا نالوه بالغش والطرائق المرذولة. وبسبب هذا الخلق الرفيع ، فإنني لا أراك نفيسة وحسب، بل إنّك امرأة بغير نظير في هذا العالم الشحيح. ولهذا، فإنني كثيرا ما أطرح هذا السؤال: كيف جادت بك يد الزمان البخيلة التي ليس من طبعها أن تجود بأمثالك ولو لماماً؟

ثم إنني لا زلت أذكر قولك بأن الإنسان الحساس لا يقيم وزناً لتلك الوجوه البليدة المسترخية التي تجهل كل توتر أو كل هم غير صغير، فلا يقلق أصحابها أيَّ قلق، ولا يزعجهم أيَّ إزعاج.

ففي مذهبك أنَّ الإنسان الحساس أو المتوتر بسبب ما في العالم من بؤس ومصائب وحوادث مؤلمة هو وحده الكائن النفيس في هذه الدنيا التي قلما يصادف المرء فيها أحداً ليس من أشباه البشر. وتلكم حفنة من تعاليمك الشبيهة بتعاليم الأنبياء والقديسين، أيتها المرأة التي لا زالت تدور مع دمي في شراييني، والتي تصر على أن تظل تدور وتدور حتى آخر نبضة من نبضات هذا القلب الآخذ بالهمود يوما إثر يوم.

والآن، ما قولك بهذا المذهب، يا ذات العقل النيّر والمتألق مثل كوكب وهّاج؟ ما رأيك، أيتها الشمس التي تضيء عالمي وحده من دون العوالم الأخرى، ولا تلوح في أي أفق من الآفاق التي يراها الآخرون؟

- ٥ -

أيتها الصورة التي سوف تدوم ما دامت ذاكرتي، بل ما دامت هذه الرسالة التي لا أراها إلا ضراعة أتضرع بها إليك لتؤوبي من منفاك البعيد، بودي أن أحيطك علماً بأنني سئمت من التنفس، وضجرت من المشي والنوم وتناول الطعام والشراب، ومللت من العيش في كونٍ قلّما أرى فيه أحداً ليس من أشباه البشر. ولكنني - وايم الحق - سئمت من الجملة، من الكلية، ولم أسأم من جميع التفاصيل. فثمة بضعة أشياء لم أشبع منها حتى الآن، وأهمها الكتب والسفر. فهناك كتب شديدة الأهمية، ولكنني لم أطالعها، بل لم أشاهدها أو أصادفها في أي يوم من الأيام. فما وقعت في يدي بتاتاً، مع أنني بحثت عنها كثيراً، وعلى رأسها كتاب شاتو بريان، «مذكرات مما وراء القبر»، وهو الذي رأى فيه بودلير مفخرة من مفاخر فرنسا.

حقاً لم أشبع من الكتب قط، مع أنني طالعت منها ما لا يحصى ولا يعد، وسوف لن أشبع كتباً مهما يطل العمر، ومهما أطالع وأسرف في المطالعة، ولو أن عينيّ الخربتين ما عادتا تتحملان المزيد. ولقد كان دأبي، حين أقرأ كتاباً ممتعاً، أن أتمنى

لو أنه لا ينتهي إلى الأبد، وأن يظل يمدني بالمتعة دون انقطاع، وذلك وفقاً لمبدأ فحواه أنّ اللذة، حسب طبعها الخاص، لا تريد أن تتوقف عند أي حد. وفي مذهبي أن أسوأ الأقوال هو هذا: «الكتب أشياء ميتة». فأنا لا أدري كيف يسعني أن أطيق حياتي الجهنمية لولا الكتب وما تنطوي عليه من لذائذ روحية، أو من قدرة على الخلب والاجتذاب. ولا أحسبها تخلو من عزاء، حتى وإن يك صغيراً جداً. أقول هذا مع قناعتي التامة بأنه لا عزاء في هذا الكون الفقير إلى اللباب، أو ما من عزاء كبير، دون أدنى ريب.

وفي زعمي أن ظاهرة الكتب تمثل استجابة العقل لنداء الحقيقة. فمثلما ألوب عليك ملهوفاً يلوب العقل البشري على الحقيقة بحرارة واندفاع، ويتذهنها الذهن ويقلق من أجلها، ويرغب في أن يمتزج بها امتزاجاً حميماً يشبه امتزاج العاشق بالمعشوق، ولكنه لا ينال سوى نتف أو شذرات لا تروي عطشه الدائم إلى المعنى. فكأن الذهن معدة خاوية لا تجد لها قوتاً كافياً في هذا العالم الشاغر من كل محتوى ذي بال.

وقد يشعر الذهن، ولا سيما إذا كان عميقاً، بأنه أكبر من جميع أفكاره ومعلوماته. وربما شعر بأنه قد ندب للتنقيب عن سرٍّ عجيب، أو عن كنز مخبوء في أغوار يتعذر البلوغ إليها أيما تعذر. فهل نشأ العقل ليدرك الجاذبية الأرضية، وأن الماء يتألف من الأكسجين والهدروجين، وأن أي ضلعين في المثلث

أكبر من الضلع الثالث؟ أمن أجل هذه المعلومات الصغيرة والطفيفة الشأن كان العقل؟ لا، وألف لا، وذلك لأن مهمته لا تقل عن إدراك السر الكامن وراء هذه المليارات من المجرات التي تسبح في الفضاء اللامتناهي. وهو لن يشعر بأية راحة قبل أن يكتنه هذا السر ويسبره ويجعله جلياً ناصعاً تمام النصوع.

فمما لا يخلو من الدلالة، أيتها السيدة الفطينة، أن اللغة العربية قد خصصت للعقل طاقماً من الأسماء لا أدري ما إذا كانت اللغات الأخرى قد زودته بمثلها أم لا. فهو العقل لأنه يعقل الأشياء، أي يربطها بعضها ببعض في فضائه الرحيب، وهو الذهن لأنه يتذهنها، أي يتفطن لها ويدرك فحواها، وهو الحجى، لأنه يقرع الحجة بالحجة، وهو النهى، لأنه ينهى عن الشرور، وهو اللب لأنه الجزء النفيس من الإنسان نفسه، أو لأنه الكنه الذي لا يعّد الجسد غير لحائه أو قشرته الخارجية. ولا أذكر ما إذا كانت له أسماء أخرى أم أن هذه الأسماء الخمسة هي نصيبه كله. ولكن تسمية شيء واحد بخمسة أسماء هي مؤشر قوي من شأنه أن يؤشر إلى شدة اهتمام الناس به. كما أن الاهتمام به على هذا النحو هو دليل حاسم على أهميته، بل على أنه قيمة من أجلّ القيم.

وفي نحلتي أن العقل هو نعيمنا وجحيمنا في آن واحد. فهو نعيمنا لأنه صنع لنا هذه الحياة البشرية العالية التي تفصلنا عن حياة الحيوان بمسافة فلكية مفتوحة، والتي تحتوي على لذة

روحية لا وجود لها في الحياة خارج المجتمع، ولا سيما نشوة الفنون والآداب التي لا يتمتع بها إلاّ البشر وحدهم، بل إلاّ نقاوة الجنس البشري وخلاصته الممتازة. ولكنه في الوقت نفسه جحيمنا الذي يعذبنا على الدوام. فالبقر لا يتعذب لأنه بغير لب. أما نحن الذين زودتنا قوة الخلق بهذا اللب النفيس فصرنا نعرف بذوي الألباب، فإننا نذوق الأمّرين على الدوام، وذلك لأنَّ من طبع هذا اللب أن يتفقد الغياب وجميع أصناف النقص والسلب بإسراف. ولعمري، إن هذه هي مثلبته الأولى. ولكنها المثلبة التي تضفي عليه النفاسة وتجعله ذا قيمة جلّى. فما خير كائن يتمطى كالبقر، يأكل ويشرب ويستلقي هادئاً لا يعكر صفوه شيء كأنه حجر أو نبتة. فالسلم المتطرف مرفوض، كالحرب الطاحنة، سواء بسواء. ولقد أصاب أبو الطيب كبد الحقيقة يوم صاغ هذا البيت الشعري:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة يــنعم

وفي تخميني، يا سيدة اللبيبات، أنك تفضلين الشقاء باللب والفهم على التنعم في الغباء وهزال الذهن. فما خير حياة بليدة غبية مستتبة تعاش بغير قلق أو همّ واضطراب؟ ولست أرتاب لهنيهة واحدة بأنك تعانين أرقاً خلاصته أن العقل لا يملك أن يبلغ إلى الحقيقة النهائية القصوى التي ما زالت تؤرقه وتنهكه منذ أن ولد حتى اليوم . فربما كنت تشعرين بوجود فجوة واسعة

تفصل العقل عن روح الأشياء ومغزاها. أن لا نتمكن من البلوغ إلى حيث ينبغي أن نبلغ ، فتلك مرارة ممضّة، وذاك صنف من أصناف الجحيم نقاسيه باستمرار. وقد لا يخفى عليك، يا سيدة اللقف والإدراك الخاطف، أن عجز الذهن عن البلوغ إلى الأقاصي هو ما جعل نشوء الخيال أمراً ممكناً في سريرة الإنسان، كما حتم أن ينشأ نشاط ذاتي آخر وهو الحدس أو الزكانة. إن هاتين القوتين هما تعويضنا عن النقص الذي يعتور الذهن فيرسخ فيه قصوراً يحبسه داخل حدوده الضيقة بعض الشيء. ولكن السريرة لم تفرز أية قوة تملك أن تدرأ عن الذهن معاناته للشقاء التي يفرزها من تلقاء نفسه بعد ارتطامه بالأشياء أو بعدم قابليتها للتأويل أو للتفسير.

إنه قدرنا العنيد أن يكون لنا عقل وأن نكابد بسببه حصراً. ولأن لنا عقلاً يحتم علينا هذه التعاسة المضغوطة أو المكثفة، فقد صرنا كائنات روحية نفيسة لا نظير لها على هذا الكوكب السابح في فضاء بغير نهاية. وهذا كله يعني أن الإنسان الحساس هو وحده الكائن النفيس في الوجود بأسره .

* * *

أما بخصوص السفر، يا سيدتي الفاضلة، فأنا ساخط لأنني لم أرحل إلى الشرق، وبخاصة إلى الهند. ففي ذلك الجزء الوقور من أجزاء العالم، هنالك ريازة عظيمة جداً لم يتح لي أن أراها

عن كثب، ولا سيما التاج محل والمعابد البوذية والهندوسية الجليلة. وفضلاً عن ذلك، فإن الهند وما جاورها من البلدان قد أنتجت صنفاً من أصناف الموسيقى لا وجود له عندنا، ولا عند الغربيين أيضاً. كما أنني لم أقرأ «الابنشاد»، أو ذلك السفر الخالد الذي وصف بأنه «هملايا الروح». ولعلك تذكرين، أيتها المرأة التي تبذ جميع الجبال شموخاً، أنني كثيراً ما نوّهت لك بإعجابي الشديد بشخصية الهند المهيبة ممثلة بشخصية غاندي العظيم، وذلك منذ أواخر الخمسينيات.

ومن الغرائب أنني لا أعرف مستهنداً واحداً في العالم العربي كله. وأظن أن جل الناس عندنا، في هذه الصحاري الماحلة، يجهلون كلمةِ «الاستهناد» نفسها. ولهذا، فقد كان واجباً عليّ أن أتعلم اللغة السنسكريتية (وهذه كلمة تعني المهذبة)، وأن أترجم روائعها النفيسة إلى لغتنا العربية عن الأصل، وليس عن أية لغة أوروبية. ففي الحق أننا أغفلنا الهند خلال انهماكنا بثقافات أوروبا، مع أن حوار منطقتنا مع الهند قديم جداً. فمن المؤكد أن الحلاج قد تثقف في الهند. وربما أضفت المسعودي صاحب «مروج الذهب». أما البيروني فهو خبير بثقافة الهند التي قضى فيها عشرين سنة من عمره. ويصح القول نفسه على ابن بطوطة، وكذلك على الجيلي الذي عاصره تماماً أو تقريباً.

إذن، لم تكتف الظروف القاسية بأن حرمتني منك، يا أغلى الغاليات وأنفس النفيسات، بل يا شمس حياتي وقمر عمري،

ولكنها تمادت فمنعتني من ممارسة هواياتي المفضلة، أو هواياتي العديدة المتنوعة. فما خير حياة يعيشها المرء محروماً من كل ما يحب؟ وما مذاق عيش يمارسه الإنسان بغير هوى ولا هواية، حتى كأنه ما خلق إلا ليتحمل ويطيق؟ إنَّ الفرق بين هذه الحياة الزائفة والحياة الأصلية كالفرق بين الصوت والصدى. فالصدى ليس الصوت بتاتاً، مع أنه ينشأ عنه دون سواه، ومثلما ينشأ الابن عن أبيه. فكما أن الصدى تزوير للصوت، كذلك حياتنا العامة تزوير للحياة إلى حد لا يخفى على الألباء بتاتاً.

- ٦ -

أيتها الأُنثى الهانئة بمسرّاتها الخاصة، أؤكد لك أنني ما فتئت أراك مثلما كنت أفعل قبل خمسين عاماً بالضبط، حتى كأنك الشمس التي لا تتغير، أو الحقيقة الكلية التي هي سرمداً عينُ ذاتها. فما برحت في نظري تلك الغزالة اللطيفة الناعمة الهيفاء، بل تلك المرأة الكاملة التي جمعت جمال الجسد إلى جمال الروح ورجاحة العقل ورزانة الشخصية. في الماضي، في الأزمنة القديمة، لم تكمل من النساء غير اثنتين وحسب، أما العصر الحديث فقد أضاف واحدة ثالثة، وهذه هي سمرائي النفيسة التي لا تعادلها أثمن اللآلئ واليواقيت. وعندي أن الأزمنة الجديدة ليست لها أية مأثرة أخرى، اللهم إلا أن تكون طفيفة المقدار.

فيا كنزي النادر العظيم، متى سوف تسمح الأيام بأن ألقي عليك نظرة من شأنها أن تنعش روحي الذابلة الموهونة، وأن تزرق شيئاً من الصلابة إلى عضلة قلبي الذي ذوّبه الزمان حتى صار مثل خرقة بالية، أو مثل هلام يفتقر إلى كل صلابة. ولقد برّح بي غيابك وأضناني وحوّل حياتي إلى عذاب مقيم. ولكن، هل تصدقين أن عذابك هو العذوبة إياها، أيتها المرأة التي

أفضلها على نساء العالمين أجمعين. تخيلي، حتى عذابك عذب، فكيف يمكن لحضورك أن يكون؟

حسناً، أيها الكمال الذي لا يفوقه أيُّ كمال آخر قط، ما من أحد يعلم إلى أي مدى أنا مشوق إليك، أيها الشائق الأخاذ. كما أنه ما من أحد يعلم مدى حاجتي الوجدانية إلى التمتع برؤية وجهك الجليل. ومع ذلك، فإنني عاتب عليك، بل جد عاتب. كيف فارقت في تلك الآونة وتركتني طعمة للأحزان وأوجاع الوجدان، والكثير من أصناف البؤس الأخرى؟ ثم لم تعودي تأبهين بي، بل أغفلتني أو أهملتني أيما إهمال. كيف تركتني وحيداً في عالم يحاصرني من جميع جهاته، أخرج يومياً لأمارس عملاً أعايش فيه محفلاً من مسوخ وأوباش منحطين؟ «إن المهن كلها ترعبني»، كما قال رامبو.

واليوم أنظر حولي فلا أشاهد غير سدَنَةٍ الجهل وحرّاس التخلف، بل غير كائنات تلتصق بالحضيض ولا ترى الذروة ولا تريدها. وما من شيء هنالك يروّح عني، وما من شيء كذلك أتخذه عزاء في سواء هذا الانحطاط وهذا الاغتراب المرير. أجل، إنه لعالم قاس، بل شرس، ذاك الذي غمّستني فيه الظروف طوال عشرات السنين. ولم أخرج من ذلك المستنقع الآسن إلا بعد ما شاب الفؤاد وكاد أن يتفطر. فها أنا ذا كائن مستهلك محطم لا يستطيع أن يعيش ولا يستطيع أن يموت.

ترى، ماذا كان هذا العالم سوف يخسر، وأي ضير سوف يلحق به، لو أتاح لي أن أعيش بجوارك، وأن أرفل بثياب العزّ في رخاء العيش من حولك؟ وهل هنالك عزّ إذا ما كنت بعيداً عنك ولو بضع خطوات؟ إذن، تخيلي مدى الجاذبية التي تحوزين، وكذلك القدرة على التأثير. فما من شيء أدل على امتلائك وقوة فحواك من أنك غبت فازددت حضوراً في وعيي، تماماً مثل إنسان تخيل الصوفيون أنه قد شرب فازداد صحواً وقدرة على رؤية ما لا يرى. إن عطشي إلى رؤية وجهك الكريم هو برهان حاسم على أنك أنفس النفائس، ولولا ذلك لما اشتقت إليك ولما قلقت عليك بتاتاً. ولا أغالي، أيتها اليمامة الخضراء، إذا ما صرّحت بأن فؤادي هو العش الأبدي لحضرتك الجليلة.

فلو أطلَّ عليّ وجهك الكريم لهنيهة صغيرة، لشعرت بأن الحياة ما زالت عذراء مترعة بالنقاء، وبأن لها مساحة مطلقة السراح ولا تحدها أية حدود مهما يك نوعها. إنَّ نظرة سريعة أرشقها عليك لها القدرة على أن تصنع هذا كله، فكيف لو عشت في كنفك طوال عمري المديد؟ أما كانت الدنيا سوف ترقص لي في هذه الحال المفترضة، وتضحك أو تبتسم، وتداعبني بأناملها الطرية اللدنة كالمطاط؟ فيا للخُبال المتحكم بالأشياء ليجعل منها مصدراً لكل بؤس، وليحرمها من النكهة الطيبة والمذاق العذب، فيتحالف مع الهمجية للتنكيل بالروح. فالقاعدة أن لا يلقاني العالم

إلا بما أكره، فإذا لقيني بما أحب فذاك هو الشذوذ عن القاعدة. ولكنني سوف أواظب دوماً على طرح هذا السؤال المحيّر: لماذا كانت الأشياء على ما هي عليه ولم تكن على أي نحو آخر؟

* * *

صدقيني أنني كثيراً ما آخذك معي، في قلبي أو في خيالي، ثم أذهب إلى العزلة، أو إلى الظلمة، لأخلو بك دون أن يكون هنالك أي شيء من شأنه أن يعرقل اتصال كل منا بالآخر في فسحة الوهم، أقصد الاتصال الخيالي الذي لا يخلو من لذة. وحينئذ أسمع صوتك يهمس في أذني بأقوال لا أسمعها من سواك بتاتاً. وإنها لبرهة عميقة لا ينتجها النور ولا يسمح بمثلها لأحد، لا ولا الضوضاء تسمح، كما لا يسمح حضور الآخرين. وإنها لمتعة لا يجئ بها إلا زواج الصمت والعزلة في الظلام الدامس المحرر لأغوار النفس ومحتوياتها المركوزة في الغور العميق. ولعل أهم ما في أمرها أنها برهة تحتقب ألذّ اللذائذ التي أقاربها في حياتي. وفي هذه السويعة النفيسة يخرس صوت اللحم المشتعل سغباً، ويتحرر صوت الأعماق والأغوار، لتعيش النفس في صنف من أصناف الرغد يخصّها وحدها، ولا يخص سواها من الكائنات. إذن، لقد اكتشفت لذة منعشة نادرة، ولكن همي الأكبر يتكثف في هذا السؤال المرير: أين أصادف أيما فداء حقيقي لهذا العالم الساقط إلى أبد الآبدين؟

وعندي أن هذه البرهة الكاشفة هي أساس من الأسس التي تؤسس فقه الظلام، أو فقه الأغوار والأسرار، وذلك لأنها توضح اللاوعي أمام الوعي، وتشرح المخبوء وتظهره للعيان. وإنه لفقه شريف عظيم حقاً، ومن شأنه أن يساهم في تعريف الإنسان بماهيته وحقيقته أو كنه أمره.

هل رأيت أيّ نداء أنت؟ إنه نداء يدعوني إلى الارتباط بماض تصرَّم بَدَداً، فما عاد له أيّما وجود قط منذ زمن بعيد. وأي مغناطيس أنت؟ إنه يجتذبني إلى حضرتك المحبوسة في الفراق والغياب. فيا لها من مفارقة حادّة: غياب الحضور وحضور الغياب. لقد تحدث القوم، أعني الصوفيين، عن «الغائب الذي لا يغيب». وأنا لا أملك أن أفهم هذه العبارة إلا بوصفها إشارة تؤشر إلى شخصك الكريم، على وجه الدقة والحصر، يا من لا تغيبين عن مقلة العين إلا بقدر ما تحضرين في رحاب البال والخيال. ولولا نداءاتك التي تدعوني باستمرار إلى حنانك الرؤوم، لما أبهت بهذه الدنيا البالية أو الشبيهة بعجوز ورهاء هرأها التداول والاستعمال، وذلك لكثرة ما تعاورتها الأجيال المتوالية خلال أحقاب وأحقاب. ولولاك قبل سواك، ولولا الكتب أيضاً، لما بقي في حياتي شيء غير الغوغائية والأميّة اللتين تحاصران روحي من جميع الجهات.

ولست أغالي إذا ما زعمت بأنني صرت خبيراً بالمكابدة والأسى، وذلك لطول ما تمرست في الأوجاع والتجارب المؤلمة

أو المنهكة للروح. وهذا يعني أنني في أمسّ الحاجة إلى اللغة، التي هي الخير الأسمى، وذلك كي أعبّر عن هذه الخبرة النادرة. وأحسبني صادقاً إذا ما زعمت بأنه ما من شيء يطيعَني في هذه الدنيا سوى الكلنات. فاللغة هي المعاذ الوحيد الذي أعوذ به وألوذ كي أخلق لنفسي لهواً أتلهى ببهجته عن مآسي العصر الراهن. فما من أحد يملك أن يصنع شيئاً ذا بال لهذه الفظاظة الدامية الرعناء. وكل ما نملك أن نفعل، أنت وأنا وسوانا من الضعفاء، هو أن نكابد ونتألم وحسب.

فنحن قلما نحصل على ما نريد، إن كان ما نريده شيئاً من فصيلة النفائس المحببة إلى النفوس. ولكن الذي نحصل عليه حقاً يندر أن يكون غير شيء زهيد القيمة أو خفيض المقدار. وهذه واحدة من القواعد الكبرى التي تتحكم بهذا العالم، أيتها المرأة التي علمتني الكثير، أو ألهمتني معظم أقوالي. وفي صلب الحق أنني لا أشعر بماهيتي على الأصالة في أي عمل من الأعمال بقدر ما أشعر بها حين ألامس قواعد الوجود وأركانه الراسخة رسوخ الأطواد العصيّة على أي اهتزاز.

أليس في العجائب أن أخرج من البيت ساعياً وراء المحبة والوصال فلا أواجه غير الضغينة والحقد وما يثير الاشمئزاز، وأن أطلب الأجواد فلا ألاقي غير الأوغاد؟ إننا نعيش حياة ملحها الكذب وبهارها الغش والمخاتلة. وهذا هو الحال في كل مكان وزمان. فلماذا تأسست الدنيا على العداء أكثر مما تأسست على الإخاء؟ وما هذا التوتر الدائم الذي ينوء البشر بثقله كل يوم. وما الجداء من قتل

الناس على هذا النحو الهمجي المتوحش المقيت؟ أليس الشقاء أطغى على المشروع البشري من السعادة والهناء؟ لا أحسب أن ثمة أجوبة مقنعة عن هذه الأسئلة المحيرة والمثيرة للقلق.

بيد أن هنالك حقيقة لا يجوز إغفالها، بل لا بد من الإشارة إليها في هذا الموضع المناسب لها، وهي أن النور لا ينتصر على الظلام، والوعي لا ينتصر على اللاوعي، إلا حين ندرك وجودنا بوصفه كارثة أو مأساة فاجعة. ولكننا إذا ما فعلنا ذلك، فإننا نكون قد خسرنا طفولتنا خسراناً نهائياً لا ترميم له قط، وفقدنا الدهشة وبكارة الروح وغضارتها، ولم يترسب في قعر الكأس سوى الحثالة وحدها. وفي هذه الحال يجب عليك أن تعاني من تفاهة الأشياء وانعدام وزنها. وهذا يعني أنها سوف لن تكون إلا شاغرة من كل مضمون، يا امرأة من سلام وهدأة بال. فأنت، يا عزيزتي، من الذكاء بحيث لا يفوتك إسهام الظلام واللاوعي في توازن النفس، بل حتى في توازن الأشياء. كما لن يفوتك ما فحواه أن ثمن الحقيقة باهظ جداً. وإنك تعلمين أن أوديب فقأ عينيه كلتيهما حين أبصر الحقيقة أو أدركها: فالحقيقة شيء مرعب، مع أنها من فصيلة النور في ظاهر أمرها. ولكنها، على مستوى اللباب، قد تنتسب إلى مملكة الظلام، أو ربما إلى الغبش الذي هو نتاج لزواج بين نقيضين.

ولكن، أيهما أفضل للمرء، أن يدرك الحقيقة ثم يدفع ثمنها الباهظ، أم أن يظل سادراً في الجهل، أو غارقاً في لجج اللاوعي

الهادئ المريح؟ قد تختلف الإجابة عن هذا السؤال من فرد إلى آخر، على ما أرجح. أما أنا فأوثر أن أعرف وأدفع الثمن من أعصابي وهدأة بالي في الوقت نفسه. وإني لأرى هذه النزعة بوصفها واحداً من الأسانيد التي تسند وجودي في عالم ماحل يتألف من الهلع والبؤس، وما إلى ذلك من هموم .

صدقيني إذا ما صرّحت في أيام الكرب والبلاء التي نعيشها خلال هذا العام الجاري، أنني لا أتذكر أحداً من أهل الماضي بقدر ما أتذكرك أنت على وجه الحصر. وإنك تحتلين مخيلتي وتفعمين البال، بل تجتاحينه اجتياحاً جارفاً كما يفعل الإعصار. أما طيفك فينتصب على الدوام أمام عينيّ كأنما هو يحاول أن يخفف من وطأة الكابوس، أو من الشعور بالاندلاق صوب المجهول أو باتجاه اللامفهوم، بل نحو الطور الذي يتعذر التنبؤ به منذ الآن. والأهم أنني أتخيل ذلك الطيف وهو يحمل كأساً طافحة بالماء الزلال، أو البارد برودة مياه صنّين، ويقدمها إليّ ويعلن قائلاً: هاك، اشرب، فهذا ماء من شأنه أن يقطع كل ظمأ. ففي مواجهة هذه الزمجرة الصاخبة لا أراني أنال أيما عزاء إلا من يدك السخية البيضاء، مع أنها بعيدة بعد الثرى عن الثريا. وهذه مكافأة تقدمينها لي على التزامي بك طوال هذا الركام الضخم من السنين. فمنذ هاجرت والقلب يتلفّت نحوك أو نحو ماضينا السحيق. فيا لتلك الأيام الخوالي التي أطلعتك قمراً بدراً، أو زهرة فوّاحة وعصيّة على الذبول واليباس إلى أبد الآبدين.

- ٧ -

عزيزتي السمراء،

لقد عشت حتى الآن ثلاثاً وسبعين سنة من الإخفاق والاشمئزاز والأغلاط المترادفة أو المتلاحقة. ولهذا أراني أشعر بالقشعريرة لأنني مستنزف أو منضّب وبغير حميّة أو قدرة ضخمة على الاستجابة التلقائية. أما الكتابة، أو الشيء المشرق الوحيد في رقعة عمري، فهي رد الفعل الذي يؤديه وجداني على مسلسل الإهانات الذي تعرضت له منذ طفولتي حتى اليوم، مع أنني لست راضياً تمام الرضى عن هذه التجربة الطفيفة الجداء، سواء من الناحية المادية أو المعنوية. فمما يلوح لي أنه لا بد من تعويض، أو لا بد من فعل ينهض الروح بعبئه ابتغاء إقناع نفسه بأنه لم يكن متفرجاً كسولاً على ذاته وهو يتلقى الصفعات، بل الضربات القاصمة للظهر، أو كي يعثر على هويته الضائعة فينجو من تبعات التخلع والاغتراب. وهذا يعني توازن الكون الداخلي في عالم منسوج من الرهاب والكآبة معاً.

ومع ذلك، أشعر بأن كل شيء يهمهم ويدمدم كأنه قد صمم على أن يفترسني أو يلتهمني دفعة واحدة، ولكن دون أن يشفع

لي أي شفيع، أو أية قوة من تلك القوى المنتشرة في هذا الكون الفسيح المنداح. ففي رؤيتي أن كلّ شيء، هذه الأيام، قد اتخذ قراراً لا رجعة عنه بالإسفاف والحطة وإنتاج صنف من أصناف الخوف يتفشى في ثنايا العالم، ويخلق مناخاً نفسياً جديداً لعل من طبعه أن يكسر فقار الظهر. وربما كان في ميسور اللماح أن يلاحظ توتر الرعب على كل وجه في أي شارع من شوارع هذه المدن المصابة بأسوأ أنواع الاحتقان أو الازدحام.

وفي سواء هذا البؤس المنتشر بين القطب الشمالي والقطب الجنوبي، أستطيع أن أتخيل عينيك الدعجاوين وهما ترنوان إلى السماء كأنهما تستمطران الوحي، أو تبغيان مشاهدة جلال الملكوت بكامل مجده وبهائه، وهو يشع نوراً من عليائه على هذا المنفى المادي الذي يحوزه الشيطان ويتحكم به على هواه دون أن تدحره أية قوة أخرى. فأنت روح مطهمة تظمأ إلى الماوراء الخالد المستتب بطمأنينة لا يهزها أيما اضطراب. ثم إنك لا زلت تحتفظين بالكثير من الدهشة في سريرة نفسك التي لم تعطبها الحضارة الحديثة ذات اللون الكامد. هكذا أتخيلك، بل إنني لا أستطيع إلا أن أتخيلك على هذا النحو اليانع الغضير.

أما أنا فقد اصطادني فخ لا مخرج لي منه أبد الدهر، وذلك لأنه نتاج لشيخوخة نفسية دائمة، وخلاصته أنني لا أرى العالم إلا بوصفه خلاءً شاغراً من كل فحوى أو دلالة. ولعل مما هو ناصع كوضح النهار، أنَّ الرؤيتين متباينتان أشد التباين. ومع

ذلك، فإنني سوف أظل موالياً لشخصك الكريم ومشتاقاً لرؤية وجهك السموح. فلو لم تكوني مركز حياتي كلها لما بقي في حوزتي أيما شيء يعتد به.

وا أسفاه! أو يعقل أن يكون هذا الصخب كله لأجل صمت سرمدي يثير استهجان العقل، أو يستفز شعور المعري، ذلك الشيخ الجليل المهيب المستهجن لكل ما تراه العين؟ أليس عجيباً أن يتكدس الناس على هذا النحو الأخرق في جوف الخواء واللاجدوى، بل حتى في العذاب الملوّع، وأن يقتتلوا دون رحمة أو هوادة من أجل هذا اللاشيء المتجسد أمام البصر والعيان. إن هذا فظيع إلى الحد المزري، بل إنّ هذا فظاظة صفيقة وبغيضة إلى كل نفس لطيفة هيفاء. وحتى الشخصية الفجّة سوف تمجّه وبتقزز، لو أنها استوعته ذات يوم. فلا قيمة إلا للوعي وحده.

ومع هذا كله، فإنني سوف أدأب دوماً على التنقيب عن شيء يستحق أن يعاش من أجله، كما سوف أواظب على ممارسة أحلامي التي، إذا خسرتها، فإن حياتي لن تصير على خير ما يرام. ولا أراني إلا صادقاً حين أزعم بأنني أؤمن بقيمة الإنسان وكرامته، على الرغم من هذا الخلاء الصفيق. أجل، كرامة الروح الذي اضطهدته واحتقرته وأهانته جميع الحكومات التي ظهرت على مسرح التاريخ منذ فجره حتى اليوم، والذي لم تحترمه حقاً إلا اليوتوبيات، وهي أوهام تند عن كل تطبيق، أو تأبى أن تتحول إلى وقائع تجريبية أو عينية. ولهذا، فإنها لا

طائل تحتها ولا خير فيها لولا أنها تؤشر إلى المعضلة، وكذلك إلى تلهّف الروح على حلها والتخلص من أزمتها الخانقة.

لقد بحثت عن شيء يستحق أن أعيش من أجله، وواظبت طويلاً على التنقيب عن شيء دائم يستتب راسخاً وسط الزائلات والمتغيرات. رحت أبحث وأفحص وأمحّص، ولكنني عبثاً فعلت، فما من شيء قط إلا ويحول ثم يزول. حقاً، لم أجد من بعدك، أيتها الثابتة في منتصف البال، أيما كائن أملك أن أعوّل عليه أو أتخذه قيمة مركزية تنبثق منها جميع القيم الأخرى. وحتى أنت لا تصلحين لمثل هذه المهمة، وذلك بسبب غيابك الدائم، وكل الذي تصلحين له هو أن تحرضيني على أن أكون.

فيا عزيزتي السمراء الأكثر بياضاً من ثلج على حرمون، هذا هو حال البشر وقدرهم الحرون: أن يتخذ الأقوياء من الضعفاء وسائل إلى غاياتهم السخيفة أحياناً، والدنيئة أحياناً أخرى. وأما ما يلوّع الإنسان الحساس أنه ما من عزاء دائم أو عابر، سيان. ومما قد يكون في صلب الحق أن كل ضعف يستتلي عدواناً تشنه إحدى الإرادات العاتية، حتى لكأن الضعف يناديه أو يدعوه أو يشجعه ويحثه على الهجوم والاقتحام دون وجل أو تهيب، بل بغير تلكؤ أو إبطاء. ويحتشد الأنذال في عصائب، بل في عصابات قذرة، وينقضون على الفريسة بعدما صاروا قوة تعربد دون أن يتمكن أحد من أن يشكمها حتى ولو عنت الجميع.

بيد أن أسوأ أصناف العدوان هو ذاك الذي يشنه الثعلبيون على أصحاب الضعف الذين يفتقرون إلى حصانة الذات أو إلى صلادتها وقدرتها على الدفاع. وكثيراً ما يتمتع الأوباش المراوغون بمهارة تمكنهم من ممارسة الدهاء المخاتل وطرائقه التضليلية الملساء والكفيلة بتزوير الحقائق وتصويرها على النقيض مما هي عليه بالفعل. ولهذا، فإن قدر الأرنبيين الواقعي أن يفترسهم أولئك الثعلبيون الأنذال. يقيناً، إن بعض المدلّسين المخاتلين هم المسؤولون عن هذا الفصال المنداح بيني وبينك منذ زمن طويل غمر الشطر الأكبر من سنوات العمر.

وفي تخميني أن المرض الذي ألمّ بي في السنة الأخيرة من القرن العشرين هو رئيس الأسباب التي أدت إلى هذا التشاؤم المتطرف، ولكنني لا أراه السبب الوحيد، كما أنه، جزماً، ليس أقدم الأسباب، وذلك لأن أقدمها هو الفاجع الذي كرث بلادنا في عام النكبة. ولا أظنك قد نسيت أنني اعتدت على أن أنمّ عن شيء من التشاؤم منذ تلك الأيام التي التهمها الزمن، وإن كان تشاؤماً معتدلاً وليس بالمفرط. ولكن تشاؤمي قد ازداد كثيراً بعد أن غادرتني، فصار العيش استنقاعاً في وحول السخف والتفاهة.

ذات يوم قبيل بلوغ الأربعين أو زهاء ذلك، فحصني أحد الأطباء وأخبرني بأن القلب ينبض ببطءٍ. ثم أضاف بأن من كان قلبه من هذا الفصيل فإنه يعيش طويلاً. وربما ظن المسكين أنه يزف إلي بشرى سوف تسرني بسبب ذلك التوقع الذي ثبتت

صحته، للأسف الشديد. ولكن ردّ فعلي الحقيقي هو الامتعاض الصامت، وذلك نتيجة للكره الذي أكنّه لهذه الحياة المفعمة بالشرور والآلام في آن معاً، أو بالأنذال والأشرار، ولا سيما أولئك الذين طردونا من ديارنا بقوة السلاح والمجزرة. يقيناً، إن أولئك الأوغاد إذا جرحتهم فلن تسيل من شرايينهم أية دماء قط، بل لن تسيل منها إلا القيوح.

فها قد عشت طويلاً بالفعل، ولكن طول العيش يضر بالإنسان. وكل من يحيا في هذه الأيام العصيبة، أو الشديدة التوتر، لا يقل عن كونه شاهداً على الجرائم والفظائع الشنيعة التي ترتكب يومياً بحق البشرية في الكثير من بلدان الأرض. فهل هذه حياة تستحق أن تعاش، يا من هداك الله؟

أفما تذكرين معلقة عبيد بن الأبرص المنسوجة من اللون الأسود الداكن، أو المكتظة بالكثير من التشاؤم، والتي قرأناها معاً أكثر من مرة ذات يوم شتائي؟ أليست متشائمة جداً أو مكرّسة لشرح هزيمة الإنسان أمام قوى الشر الصانعة للشقاء والألم، والتي لا قبل له بها حتى وإن أجهد نفسه، أو بذل أقصى ما لديه من طاقات. وهي، بوضوح تام تعبر عن هشاشة الشرط البشري، وكذلك عن انكسار الإنسان ودحره أمام تلك القوى، ولا سيما حين يقول: «والمرء ما عاش في تكذيب». ولعلك تذكرين قوله عن الإنسان: «طول الحياة له تعذيب». ثم إنك تعرفين هذا الشطر: «وكل ذي أمل مكذوب». ولا أحسبك قد نسيت مدى

إعجابي بهذه القصيدة العظيمة في تلك الأيام، أقصد أيام النعناع، حين لم أكن مصاباً بأي داء بتاتاً. فمما هو ناصع تمام النصوع أن ذلك الشاعر الجاهلي قد استطاع أن يكتشف العراء، وبنهج تلقائي أو فوري، وأن يشخص، كالطبيب الماهر، سقام الحياة المزمن، أو داءها الذي لا برء لها منه إلى الأبد، وذلك منذ خمسة عشر قرناً تماماً. ولهذا، فإنني لا أسمع بين الأرض والشمس أيما صوت سوى ضوضاء الخواء وضجيج الشقاء والبؤس البشري.

أما أنت، فمثل جميع الأنقياء من الصوفيين، لا يعكر صفوك شيء قدر ما يعكره غياب الحق عن أبصار المؤمنين. ولست تحنّين بصدق وحرارة إلى أي كائن باستثناء الله الذي لا تستطيعين أن تمارسي العيش، بل التنفس، دون الاتصال به على نحو وثيق. فلا أراني إلا صادقاً إذا ما زعمت بأنك لا تقلين صفاء عن أي قديس من أكابر القديسين المشاهير. وإني لأذهب هذا المذهب انطلاقاً من درايتي بطبعك النبيل، فضلاً عن أنني اعتدت على أن أتسقط أخبارك بين الفينة والأخرى، وأسأل عنك بعضاً ممن شاهدوك في بلاد الغربة والاغتراب.

فأنت لا يتيسر لك أن تعيشي إلا إذا تبنّيت قيمة تكفي لتملأ هذا الكون من الأوج إلى القرارة السفلى الرابضة تحت جذور الأشياء. ويلوح لي أن هذه القيمة الكلية الجلى هي الغبطة الكبرى التي لا تملك روحك أن تغتبط بأي شيء مثلما تغتبط

بها، وفضلاً عن ذلك، فإنها الحيوية التي تحرك الدم في شرايين بدنك النابض على الدوام بدم أحمر قان، والتي تمنحك تلك النشوة التي لا ينالها إلا أمثالك من الأبرار والأطهار. وفي ميسوري أن أتخيلك وأنت تعتقدين بأن هذه النشوة الصوفية المنتجة للسرور لا تقل عن كونها وقوداً يزوّد روحك بالطاقة الذاتية اللازمة للاستمرار في الحياة. ولسوف أظل قانعاً بأن ذهنك اللقِف الحسّاس قد اعتاد، منذ ميعة الصبا، على أن يستجيب للَفحوى بسرعة، أو أقله بغير ريث بليد.

ومع أن نشوتي جمالية أو فنيّة، وليس في مقدور أحد أن يردّها إلى المرض الذي أراه أسوأ مجلى بين مجالي الشر كافّة، فلا تبذه الإمبريالية ولا الصهيونية، ومع أنها مباينة لنشوتك الصوفية أو الروحية، فإن في نيّتي أن أزفّ لك التجلة والتبجيل، وأن أؤكد لنفسي أن تصوفك هذا ليس نتاجاً لأي مرض، بل هو إفراز تفرزه صحة تؤسسها حيوية روحية عارمة وسوية تماماً. فما أنتج هذا التصوف سوى حنينك الحميم إلى مثال جدير بأن تلتزمي به وتقدِّمي له أسمى آيات الاحترام.

وعلى أية حال، فإن الجمال الذي أهواه ليس سوى الاسم الآخر للحب، والحب مركز الحياة الدنيا كلها، كما أنه العلامة الأولى للحيوية والصحة النشوى. ولعله أن يكون برهاناً على أن الحياة ظافرة أو معافاة، فضلاً عن أنه قد يعدّ إشارة إلى الحرية التي هي السمة الأولى للعيش الأصيل. ولا ريب في أن التصوف

لا يقل أهمية عن الحب في ترسيخ أركان العيش. فلئن كان مبدأ الحب هو الارتباط بالواقع ارتباطاً حافلاً بالدفء والحماسة أو بجيشان الصحة وفورة العافية، فإن مبدأ التصوف، كما أرى، هو الارتباط الوثيق بالمثال ونظافة الوجدان، أو لعله أن يكون استطالة تمتد بالروح إلى ما وراء التجربة والمادة، أو إلى ما وراء المباشر والمحسوس. وفضلاً عن ذلك، فإن التصوف من شأنه أن يكافح كل عطالة قد تصيب الباطن أو الداخل. ومما هو بديهي أن الواقع والمثال صفحتان لورقة واحدة وعلاقتهما الضرورية أو الحتمية تندّ عن كل انحلال أو انفكاك. وربما كان الشيئان كلاهما، أعني الحب والتصوف، أكثر الممارسات قدرة على إخراج الإنسان من حبس المياومة والابتذال. وفي الحق أن الصوفية والحب والحرية هي ثلاثة أقانيم لهوية واحدة، وما تلك الهوية إلا الحياة نفسها، وكما تعاش بالفعل.

والآن، أودُّ أن أصرّح جهراً بأنني ثمل بك وبكل ما يخصك، مهما يك نوعه. فأنت الروح، ولا شيء سوى الروح، بل لا يسع المادة إلا أن تكون وخماً موبوءاً وحسب. نعم، إنك روح رهيف شفاف وحسّاس، ولست جسداً ماثلاً للعيان وكفى. كما أنك مستيقظة حتى آخر حدود الاستيقاظ، وفي وسعك أن تشاهدي الحقائق اللامرئية، ولكن ببصيرة حدسية ثاقبة، بينما يكتظ العالم بالغفاة، أو بالغافلين عما يجري حولهم في هذه الدنيا الدنية. فما أحببتك هذا الحب الجارف بالصدفة، بل لمزايا وسمات تؤلف

المحتوى الصميمي لشخصيتك النادرة. صدقيني إذا ما ادعيت بأنني كثيراً ما أتخيلك وأنت تمدّين يدك الطاهرة لتميطي الحجاب الحاجز بين الحقيقة وبين عقل الإنسان. صدقيني أنني لم أصادف امرأة مثلك في هذا العالم الفقير.

ولعل في ميسوري أن أدرك بالزكانة ما فحواه أن الذي تفعلين الآن هو جهد يهدف إلى تحريرك أو إلى خلاصك، من سطوة الابتذال ورق التفاهة بالدرجة الأولى، أو من خواء المياومة الخالية من كل ما هو ذو بال، والتي تجرد المرء من هويته الإنسانية وتحوّله إلى هيكل عظمي بالمعنى الرمزي للكلمة. فماذا يتبقى للإنسان إذا أدار ظهره للفن والصوفية معاً؟ بداهة لن يتبقى سوى المعلف واللهاث وراء المال، أو في سبيل حطام هذه الدنيا الشاغرة من كل فحوى، والتي لا يتشبث بها الناس، على ما أرجح، إلا لأن بديلها الوحيد هو العدم المقيت، وهو ما يتضمن استحالة الشعور إلى لا شيء، أو قل إنه يعني انطفاء شعور الإنسان. ولعل من شأن ذكر العدم أن يجعل النفس تغثى أو تتقزز. ولا مراء في أن الاستنكاف عن مشايعة الرتوب اليومي ابتغاء الانهماك في تجربة أصلية يتفرغ لها المرء هو فعل من أفعال السمو النبيل.

وفي مذهبي أنه ما من شيء يملك أن يذبل الحياة العامة سوى الجشع والمال الذي من طبعه أن يشطر الناس إلى شطرين، أهل الضوَر وأهل التخمة. ولحسن الحظ أن اللذة من

نصيب الفصيلة الأولى، أما المتخمون فليس لهم إلا التذمر والتأفف والجنوح إلى الخمود. فمما قد لا يخفى على الألباء أن الفقر أرأف بالناس من الغنى ومما يجيء به من توترات ومتاعب جمّة. وقد لا يخفى على أحد أن هذا الطور التاريخي هو طور المال بامتياز، وذلك لأنه طور الصناعة التي من شأنها أن تنتج من البضائع ما لا يحصى ولا يعد. وهذا يعني أن ليس للبشر أملٌ كبير في النجاة من براثن الشرور، ما لم تجفّ ينابيع الطاقة الغزيرة. إنها الصناعة التي جعلتنا لاجئين وجعلت العرب فريسة لمن افترس.

- ٨ -

ولقد اعتدت طوال السنوات العشرين التي تلت رحيلك على نحو مباشر أن اذهب إلى الغوطة في معظم أيام السنة، ولا سيما حين لا يكون الجو بارداً أو ماطراً، أو حين يكون بغير رياح عاتية ولا عواصف رعناء، فأهيم على وجهي وأمشي وأمشي، ولا أرافق سوى نفسي، كما أنني لا أفعل شيئاً إلا أن أهجس بك على الدوام. وعندي أنَّ من لا يستطيع أن يصادق نفسه لا يستطيع أن يصادق الناس. وإثر الغروب أتأمل الشفق وأعيش حزناً لطيفاً شفافاً لا يهبه لي أي وقت غير المساء، ولا سيما حين تبدأ بهرة النجوم بالتلألؤ والخفقان. فليت في ميسوري أن أقنعك بأن الحزن بعدك قد صار لذة من اللذائذ الكبرى التي تؤلف بنيتي الثابتة، وتزودني بلقيمة من الغذاء لروحي الملهوف. و كان قرب البيت من الغوطة يشجعني على الذهاب إليها بكثرة. فالغوطة، كما تعلمين، لم تكن تبعد عن منزلنا أكثر من مرمى حجر. وكانت كل نبتة أشاهدها هناك تقدم لي تحية منك، أو تحييني بالنيابة عن شخصك الكريم. وحين أشم زهرة من أزهارها الفوّاحة، فإنني لا أشم غير رائحتك أو أريجك، وليس أريج الزهور المنتشر من حولي في كل مكان. وفي الحق أن

كل حياة، بل جميع أنماط الجمال ، كانت وما زالت تذكرني بك، أيتها المرأة التي اجتذبتني واستولت عليّ طوال عمر بكامله. وما من شيء يملك أن يجتذب أحداً خلال عمر طويل إلا إذا كان نفيساً أو مزوّداً ببعض الطاقات السرية التي يعسر استيعاؤها أو تأويلها على أي تذهن أو تأمل.

وبينما أتجوّل هائماً في تلك الربوع الغنّاء، حتى إبان الربيع، وبعد أن يكون الزرع قد شطأ، وفي أفياء قزعات من الغيم تمخر الفضاء، كنت أشعر بأن الغوطة، بل دنياي بأسرها، تفتقر إلى معناك، أو إلى حضرتك المبهاج، أيتها المرأة المخلوقة من هناء وسعادة وهدأة بال. فماذا عساه أن يكون لون هذا العالم من دونك، يا من تشربين من رحيق الكوثر؟ وأي حياة هي هذه التي أحياها بعيداً عنك أو عن حضورك المريح؟ فلو لمستني يدك الرؤوم، وكنت مريضاً، لشفيت من جميع أسقامي فوراً. فيا له من تخلع هذا الذي أقاسيه بسبب غيابك المرير. وإنها لوعة أو حرقة تعتلج في الصدر وتكاد أن تطحن عظامي كما يُطحن القمح. وتكمن المعضلة في انعدام المخرج، أو في أنَّ اللعنة لا إجازة منها بتاتاً. لقد اصطادني فخك أو فخّ غيابك الذي لا خلاص منه يلوح في الأفق المنظور.

ويا طالما تمنيت لو أن الطيور تحمل رسائلي إليك وتبلغك ما أريد بسرعة قصوى. بل كثيراً ما تمنيت أن أستوعب أصوات الطيور التي أعتقد بأنها لغة خاصة للتفاهم بينها. ولكن الطيور،

أو رموز الحرية التي تخلب اللب، ولا سيما السمانى والقبّرات، وهي الكثيرة في الغوطة يومئذ، لم تكن سوى كائنات بغير وعي، ولا يرجى منها أي فعل إجرائي مفيد، اللهم إلا أن تكون مصدر بهجة للمتوسمين. وفي الحق أنَّ جل أشياء هذه الدنيا لا تفيد ولا تجدي أيما نفع تنفيذي. تخيلي أنه ما من كائن يملك أن يؤدي خدمة كبيرة كهذه الخدمة، وأن جميع الموجودات تخذلني وتتخلى عني تماماً عند شدة الحاجة إلى أيّ كائن يستطيع أن يسعفني أو أن يساعدني. حتى عقلي يخذلني ويتخلى عني في اللحظة الحرجة، أو عندما أحتاج إليه على نحو ملح.

حقاً، إن الأشياء تهجرني وتتركني أعاني الظمأ الروحي المرير، وهو الذي لا ارتواء له بتاتاً. فأشعر حينئذ كأن قوة هائلة أسرتني أو اعتقلتني وزجّت بي في سجن لا مخرج لي منه حتى ولو عنتّ. وفي لحظة كهذه اللحظة أصير مشلول الإرادة وعاجزاً عن أي فعل يمكن له أن يفك أسري، أو أن يكسر القيود التي تكبلني وتمنعني من الحركة. ولكن تحكم الوضيع بمصير الرفيع يذهلني ويستفز استهجاني أكثر مما يذهلني الخذلان الذي تبديه الأشياء عند شدة حاجتي إليها. فكثيراً ما تتمكن حفنة من الأغبياء أن توجه بعض الأذكياء بدلاً من أن يحدث العكس. إنه الخبث الماكر والقدرة على المخادعة وكتمان الغرض وحجبه عن الأنظار. وهذا يعني أن الطاقة اللاأخلاقية تأتي بديلاً عن طاقة الذكاء أو تعويضاً عن حدة الذهن التي قد لا تصلح كثيراً

للشؤون العملية. وربما صحّ الزعم بأن الدهاء هو أسوأ أصناف اللؤم. وبهذه الطرق الملتوية قد يتمكن السنوريون الخبثاء من أن يدحروا الطيبين والإنسانيين وينتزعوا منهم كل شيء عدا الكفاف تقريباً، ولا سيما حين يتعصبون داخل عصابات منظمة هدفها الهيمنة. وهذا هو الانحطاط بالضبط.

بيد أنني لا أعرف سراً أشد وطأة على نفسي الموهونة من مزاياك الروحية العالية، وخاصة البراءة والعذوبة ورقي الوجدان، وما إلى ذلك من سمات رفيعة ونادرة في هذا الزمن الماحل. ولقد وهبتني الكثير من الهبات النفسية الطيبة، كالألم الذي كان على الدوام محركاً لروحي يدفعها صوب الفعل والإنتاج، ولكنه في الوقت نفسه قد جعلني غريباً عن نفسي، أو شرخني إلى اثنين متضادين، واحد يتألم وآخر يبذل قصارى جهده كي تخلص روحه من كل سلب، حتى كأنني صرت مدمن صراع داخلي أو انشطار، بل حتى كأن روحي تكابد مكابدة الشهداء. حقاً، إنني شهيد، أو هكذا أشعر على الأقل. فكثيراً ما أرى نفسي وأنا أواقع الجحيم، أو أقارف الموت. ومما زاد الطين بلة أن الأمراض قد راحت تتعاورني الواحد إثر الآخر طوال الأعوام الخمسة عشر الأخيرة.

ولكن هذا الانشطار هو الذي يحركني على الدوام. ولهذا، فإنني كثيراً ما زعمت لنفسي بأنيّ محظوظ جداً لأنَّ سياق الأحداث قد أرسلك إليّ، مع أن هذه التجربة طافحة بالألم. بل

كثيراً ما حسبت أنك هدية أهديت إليّ من السماء. وإنّه لإلهام سري أو من المستورات ذاك الذي دفعني نحوك أو شدّني برباط العشق إلى شخصك الكريم. يقيناً، إن من وهب الألم الروحي الأصيل هو كمن وهب كنزاً نفيساً، سواء بسواء. ولهذا فإنني لا أراك إلا بوصفك واحدة من تلك القامات الشاهقة، أو من تلك النسوة الباهرات اللائي نلتقيهن أحياناً، بل على ندرة شديدة جداً، عند ينابيع الأشياء، واللائي يملكن القدرة الكافية على تسويغ الحياة، حتى وإن كانت زاخرة بالمنغصات. أما الدليل على صحة هذا الإدعاء فهو أنني أتذكرك كلما شاهدت اللطف مجسداً في أي شيء من الأشياء، ولا سيما في الزهور والغزلان وبعض الطيور الجميلة.

ولكن كيف يمكن للحب أن يصان وهجه أو ألقه في عالم البؤس والتفاهة والبغضاء هذا؟ أليس ذلك شأناً عسيراً، بل جد عسير؟ كيف يسعنا أن نحافظ على حرارة الغرام وحيويته في سواء هذه الصفرة الفاقعة التي تشوّه وجه الحياة الحديثة وتجعل الحب الروحي شيئاً متعذراً تقريباً؟ وكيف يتمكن الجسد، وهو الأداة الناهضة بأعباء الروح، أن يُستبقى سليماً في عالم سقيم تلتهمه الأمراض أو تغلغل في جميع تفاصيله على وجه التقريب؟ وهل في ميسور الفرد الفريد، وهو من تمثلينه أحسن تمثيل، أن يصون تفرده وعلوه في بيئة لا تعبأ بشيء غير المال؟ أليس حتماً على كل متميز في هذه الأيام أن يختزل حتى يصير أصغر من حبة السمسم؟

إنه عصر يكره العمالقة والأجواد والشعراء وجميع أرباب التفوّق والتميّز. فلقد حل الفعل الجسدي الآني، أو السريع الزوال، محل الغرام الأصلي وانتهي الأمر. كما أن الحب قد صار بمثابة ذكرى من الماضي الغابر نسيها معظم البشر، بل جلهم. وحين يتذكرها المرء فإنه لا يفعل ذلك إلا من أجل استعادة الدهشة التي ما عاد لها وجود منذ مدة طويلة، وإلا ابتغاء إسباغ النكهة على الحاضر الذي لا نكهة له عدا نكهة الرماد.

تُرى، ماذا يحدث حين يقع المرء في الحب الأصلي الناجي من الاشتهاء الجسدي؟ إن عصا سحرية تكون قد مسته سلفاً، فحوّلته إلى كائن آخر شديد الاختلاف عما كان عليه من قبل. ولعلها أن تكون عصا أرميدا القادرة على أن تحيل القفر إلى روض شاسع منداح ومكتظ بشتى أصناف الزهور. وعندئذ يتحول المرء إلى عاشق، أو إلى فرد فريد. إنه حامل الهوى الملتاح والملتاع في آن واحد. وههنا يتبدّى الفرد كائناً يقاسي الحاجة إلى الالتزام أو إلى الإخلاص. ولكنه يتحرك في عالم شرس ينتهك جميع القيم يومياً، ولا يعبأ بأي شيء مهما يك سامياً وأصيلاً. وههنا يتجلى الوجه الاستشهادي للحب في هذا الزمن الفقير. وعبثاً يحاول أي امرئ أن يعيد الأمور إلى سالف عهدها، فالحياة العامة، كالحياة الخاصة سواء بسواء، إذا شاخت فإن شيخوختها حكم مبرم لا رجعة عنه بتاتاً.

وبينما تضج شرايين العاشق بالدم الأحمر القاني، فإنه قلما ينال ممن حوله شيئاً سوى عدم الاكتراث أو اللامبالاة، ولكنه ينتشي بشعاع من جمال غير مادي ولا دنيوي. ولولا تلك النشوة الفردوسية لما عشق. وفضلاً عن هذا، فإنه يلامس الأشياء برفق وحنان دافئين، وهذه متعة أخرى، دون ريب. ولهذا، فإنه يعيش في مثنوية تخصه وحده. إنها مثنوية الازهرار والذبول. ولكن أهم ما في الأمر أن العاشق مشحون بغريزة خلاصتها الرغبة الجامحة في الالتزام بالأمانة التي رفضت الجبال أن تحملها، بل خافت من هول تبعاتها الجسام. وإذا التزم المرء بالأمانة، وعامل الأشياء برفق وإيناس، وسقاها ماء العطف الأمومي الصادق، فإن الكائنات سوف تزهر بين يديه، كما أن جمالها سوف يتجلى أمام بصره وبصيرته معاً، وسوف يتألق باهراً بنصوع تام، وذلك لأن من فعل هذا الفعل الأصيل هو عاشق بالضرورة، ولو لم يكن عاشقاً لنبذته الأشياء من تلقاء ذاتها، ودون أي تساهل. فإما أن تصب حنانك على الكائنات وإما أن تواجه القبح في هذا العالم المسكين. ولكنني أعترف سراً وجهراً بأن هذه الأفكار كافة هي بعض من تعاليمك النفيسة، أيتها المرأة التي ما ولدت إلا لتشغفني حباً وتجعلني عضواً في فصيلة الشهداء الأحياء.

ومما يزعجني كثيراً أنني بعدك قد حصلت على الكثير مما ينتسب إلى شعبة اللوازم، وكذلك إلى شعبة الترف، ولكنني في

الحق ما حصلت إلا على السراب، أو على ما هو خلب وبغير قيمة. فما من شيء يسعني أن أقارنه بك، مع أنني أرتاب بوجودك كله في بعض الأحيان، بل كثيراً ما أتخيل أنك لست سوى وهم من أوهامي اخترعته لغاية في نفسي قد لا أستطيع أن أتبينها بوضوح، ولكنني لا أستطيع أن أتنصل منها في الوقت نفسه.

ألا يجوز النظر إلى الأوهام بوصفها شيئاً لذيذاً فاتناً، أو مسلياً على الأقل. فما من شيء، وإن يك كنزاً من كنوز الأرض النفيسة، يسعه أن يكافئ حضورك، حتى ولو كنت وهماً من الأوهام. فأنت اللطافة التي تجهل كل جلافة، أما أنا فمثنوي تماماً، لأنني موزع حقاً على هذين العنصرين بالتساوي. وهذا يعني أنك الجوهر المحض النقي الذي لا تشوبه أية شائبة. وفي مخيلتي أن لك القدرة الكافية على تطبيع المحال أو على ترويضه وتيسيره للناس أو جعله تجربة تعاش في الحياة اليومية بالفعل. أما غيابك الذي يعني العذاب المحتوم قبل كل شيء فإنه رمز لغياب الحب والجمال عن عالم تهيمن عليه الشرور، ولا سيما تحالف المال والسلاح والقسوة والبغضاء وكل ما يفضي إلى العقم والسقم والخراب.

ولئن لم تكوني غير أخيولة من بنات خيالي، فلماذا أتجشم عناء كتابة هذه الصفحات التي لا تريد أن تنتهي قط؟ فلا بد من أنك تعنين لي الكثير، ولولا ذلك لما التزمت بهذه الرسالة التي أريد لها أن تتحول إلى وديعة أودعها في خزانة الزمان لتكون

بمثابة شاهد مادي على أن غريزة الإخلاص تفعل فعلها في سريرتي بقوة وشدة، مع أنك لا تستطيعين أن تكوني نعمة دون أن تكوني نقمة في الحين نفسه. فمما هو معلوم أن النقيضين ملتحمان دوماً داخل بنية واحدة. فما يضر ينفع وما ينفع يضر. وما دمت نعمة ونقمة في آن واحد، فلماذا أحمّل نفسي هذا العبء المضني، أقصد عبء الكتابة، وأنا أعاني من سطوة المرض وفتكه بجسدي، ولا سيما بأعصابي المرهقة المتوترة؟

بيد أنني أتحمّل هذا العبء المنهك لأن البحث عنك هو البحث عن الحقيقة بالضبط، وذلك لأنك أنت الحقيقة عينها. والمؤسف حقاً أنني لا أملك أن ألقاك في أي مكان ما دمت تسكنين في الغياب الراسخ المستتب. وأنى لرجل مستأصل مثلي أن يعبّر عن فحواك، إذا ما وجدك، أيتها المرأة التي أراها تجسيداً لتوتر المسافة الفاصلة بين الحضور والغياب؟ فلئن قرر الروح أن يشرح ما تنطوي عليه سريرتك من معنى، فإنه سوف يحتاج إلى ينبوع ثر من اللغة الغنائية الموسومة بميسم التفاؤل والفرح، وذلك لأن هذه اللغة هي وحدها القادرة على إنتاج صفاء التعبير اللطيف الذي يملك أن يرسم الباطن ويقدمه للناس. وهذا يعني وحدة التنوير والتعبير قبل كل شيء.

وها أنا ذا أعترف جهراً بأنني لا أحوز مثل هذا الينبوع النفيس، وذلك لأنني لست متفائلاً ولا فرحاً بأي شكل من الأشكال. ثم إنني أشعر بميل داخلي نحو رفض هذا العالم الذي رفضه البوذا دون هوادة ولا مساومة، وذلك لأنه يسومني خسفاً

كل يوم. ولهذا، فإنني لا أراه إلا بوصفه جحيماً جاحماً قلما ينجو من شروره أحد غير بليد. ففي الحق أن الناس الآن في جهنم، ولكن معظمهم لا يشعرون.

ومن المفارقات التي لا أعرف لها تفسيراً أو رفعاً أن من يبحث عنك وينقب في دياجير الماضي ومتاهاته هو رجل لا يستطيع تفاؤله أن يتعادل مع تشاؤمه أو يتكافأ. ومع ذلك، فإن في ميسوري أن أقدّم مسوّغاً لهذا البحث الدؤوب الذي تحركه سورة عارمة أو حميّا شديدة الاندلاع. ففي ظني أن كل ما ينقصني من سمات شخصية موجود لديك بكامل ثرائه ووفرة حضوره. وهذا يعني أنني حين أحاول أن أبحث عنك فإنما أحاول أن أحصل على لوازمي، أو أن أغطي نقصي الذي لا أملك أن أتجاوزه بتاتاً دون عون من الآخرين. والأهم من ذلك كله أنني حين أبحث عنك فإنني أبحث عن مثلي الأعلى، أو عن كل ما يتجاوز أو يتخطى هذا الابتذال السقيم. ولهذا بالضبط، أعتقد بأن التفتيش عنك ينطوي على تنمية للذوق، وذلك لأن الأذواق نتاج للأشواق، أو هذا هو مذهبي الذي اعتنقه وأخلص له تمام الإخلاص.

ومهما يكن الأمر، أريدك أن تثقي بأنني لو عرفت أسرارك الجذرية، أو أياً منها، فلن أذيع شيئاً مما ينتسب إلى اللباب أو إلى الصميم، حتى ولو كان بحجم قلامة ظفر، ولكنني قد أنشر نتفة من الحواشي التي لا ضرر من بثها في الناس. ولا يردعني شيء عن هذا البث بقدر ما يردعني ذلك التعذيب الإبليسي الذي يمارسه عليّ ضميري حين أرتكب أيما خطأ. ولا أحسبك

تجهلين ما فحواه أن من عادته أن يسوطني دون رحمة في كثير من الأحيان. ولا أدري من ذا الذي غرس هذا الجحيم في بؤرة باطني، أو في نقطة ازدلاف ذلك العالم الداخلي الذي أتألف منه. كما لا أدري من ذا الذي جعله ينشط أو يعمل بقوة، أو بشدة رادعة أو شاكمة، بينما تعمل ضمائر الكثيرين بصفاقة ملحوظة. وإني لأستهجن أيما استهجان أن يكون هنالك من يرتكب أفظع الفظائع (كأنْ يضرب هرشيما بقنبلة نووية) دون أن يحاسبه ضميره. ولا غلوّ إذا ما صرّحت بأن هذا المجرم العاتي هو كائن بقري بغير ضمير. ولكن، أن يكون هنالك إنسان من هذا القبيل هو أمر مثير للاستهجان، كما لو أن في الميسور أن يكون هنالك إنسان بغير رأس. فما هذا السر الذي يسمى الضمير، أيتها المرأة التي لا أعرف أحداً أكثر منها نقاءً وصفاء سريرة.

وبودي أن أؤكد لك، بل لعلك لا تجهلين، أنني ليس لديّ من المال إلا ما يسدّ الرمق، ولا أحوز من لوازم الحياة الحديثة إلا النزر اليسير، ولكنني مأهول بضمير يجلدني حتى العياء. فهو يملأ صدري، وأسمعه ينبض في كل خلية من خلايا بدني الهزيل. وأنا على يقين من أنني سوف لن أخسره في أي يوم من الأيام. حقاً، خسرتك أنت، مع أنك أنفس النفائس، وبهذا الخسران ولج الألم أو الشقاء إلى بؤرة روحي، أو إلى النقطة التي تتلاقى عندها جميع أجزاء عالمي الباطني. ولكنني إذا ما خسرت ضميري فقدت ماهيتي الإنسانية، أعني مروءتي، ونكصت متقهقراً صوب الحيوانية التي تفصلنا عنها مسافة فلكية. وهذا

يعني أن ترمد الضمير هو أكبر كارثة بين جميع الكوارث التي تصيب الناس، وذلك لأن المرء يصير إنساناً بالضمير وليس بالعقل، أو بأية قوة باطنية أخرى. وما أقصده هو الإنسان على الحقيقة أو على الأصالة. فهل يصح أن يكونوا أناساً أولئك الذين شرّدونا من ديارنا؟

ومع أنني لا أستطيع أن أتخلى عن ضميري حتى لو حاولت أن أفعل ذلك وبذلت قصارى جهدي، مع هذا فلا تستهجني إذا ما صرّحت لك بأنني أستجمّ بشيء من الباطل بين الفينة والأخرى، وذلك خوفاً عل النفس من التصدؤ في الركود، أو من التلف والتعفن في الاستقرار والثواء المريح داخل المستتبات. ولكنني لا أمنحها إجازة مطلقة، حتى ولا إجازة كبيرة، أو ناجية من الرقابة، وذلك لأن الضمير، أو سادن النزاهة والبراءة والعفاف، ينتصب كالسور المنيع في وجه كل تطرف شائن، وإن تكن للرغبة فيه سورة عارمة لا تشكم إلا بصعوبة. وأحسبك تعرفينني تمام المعرفة، وتوافقينني على هذا الزعم دون تحفظ.

ولكنني أعوّل كثيراً على الحلم، وهو صنف من أصناف الخيال. إنه وحده الذي يحلني من كل التزام أو ارتباط. ولكن هذا الانفكاك ليس شائناً، وذلك لأنه لا يحدث بالفعل، بل في الوهم وحده. ولهذا السبب، لا أجد حرجاً إذا ما أعلنت بأن بعض الفاتنات اليانعات كنّ، حتى عهد قريب، يشغفن فؤادي ويثرن في البال تهويمات وردية اللون. وفي الحق أن ذلك الشغف الذي تخلقه بعض الحسناوات في النفوس المرهفة هو شيء يشبه

السرّ، ولا يتيسّر للذهن استيعاؤه بسهولة أو بمشقة، بل إن علاقة النفس بالجمال هي مستور من المستورات التي لا تفسير لها بتاتاً، حتى ولو عنت الذهن وبذل قصارى جهده.

ولا غضاضة إذا ما صرّحت بأن أولئك النسوة ذوات الوجوه الخلابة التي توحي بفحوى سري وتشعّ الكثير من المعاني الغامضة، واللائي ينتجن الأحلام والرغبة في العيش والحب الجارف، ويخطفن الروح ويأخذنها إلى الأعالي والذرى السامية، لا يثرن في نفسي أيما نزوع نحو الشبق بتاتاً، بل أكاد أن أعتقد جازماً، أو على نحو يقيني، بأن أي فعل جنسي سوف يدّنسهن ويشوّه أرواحهن ويخفّض مستواهن الرفيع إلى مستوى الحطة والابتذال البهيمي. فهنّ عندي برسم البصر وحده، تماماً كاللوحات والتماثيل وزرقة البحار واخضرار الغابات. إنهن يجسدن الجمال الساجي الذي تغدو الحياة من دونه اعتلافاً بالرماد، أو بما تأكله الحيوانات. ولست أراهنّ إلا مُثلاً لا تصلح للتجربة. فالمثال في نظري ضابط التجربة، ولكنه لا يخالطها تمام المخالطة، اللهم إلا أن يكون ذلك على ندرة وحسب. وفي الحق أنني ما شاهدت امرأة من هذه الفصيلة إلا فكرت بالإله وبوجوده الحي. فلئن كان هنالك شيء من أشياء هذه الدنيا يستطيع أن يؤشر إلى الله ويوحي بوجوده فإنه الجمال الساجي الذي يلهم الروح ويحثها على التفكير بما وراء المادة، أو بما يتجاوزها ويعلو فوقها. ولا يخطر الله في بالي بعمق شديد إلا حينما أعاين الجمال الخلاب، سواء في الطبيعة أو في النساء.

وعندي أن من أحب الطبيعة والمرأة بعمق وصدق لا يستطيع إلا أن يعيش مخلصاً للمثال، وإلا أن يفكر بالإله، إن لم يؤمن به. ثم إن صلة النفس بالجمال، وهو ما لا يأتينا بأي نفع مادي، هي أمر من شأنه أن يثير دهشتي إلى حد الاستهجان. وإذا ما تأمل المرء هذه الصلة الوثيقة تأملاً جيداً أو عميقاً وجدها شيئاً يشبه أعجوبة من عجائب هذه الدنيا المأهولة بقبح حجمه أكبر من حجم جمالها بكثير.

ومما هو صادق في ذهني أنك أنت سيدة النزاهة والبراءة، بل سيدة لكل علو مهما يك نوعه، وذلك بفضل ضميرك النابض الحي، وكذلك بسبب لطفك المتحدر من الأعالي السرية. فلئن كان شكسبير سيد اللغة، وروبنز سيد الألوان، فإنك أنت سيدة المثل والقيم والأخلاق الرفيعة الحميدة التي ناضلت البشرية طوال آلاف السنين ابتغاء ترسيخها في الفرد وفي الحياة العامة على السواء. ففي الصلب من عقيدتك الإنسانية يرخم مبدأ فحواه أن لا موت إلا موت الضمير. ولهذا، لا أراك إلا حمامة وديعة بيضاء، ولكنها مزوّدة بغريزة سرّية لها القدرة على تخليصك من جميع محاولات الإفتراس والسطو والامتهان. ولا أبالغ كثيراً إذا ما زعمت بأنك تكادين أن تكوني رمز فداء لعالم حكم عليه بالسقوط إلى الأبد. ولو لم أؤمن عن يقين بأنك كذلك لما حبوتك بلغتي هذه، وهي التي نمّقتها وعمّقتها وكرستها لاستبار هويتك كاملة غير منقوصة. ولكنها، مع هذا كله، لن توازي

قامتك الفارعة، أو لن تطال سوى نتفة من كنهك المستتر المتواري، أو المصون عن كل بذاء أو ابتذال، على الرغم من حماستها وعرام دفقها. فأنت كيان محض، أو ماهية صرفة، محصّنة وعصيّة تماماً على أية محاولة تبتغي المساس بسرك المسيّج المحروس.

ولكن، أليس من قبيل الإجحاف، أيتها المرأة الطيبة العادلة، أن تهيمني عليّ إلى هذا الحدّ الاستيلائي المستبد؟ ألا تشبهين وسواساً متسلطاً يعذبني على الدوام؟ أو يعقل أن تكوني اضطهادية حتى درجة العسف دون أن تشعري بالإثم وقلق الضمير الذي يخلخل كل استتباب وهدأة بال؟ ترى، هل هو من فصيلة المنطق أن تظل صورتك في مخيلتي عصية على الاستهلاك والنضوب وحصينة مثل أسوار بابل الشاهقة؟ فمع أن جسدك قد رحل من مجال البصر كله، قبل خمسين عاماً، أو زهاء ذلك، فإن روحك، أو معناك المستور، قد ظل مكيناً في ذهني لم يتزحزح، ولا أراه يريد أن يغادر موقعه المستتب. والدليل على ذلك هو هذه النوبات العاتية من الحنين الاضطهادي الملتاع. أن يمتزج فحواك بروحي على هذا النحو الاندغامي، ذاك عندي أمر يشبه المعجزات، بل يكاد أن يجانس المحال واللامعقول. فكأنك عاصفة هبّت ذات صباح ثم تلاشت في مساء اليوم نفسه، ولكن آثارها استعصت على الاضمحلال والزوال، وذلك لشدة تجذرها في تربة النفس، أقصد نفسي

حصراً. فأنت المصب الأول بين جميع مصبات الحنين التي يهفو إليها القلب على الدوام، والتي لا تطالها اللغة المتينة ولا ضراوة الأسلوب أو اشتعال الألفاظ، أو على الرغم من وحدة العبارة والإنارة إلى حد لا يعنو لأي انفكاك.

ومما هو جد ناصع في ذهني أن فرقاً شاسعاً يميّز بيني وبينك، حتى وإن كنا وجهين لورقة واحدة لا وجود لأي منهما دون الأخرى. فأنت ممن حبتهم قوة الخلق بنعمة النسيان، وأمّا أنا فممن أولجت فيهم نقمة التذكر وعذاب الاشتياق. فيا لهذه التجربة القاسية التي تسمى الحنين.

حنانيك، يا قوة المستور المتحكمة بالنفوس أو بالقلوب اللطيفة الضعيفة. فلو لم تنسني، يا امرأة من ياسمين وبياض ناصع، لهرعت إليّ راكضة ولو على رجلين من قصب. ولكن قدرتي على التشبّث بصور الماضي هي شيء من الغرائب، وأغرب منها قدرة جسدي على مقاومة الأمراض، كأنه جبل صامد في وجه العاصفة، مع أنه دوماً عرضة لهجمات العلل والآفات. أجل، تدهشني قدرة ذاتي على تذكر التجارب المنغصة الماضية، كما تدهشني استطاعة جسدي على تحمل الأوجاع والأوصاب. فكأن النفس تعمل أو تتحرك على نحو يغاير حركة الزمن، وكأن الجسم مصمّم بحيث يصبر ويطيق. فالزمن يدمّر والذاكرة تصون وتعمّر، ولا تفرط بشيء، حتى وإن كان منغصاً. وهذا يعني أن الذاكرة كاللغة، عنصر من العناصر المسهمة في تركيب الخير

الأسمى، حتى وإن عذبت الروح. ولولا الذاكرة لما كان للحب المجهض المدحور أن يمارس التعذيب الاضطهادي على أية روح من الأرواح. والأهم من ذلك أنه لولا الذاكرة لما تيسر للإنسان أن يكون.

إذن، ها أنا ذا أحسو مرارة غيابك بأكبر الكؤوس وأَوسعها وأكثرها امتلاء وقدرة على الاحتواء. ولكنني لا أحسوها دفعة واحدة فأفرغ بسرعة، بل أتناولها جرعة إثر جرعة، وبغير عجلة أو رغبة في الانتهاء. ماذا، هل صارت مرارة غيابك قوتاً لا تملك نفسي أن تتنفس من دون التغذي به وبمحتواه؟ هل جذبني هذا العذاب فانقلب في وجداني إلى لذة وهناء؟ ربما، فهو نتاج لما غرس من الأحزان والآلام في تربة النفس، أو في جوف الفؤاد المتيّم المشوق.

فما زلت أقشّر الأزمان عن ذلك الزمن السعيد الذي مارسناه معاً، والذي تراكمت فوقه ليال وأيام لا تحصى. وهذا يعني أنني ما زلت أتعذب وأضطهد نفسي بمحتويات ذاكرتي المشحونة بالمنغصات. وأرى لزاماً علي أن أحتقر أولئك الملقحين ضد الشرف، وهم من أجهضوا مشروع سعادتنا التي صارت وشيكة يومئذ. ولكنني أجد عزاء صغيراً في عقيدتي التي تؤمن بأن كل شيء، حتى الشمس والقمر، نافل ولا لزوم له قط. ومما يزيدني إيماناً بهذا المذهب هو أن العالم بأسره ملك للقتلة واللصوص وجميع قوى السلب والنهب والعدوان.

- ٩ -

قد تذكرين إلى أي مدى كانت دمشق خلّابة أو جذّابة في غابر الزمان، ولا سيما خلال عقد الخمسينيات. كما قد تذكرين كيف كنا نتسكع في شوارعها النظيفة الرحيبة الفضفاضة. ولا أحسبك قد نسيت صحن الطعام الرخيص والشهي في آن، وشراب السوس والتمر الهندي وعصير الليمون، وما إلى ذلك مما يصنع الرغد والرفاه البسيطين بأزهد الأثمان. أما اليوم فقد صارت دمشق الفيحاء، أمي التي رأمتني، عجوزاً هرمة مترهلة ومتكهفة الخدين. فها هي ذي تفتقر إلى النضارة والغضارة، بل قد يجوز الزعم بأن نساءها الفاتنات قد خسرن بهاءهن وبضاضة أجسامهن. إنها شاحبة الوجه وذات عينين قذيّتين وجبين مسفوع أو مكفهرّ.

ثم ها إنها اليوم محشر مكتظ بالناس والسيارات، فالكائنات الحية ههنا يتنفس بعضها أنفاس بعض. والأهم من ذلك كله أنه لم يعد هنالك شيء مما يجذب ويخلب، وذلك لأن هذه المدينة صارت تفتقر إلى الحيوية والدماء الحمراء، بل إلى كل ما من شأنه أن ينعش النفس أو يزودها بجرعة من هناء أو سعادة.

وأحسب أنك تذكرين الكتب التي كنا نشتريها عن الأرصفة في تلك الآونة الرشيقة الهيفاء. أتذكرين ديوان ابن الفارض، الذي اشتريته أنا بربع ليرة، ثم طالعناه معاً ستّ مرات خلال شهر واحد؟ ولقد اشتريت بعده نسخاً لا تحصى عدداً، ضاعت كلها عدا واحدة ما زلت أحتفظ بها منذ ثلاثين سنة وحتى هذا العام المتوتر الراهن (٢٠١١). وما كان لذلك الديوان الرشيق أن يشغفني حباً إلا لأنه خرج من فؤاد عاشق ولهان وشديد الصدق في غرامه الحميم. وقد لا يبذه في حرارة حبه أي عاشق آخر في تاريخ الثقافة العربية، حتى ولا مجنون ليلى. وربما ضاهاه دانتي، ذلك العاشق المخلص المؤتمن على أمانة نفيسة اسمها بياترس.

ولعلك تذكرين الروايات الكثيرة التي طالعناها معاً، وخاصة «الجريمة والعقاب» و«آنا كارنينا» و«البؤساء» وسواها من المبتكرات الفنية العالية التي من شأنها أن تقنع المرء بأن العبقرية سرّ لا يعنو للاستبار، وأن من سوء حظ الجنس البشري أن تضمحل العبقرية وتشرف على الزوال في هذا الزمن الأعجف. ولقد كانت الروايات التي طالعناها إنجازات جليلة أنجزتها عبقريات رفيعة وحسّاسيات شديدة القدرة على التقاط ذبذبات الحياة وإعادة صيغتها في الخيال. ويا للهناء الذي كان يغمّسنا يومئذ. فقد كنا نكتشف الحقيقة بالتدريج ونغتبط بها، على الرغم من الفقر الذي كان يسربلنا من سمت الرأس حتى أخمص القدم. فيا للروعة ويا للسعادة التي تخلقها البراءة!

ويوم قرأنا «البؤساء» وتدبرناها واكتشفنا جان فالجان، أو الضمير الحي والمثل الأعلى، فقد تعزز ضمير كل منا وترسّخ. وقررنا أن الفرد من غير الضمير والمثال هو في منزلة وسطى بين البشر والبقر. فما من فساد تقريباً إلا وهو مشروط بفساد الضمير أو بخموله وميله إلى الاسترخاء. وفضلاً عن ذلك، فإن الاتصال الوثيق بالمثال غالباً ما يتم من خلال الضمير حصراً، أقصد الضمير الحي المفعم بالحرارة والمتشبث بالنقاء والبراءة ونظافة الوجدان. كما قررنا أن خير فعل يفعله المرء هو أن يقدم الخدمات الجليلة لإخوته في البشرية، ولا سيما أولئك الذين يحتاجون إلى عون. وذلك هو السلوك الذي سلكه جان فالجان تجاه كوزيت، تلك الصغيرة التي كاد المجتمع أن يفترسها لولا جهود ذلك الرجل المفعم بالنخوة والأريحية، والذي يصلح قدوة لكل إنسان. ومما أستهجنه أن هوغو، مؤلف الرواية، قد أنجبته أمة تحترف القرصنة والجريمة واللصوصية. ويصحّ الرأي نفسه على شكسبير الذي يبذ هوغو في كل شيء.

ولعلك تذكرين شرح المعلقات العشر. ما زلت أحتفظ بذلك الكتاب حتى اليوم الراهن. حقاً، ما برح لديّ هو نفسه لم يتغير تقريباً. وإنه الكتاب الوحيد الذي بقي في حوزتي من ذلك الزمن السعيد. ولكن ما يؤسفني كثيراً أن جلده الأصلي قد بلي لفرط ما تداولته الأيدي، فأبدلت به جلداً آخر من الورق. وبذلك حرمت من الجلد الذي كنت تلمسينه بيديك الطريتين الناعمتين كالقطيفة. وإنها لخسارة جسيمة، بل عظيمة، ولا أتحملها إلا على مضض. فلقد

تسرّب من بين يديّ شيء عزيز جداً على فؤادي، وذلك لأنه وثيق الصلة بك، يا أنفس المخلوقات في فسحة عمري المديد. فلا غلوّ إذا ما صرّحت بأنك كائن يتألف من الأنبل والأصفى، أو من نقاوة الكون وخلاصته، وكذلك من كل ما لا يرعوي أمام سلطة الزمن ولا يذعن لقوة النسيان. ولأنني خسرتك، فقد لبست الهم والغم منذ ذلك الحين، وما عدت أجهل مكابدة الأسى وسياط الأشواق. وهذا هو مصير من خسر النفائس والغاليات.

لقد أحسن ييتس صنعاً حين طرح هذا السؤال في قصيدة له عنوانها «البرج»: «هل ينصبّ الخيال أكثر على امرأة ربحناها أم على امرأة خسرناها؟» ولعله أن يقصد هذا المقصد: أيّتهما أنفس أو أجدى، المرأة التي يحصل عليها الرجل أم تلك التي يبتغيها ولكن دون أن ينالها؟ أما أنا فأعتقد جازماً بأن المرأة التي يخسرها الرجل أكثر نفعاً له، وذلك لأنها توقظ طاقاته الغافية وتحرضها على الفعل والإنجاز. فلا مراء في أن كل اهتمام قوي يملك أن يساهم في شحذ الذهن وشحنه باستطاعة خاصة أودعت سلفاً في بنيته نفسها.

ولكن فلنعد إلى ذكرياتنا التي أحسبها أقل إيلاماً من التفكير بالخسران والتحسر على ما فات. فلا ريب في أنك تذكرين الغوطة وأشجارها الكثيفة الباسقة. ولا أدري لماذا أجد صلة نسب بين حبنا وبين الغوطة الغنّاء، بل لا أدري لماذا أشعر بأن حبنا هو ابن الغوطة الخصيبة على وجه الحصر. ويلوح لي أن

الحب القابل للدوام أقرب إلى الماء والنبات منه إلى النار والاحتراق، وذلك بعكس الجنس الذي يباين الحب إلى حد التنافر، بل يعارضه حتى درجة التضاد، والذي ينتسب إلى عنصر النار بدلاً من عنصر الماء، كما ينتسب إلى قوة الجسد وليس إلى قوة الروح.

وا أسفاه! إنَّ ذلك المكان الأنيق الأنيس، الذي إذا مشى فيه المرء شعر بأن الأشياء تحييه أو ترحب به أصدق ترحيب، لم يعد له وجود تقريباً في هذه الأيام الخاوية العجفاء. لقد استطاعت الآلات الحديثة أن تفترع بكارة الغوطة التي حافظت عليها طوال آلاف السنين، والتي صنعها نهر صغير اسمه بردى. بل إن هذه الآلات الحقيرة لم تترك على الأرض بقعة عذراء قط. ولن أشفي غليلي إذا قلت بأن هذه الآلات السمجة قد فضت بكارة الحياة كلها، وعلى مدى العالم بأسره، وأحالت الدنيا إلى عجوز حيزبون لا خير فيها.

فيا لهذه الحضارة الآلية القاسية الشرسة، حضارة النار والمعادن التي عبّرت عن جلافتها بأدواتها الاجتثاثية اللئيمة. فحين كانوا يستأصلون شجرة من أشجار الغوطة اليانعة، كنت أمتقع اصفراراً من شدة شعوري بالخسران، وذلك لأنهم يجتثون الجمال والحياة في آن واحد، بل أشعر بأنهم يفتلذون فلذة من عمري ويلقون بها في الهاوية. وهذا يعني أن الذهن البشري قد هزمته منجزاته نفسها. وههنا، أراني أوشك أن أجزم بأن بؤس

البشر شيء شامل وديمومي وحتمي ولا حيدة عنه بتاتاً في أي يوم من الأيام.

* * *

ولئن أردت أن تعرفي شيئاً عني فأنا ما زلت أطالع الكتب حتى الآن، وما فتئت أنقّب وأبحث عسى أن أعثر ذات يوم على ما يملأ ويعني، بل على أي شيء ذي بال. وما انفكت الحقيقة طلبتي وأمنية نفسي، وما برحت تناديني، بل تدعوني بإلحاح، وبصوت هامس أحياناً وجْهوري أحياناً أخرى. فلم أشبع من الكتب حتى اليوم، بل لن أشبع منها وإن عشت ألف سنة، مع أنني أوشك أن أدخل في طور العجز والهرم، حتى كأن عزرائيل قد نسيني، أو كأن اسمي لا وجود له في سجلاته.

ولكنني عبثاً رحت أجوب مساحات شاسعة تربض في فضاء الفكر النظري المجرد، أو أجوس خلال أصقاع تنداح فوق هذه الكرة الأرضية المتصدعة من شدة البؤس، وذلك بحثاً عن مخرج أو عن خلاص. ولقد تعبت كثيراً بغية الحصول على أي شيء ذي بال. فأنا أعتقد بأن الأفكار، مثل أي إنجاز نفيس، لا تنالُ إلاّ غِلاباً، أو إلاّ بعد الكد والتعب المضني. ومما يكدّر بالي أو يعكر نفسي أنني لم أعثر البتة على أية نتيجة مهمة، إذ ليس من شأن هذا الواقع المجدب أن يفرز ما هو أصلي إلا لماماً فقط، ولكنه شديد القدرة على تمويه الأشياء وتقديمها وكأنها

الغبطة المنشودة نفسها، ولا سيما حين يتوخى ذلك عن سابق عمدٍ وإصرار. ولا عجب، فالعالم مادة، والمادة وجوباً شرٌ أو بؤس وشقاء محتوم. ولقد عمد إلى الحيلة، فراحت البدائل المموهة، أو أشباه المطلوب، تتراصف وتتعاضد فيما بينها، وتتكلم بإسهاب لتوهم الناس بأنها أصلية جداً. وقد تنطلي هذه المحاولة الكاذبة أو الزائفة على السذّج والخدّج وذوي الأوهان العقلية، ولكنها قلما تنطلي على أهل الحضور، أو أصحاب الوعي الناجي من الهزال.

وأما أنت فلا علم لي بأمورك وأحوالك. هل أصابك الرهل الذي يصيب الناس عادة حين يشيخون، فقعدت حتى عن الحركة الضرورية، أم تراك ما زلت قوية نشيطة وتتحركين برشاقة ودون مشقّة؟ فمنذ مطلع أمرنا لم أستجب إلا للحيوية أو النضارة التي تفعم شرايينك بالعافية والدماء الحمراء القانية، بل لم أستجب إلا لبهاء روحك وألقها المشعّ مثل شمس الصباح.

أما زلت تطالعين الكتب وتسعين وراء مغزى يعلو فوق التجربة اليومية السمجة، وتكتشفينه وتغتطبين به من أعماق نفسك؟ هل بلغت إلى صورة الفعل الأصيل الذي لا تقوى عليه إلا النفوس الأصيلة والأرواح المطهمة، من أمثال جان فالجان الذي لا يزيد عن كونه أخيولة خرجت من خيال فكتور هيغو؟ صدقيني أن كل خلية في جسدي جد مشوقة لمعرفة أخبارك، بل للإحاطة بأدق التفاصيل الخاصة بأحوالك وشؤون حياتك.

وصدقيني مرة أخرى إذا ما أكدت لك أنني حريص على أن تكوني قد ظللت ملتزمة بالبحث عن الحقيقة حتى يومك هذا. فإن مما لا يليق بسيدة فاضلة مثلك أن تكون نصف أمية، أو لا تعرف إلا النزر اليسير من المعارف والأفكار الكبرى. أما أنا فقد تبدلت بعدك كثيراً، فدرست الفلسفة بشغف وإقبال شديدين. ليتك فعلت الشيء نفسه، فعمقت شخصيتك العميقة سلفاً، والمستعدة لمزيد من التعميق والتأصيل بحكم طبعها الموروث. ففي الحق أن الفلسفة عظيمة القدرة على توسيع الذهن حتى وإن كانت تهذي أو ترطن، أو تغوص في انبهام اللامفهوم.

وعلى أية حال، فإن اهتمامي بأمورك إلى هذا الحد الذي ترين هو نتاج لدافع يشكّل جزءاً من غريزتي، ويتخلص في أنني أحتاج إلى أن أكون مخلصاً لأحد الناس، أو لفئة من الفئات البشرية الطيبة أو المعتدى عليها. إنها حاجة الإنسان إلى الاتصال في العمق، أو حاجة الفرد إلى الاتصال بفرد آخر، بل حاجته إلى هجران الأنا من أجل الالتقاء بالأنبل والأسمى. وإنها غريزة الإخلاص التي أراها البنت الشرعية لغريزة النقاء والأخت التوأم لغريزة الولاء. فقد لا أستطيع أن أمارس حياتي، أن أتنفس أيامي، دون أن أكون موالياً لكائن يتجاوزني أو يعلو عليّ. فلتكوني أنت ذلك المثال الذي أرنو إليه من الأسفل، أو ذلك الكائن الأعلى الذي يستحق الموالاة، مع أنك برهة تحدرت إليّ من الماضي ثم توارت في كهفه السحيق. بل تلوحين لي

وكأنك الماضي الذي لا يريد أن يمضي، ويصر على البقاء في الجوار أو في باحة البال. ولهذا، فإنك تظلين تنبضين داخل الذاكرة حتى كأنك أكثر انتساباً إلى الحاضر منك إلى الماضي.

وكثيراً ما أشعر بأنني ملهوف على أن أكون مؤتمناً على شيء من الأشياء النفيسة أو المقدسة. ولست أجد أيّما شيء أنفس من حبك أصونه أمانة بين جنبيّ، أو في سويداء روحي. وهو أمانة لا أتوانى عن توظيف كل وسيلة من الوسائل الممكنة كي أضمن بقاءها ناجية من كل عيث أو ابتذال. فكما عيّن ابن عربي نفسه أميناً على أسرار ليلى («رمز الحقيقة الكلية»، على حد قوله)، فإنني أعيّن نفسي أميناً على أسرارك، أيتها المرأة المنسوجة من الأسرار. ومع أن غيابك يعذبني أشد العذاب، فإنك ما خلقت إلا لتكوني عزاء لي يساعدني على تحمل غلاظة الحياة وجلافتها الكامدة العاتية. ولا غاية لي في هذه الحياة الدنيا غير الاتصال الروحي بأعماقك الغورية والامتزاج بها لنؤلف معاً وحدة لا تعنو لأي انفكاك أو ارتخاء.

ومع أنك ترخمين في قلبي مثلما ترخم يمامة في عشها، فإنك تجسّدين ذلك التوتر القائم بين المسافة والبلوغ، ولا سيما حين يظن المرء أنه قد نال بغيته، مع أنه في الحق لم ينل شيئاً مهما يك نوعه. ولكن، مع شعوري بأنني لم أحصل على شيء سوى الغبار، فإنني في الوقت نفسه أتمتع بشعور سعيد مفاده أنني تعرفت عليك وعايشتك في فترة من فترات العمر السالفة. كما

أخلصت لك الود بنقائه التام، واتخذت صورتك وديعة أودعتها في البال، وحبَّك في جوف الفؤاد، حيث تستقرين محروسة ومصونة إلى الأبد.

ولا غلوَّ إذا ما زعمت أن مجالستك ومحاورتك والاقتراب منك وقبولك بي وإقبالك عليّ، هي شؤون تؤلف نصراً مؤزراً تحرزه الروح على إرادة الخواء النازعة إلى التهام كل شيء. ولهذا، فإن تلك الأفعال قادرة على أن تنعش النفس وتعلي قيمة الأنا. فحين أتذكر ساعاتنا المشتركة أشعر وكأنني كنت في الجنة يوم ذاك، ورحت أتغذى برحيق أزهار الفردوس. أن تكوني معي، أن تكوني إلى جواري، أن توجهي إليّ حديثك العذب، أن تخاطبيني بحنان أو بمسرة، تلك هي الجنة بالضبط. إنها السعادة والظفر أو انتصار الإنسان على البؤس المغلغل في نسيج الأشياء والخواء المتفشّي في ألياف الكائنات.

لقد كان حضورك صنفاً من أصناف الشعر أو الموسيقى، أو لعلك كنت تجسدين قصيدة وأغنية خلابة من تلك الأغاني التي لا تنسى. كنت حريراً موغلاً في النعومة، أو بعضاً من رقة الفجر في يوم صيفي معتدل. وبودي أن أضيف ما فحواه أنك كنت نجمة تشع في السماء من عل وتنير دربي وحدها على الأقل. ولكنّ أهم ما في أمرها أنها تكشف تيار الحياة وهو يتفجّر من حولي ويتدفق عارماً ومصرّاً على الانتصار. فبماذا عساي أن أشعر حين أتذكر أنني كنت حبيباً إلى قلبك ذات يوم؟ أتذكرين

قولك المتواتر: أنت مثلي الأعلى، بل أنت هو الإنسان المثالي بالضبط؟ يا للروعة والهناء! أن أكون مثلك الأعلى يعني أن أكون في الجنة. وهل أحتاج إلى أي شيء بعدما ترينني مثلك الأعلى؟ فكما يقول الصوفيون: ماذا فقد من وجدك، وماذا وجد من فقدك؟ يا أنبل النبيلات وأغلى الغاليات، ألا يحق لي أن أتأسف كثيراً على ذلك الوقت الذي التهمه الزمان دون أي أمل في استرداده بتاتاً؟

نعم، إنك تتجاوزينني دون ريب، بل ما من أحد في هذه الدنيا يتخطاني ويعلو فوقي سواك أنت وحدك. ولهذا، فقد واليتك وأخلصت لك الولاء، مع أنك الاستعصاء المرير الذي يكدّر حياتي ويعكرها، بل يقلبها إلى اعتلاف بالرماد. وفي الحق أنني على أتم استعداد كي أوالي كائنين اثنين على الأقل، أنت والوطن. وكل منكما يتجاوزني صوب الأعلى حتى يبلغ إلى مستوى رفيع جداً لا أملك أن أطاله بيدي، بل فقط بخيالي وحده دون سواه. ولا لزوم للتكتم، فأنا أشاهد طيفك في النوم كثيراً، بل كثيراً جداً.

ولكن هذا الإشباع لغريزة الإخلاص والحاجة إلى الموالاة، وهذه الصيانة لوديعة الغرام في سويداء الفؤاد من دون أي تدليس أو تزوير، ما كان لهما أن يتمّا لو لم تكوني رفيعة إلى الحد الاستثنائي الرائع. بيد أن الإشباع والصيانة اللذين أسبغت عليهما من الوفاء ما يكفي لتأصيلهما تماماً لم يحولا دون مكابدة

الشعور بالاغتراب في غضون غيابك المكرب والشديد الشبه بالفجيعة. وإنه لاغتراب مرير يرسّخ رفضاً متبادلاً بين الداخل والخارج، بين الأنا والعالم. فلم تجد نفعاً قدرتك على تحويل المجردات إلى مجسّدات ماثلة للعيان، أو كونك التجسيد الأكمل للحقيقي والأصيل. فلا بد للقلب من أن يتفطر أمام خسارة جسيمة كهذه الخسارة التي منيت بها يوم هاجرت وتركتني فريسة لوحشة الوجود. وإنها لحسرة لها القدرة على أن تجعل الفؤاد يدمى ويشخب بغزارة، ولكن دون أي أمل في أن يرقأ له نزيف. فلقد ظللت منفياً حيثما حللت، حتى وإن كنت في منزلي، أو بين أهلي وأقربائي وأفراد أسرتي. فأي قدر هذا الذي حتّم عليّ أن أعيش غريباً طوال حياتي.

ومع أنك كنت على الدوام نوراً ساطعاً ينير حياتي من بعيد، فإنني قد ظللت معكوراً مأزوماً في هذه الدنيا التي لا أراها إلا سجناً لي، كما لا أراني إلا كسجين ينتظر بفارغ الصبر انتهاء مدة الحكم الذي صدر عليه. بقيت روحاً حزيناً ملتاعاً تقضمه الغربة ببطء شديد، ولكن دون أي أمل في الخلاص، أو في الخروج من هذه المحنة الكامدة، أو هذه اللعنة التي لا تهدأ، والتي لا إجازة منها قط. ويزيد من حدّة هذا الاغتراب، أو الشعور بالاستلاب، أن العالم المحيط بي تحوزه زمجرة المال وهمهمة السلاح وعواء أهل السفالة والنذالة الملقحين ضد النبل والشرف، والذين لا عمل لهم إلا أن يقلبوا عذوبة الحياة إلى

مرارة علقمية لا تطاق. وفضلاً عن ذلك، فإنني في سواء حصار تمارسه الغوغائية والأمية المنحطتين. ولهذا، فإنني قلما أصادف في الحياة الإجرائية ما هو جدير بأن أتفاعل معه ولو بشيء من العمق والجدية التي لا يشكمها الشعور باللاجدوى.

ورحت أقاسي الكمد والسوداوية الكئيبة، ولا سيما كل مساء بعد الغروب، حتى وإن ارتدى المساء بزة الألفة والمودة الصادقة، بل أتمنى دائماً أن يمر المساء بسرعة البرق، أو أن يجيء من يؤنسني ريثما ينقضي أوله الثقيل السميك الذي يشكل لي كل يوم صدمة لا أتخطاها إلا بعد لأيٍ. فبرهة الغسق، الذي هو ظلمة أول الليل، تعذبني دوماً كأنها الجحيم، حتى صرت بحاجة إلى شيء من الدربة لاستقبال الليل. ففي أثناء تلك البرهة الكابوسية أرضخ لنــزق الأشياء وعتوّها المريد. كما أنني لا أرى في الكون كله غير التشتت والتضعضع والفوضى والعناصر النافية للسكينة والطمأنينة. ولكنني أطمئن كثيراً بعد ما يستتب الليل أو يترسخ.

ويصدق الرأي نفسه على داخلي المبعثر الموهون الذي استحال إلى شظايا وفتات. وعبثاً أناشد الكون أن يمد لي يد العون، فما من قوة تملك أن تنجد أو تسعف ولو قليلاً، وجميع الكائنات تقف على حيدة وتتفرج دون مبالاة، بل لعلها أن تتلذذ بما يأهلني من توتر وقلق كثيفين. وإذا ما سيطر عليّ الاقتناع بأن الكون يتمتع بمقاساتي المريرة اقشعر جلدي ثم قفّ شعر

رأسي حتى صار مثل شعر القنفذ. ولقد بلغ بي الكمد والمعاناة حدّاً شديد التطرف، فصرت سجناً لنفسي، أحبس ذاتي داخل حدودها، أو داخل جلدي، بل لحمي وعظامي. وصار كل شيء زنخاً خاثراً بلغمياً وفقيراً إلى اللدانة واللمسة المخملية. يقيناً، إنني أشعر دوماً كأنني أسير في جنازتي الخاصة.

وها أنا ذا من بعدك في عزلة خانقة لا مخرج منها البتة. وفي الحق أن شيئين اثنين فقط ينموان في جوفي: الموت والإخلاص لشخصك الكريم. وأكاد أن أضيف ذلك الحزن الرزين الناتج عن الشعور بالخسران، وكذلك عن مرارة الإحباط وعنف الهزيمة أمام سياق الأحداث، أو داخل هذا النسق المحيط الذي يحاصرني حصار الماء لجزيرة من جزر البحر. فلا مرية في أنك تمتزجين بمصيري، وكذلك ببنية نفسي، كما تمتزج العناصر الغازية التي تركب الهواء. وقد لا أبالغ إذا ما صرّحت بأنني ممسوس بك إلى حد الهوس الذي هو شعبة من الجنون.

ولكن هذا الحزن الكثيف نفسه هو الفاكهة اللذيذة التي تتفكّه بها روحي أو تتغذّى، والتي لا أملك أن أعيش من دونها قط. إنها القوت الشهيّ الذي يقتاتُ به وجداني على الدوام، بل إن هذا العنصر المكظوم، أو المكتوم، هو المحتوى الفولاذي لماهيتي السرية التي أحجبها عن أبصار الناس دون انقطاع. فليتك تصدقين أن عذابك عذب، وأن غرامك المدحور لذة ما بعدها لذة أو متعة. فلكثرة ما ألفت مقاساة هذا الحب المحبط أو المجهض،

صار لذة حقيقية لا أملك أن أفارقها أو أعيش من دونها قط، أو لنقل إنه صار اندماجاً للذة بالألم والعذاب.

أليس عجيباً أن تربضي في خلدي طوال نصف قرن، أو زهاء ذلك، دون أن تهترئ صورتك، ولو قليلاً، بل تزدادين تألقاً ولمعاناً كلما أمعن الزمان في التصرم والانقضاء؟ أليس من المفارقات التي لا رفع لها أن لا يكون لي وجود أصلي إلا داخل مكان لا أكون فيه؟ فأنا دوماً أقيم فعلاً، أو على الحقيقة، حيثما أقمت أنت بالضبط. ترى لئن لم يكن هذا الحفاظ، أو هذا الالتصاق الوثيق بك، هو الوفاء للغياب، فماذا عسى الوفاء كله أن يكون، أيتها النائمة التي لا تدري بما أكابد جرّاء غيابها الملوّع الذي يجعل نفسي كتلة أشواق وحنين؟

ودون أية مراوغة أو زوغان عن سمت السداد، أؤكد لك جازماً ونائياً عن كل مبالغة، أن صوتك يدوّي في مسمعي كلما خلوت إلى نفسي، أو كلما خفتت بقية الأصوات، ولا سيما ما كان منها صاخباً أو قادراً على تشتيت الذهن أو تشريده. صدقيني أنني أسمع همهمة منك، همهمة ساخطة، تنثال في أُذنيّ كلتيهما كلما ارتكبت خطأ، وكأنك تؤنبينني على إساءتي المرفوضة، تماماً مثلما توبخّ أم طفلها المشاغب حين يرتكب حماقة من الحماقات. ولكنني أسمعك تهمسين لي بهدوء ومسرة، مستحسنة سلوكي إذا ما عملت عملاً جيداً يرضيك ويرضي الآخرين. فحين يكون صوتك أقرب إلى حفيف الشجر الذي يصنعه نسيم لطيف، أو إلى

حفيف ثيابك حين كنت تتحركين من حولي برشاقة، أدرك فوراً أنك راضية عني تمام الرضى. وما كان لك أن تصيري إلى هذه الحال لو لم تكوني قد أتيت من العمق الذي لا يمسّه الزمان، ولا يطاله ولا يخالطه بتاتاً، وذلك لأنه أبعد من مدى كل سلطة، مهما يك عرامها وجبروتها. إنه العمق الصرف الذي لا يمتزج بشيء مما يشوب، فلا يقبل الاندغام بأي شيء آخر. فهنيئاً لك بهذه المرتبة الأمومية، أيتها المرأة التي أراها الصيغة الأخرى للحقيقة المنشودة على الدوام.

لئن لم تساعديني على اكتشاف رسابة الفرح التي لا تزال مدخرة في جوف سريرتي، فإنني سوف أظل أكابد هذا الغم الذي يغمني والكمد الذي يؤرقني ويقض مضجعي دون رأفة أو شفقة. ولأنني أعوّل عليك كثيرا في هذا الأمر، أراني أشعر أحيانا بأنني جد قريب منك، وذلك على الرغم من انديام المسافة الفاصلة بيننا فصلاً لا هوادة فيه. وأشعر كذلك بأن يدك توشك أن تلمس يدي أو أن تصافحها بحرارة غرامية تفرزها الأشواق وشدة الاندفاع. ولا سبب لهذا الشعور، وفقاً لتخميني، سوى أنك شديدة القرب من الفؤاد، أو من الوجدان، بل لعلك أن تكوني في باطني الذي هو بيت حضرتك المهيبة.

فلئن غبت عن عيني فما غبت عن قلبي الذي يراك دون انقطاع. ولهذا، يحق لي أن أصفك بأنك «الغائب الذي لا يغيب»، مستعيراً هذه العبارة الصوفية المشهورة التي من شأنها

أن تجعلك تلمين الضدين في هوية واحدة. فأنت غائبة حاضرة، ومفقودة موجودة، في آن واحد. ولكنني أحنّ إليك ملهوفاً، مع أنك تثوين ههنا بين ضلوعي بالضبط. فهل هنالك في هذه الدنيا من يملك أن يرفع هذه المفارقة العنيدة؟.

أنت يا من يتلفت إليها الفؤاد على الدوام، لقد جاء في حكمة أهل التراث أن أجلّ المصائب اثنتان: «فقد الشباب وفرقة الأحباب». وإنك تعلمين أن المصيبتين كلتيهما قد حلتا بي وانتهى الأمر. فكيف أطيق هذا العيش المنكوب بعد اليوم؟ ترى، هل تختلف الحياة عن كابوس يكابده المرء في نومه، ما دمت قد أصبت بأكبر المصائب وأشدها فتكاً بروح الإنسان؟ غيابك والمرض مجتمعان، أو متألبان عليّ ومتآزران، هل يبقيان لي أي مخرج من هذا الحصار الذي أعانيه منذ الطفولة؟ ولكنني سوف أرضى بهذه الحال لأن تغييرها من المحال، فضلاً عن أن مآلها إلى زوال، عاجلاً أم آجلاً فقد يكون في الميسور أن أستردك ذات يوم. حسناً! هل سيكون في الميسور أن أسترد شبابي الذي أفل نجمه منذ زمن ليس بالطفيف؟

إذن، ثمة من هم غائبون في حضورهم، ولكن ثمة من هم حاضرون في غيابهم أيضاً. أتراني ضحية لهواجسي المتسلطة عليّ كما تتسلط الكوابيس على بعض النيام؟ ولكن حسبي أنني أستمد من حضورك الغزير هذا مسوّغاً كافياً لوجودي الزائد عن حاجة الكون، بل الزائد حتى عن حاجة نفسي. وذلك يعني أن

غيابك ليس عذاباً محضاً أو شراً بحتاً، بل هو أول الأسانيد التي تسند وجودي كله، في الوقت نفسه، مع أنه يلوّعني، وخاصة في الغلس الذي يسبق الفجر، عندما أستيقظ لأتلقى صدمة تصنعها لي تلك الحقيقة الكاسرة لفقار الظهر، وهي أنك لست في أي مكان قريب، ولا حتى في أي مكان معلوم على التحقيق. ولا تزوير إذا ما زعمت بأن هذه الصدمة العنيفة طقس يومي أحياه عند كل استيقاظ.

فما جداء حياتي لولاك، أو لولا الأمل بأنني سوف أراك ذات يوم مشمس، مبهج، رائق، ومفعم بالنشوة والسرور؟ وإنه سوف يكون يوماً بلا نظير، بل لا صلة له بكل ما هو كائن بالفعل، وذلك لأنه ينتسب إلى نسق يرخم وراء الوقائع والمرئيات. عندئذ، سوف أعتقد على نحو يقيني بأن حياتي الشبيهة بكابوس دائم قد كان لها هدف ومعنى كبيران، يتوجانها ويضفيان عليها القيمة الجلّى. وبذلك لا يكون عمري كله غير درب أو مسافة أقطعها، بل أكدحها، إليك، يا غاية الغايات قاطبة ودونما استثناء، ويا أيتها البغية الختامية والمحطة النهائية التي قد لا أحط على أرضها الذهبية في أي يوم من أيام المستقبل.

- ١٠ -

السلام! ذاك مكان لم يدلف إليه أحد، لم يلجهُ أيّ امرئ قط. ومع هذا، فإنني كثيراً ما أتخيل صورتك محاطة بهالة من السلام ألوانها تشبه ألوان قوس قزح. وكثيراً ما تخيلتك هادئة مستقرة تتسربلين بسكينة لا ينالها إلا الأبرار في عليين. وخلال تلك البرهة الوجيزة أشعر بأنّني راضٍ عن نفسي تمام الرضى، لا لأنني تخيلت تلك الأخيولة العذراء، بل لأنني عشقت امرأة مثالية لها هذه المكانة، أو هذه الدرجة العالية الرفيعة. ثم إنني حين أحاول أن أشرح تجربتنا المشتركة، فإن الصور والأفكار تنثال بغتة في خلدي كأنها البوارق التي تحدّث عنها أهل التصوف، وهي على هيئة إنارة مفاجئة، أو بمثابة إيماءات قد تؤشر إلى الاتجاه السديد. ولا مراء في أنك أنت المصدر الكبير لهذا الإلهام الذي ينيرني من الداخل بين الفينة والأخرى. إنه الشعاع الذي تبثه بصيرتك ليخترق كل كثافة أو سماكة، وليغوص في الأشياء حتى نواتها الأولى. ولو لم تكوني كياناً نفيساً وشديد الندرة لما كان لهذه البوارق أن تعرف دربها إلى الوجود. وحين تخطر هذه الحقيقة في البال، فإنني أزداد رضى عن نفسي وقبولاً لها، كما أشعر بالغبطة لأنني عشقتك ذات يوم.

وبودي أن أحيطك علماً بأن سخط المرء على نفسه هو أقسى أصناف السخط وألعنها وأكثرها سوءاً واضطراب حال وبعداً عن السلام الذي تنشده النفوس حتى وهي في حمأة الحرب.

وعندي أن ممارسة الخواء، أن التفاهة حصراً، أن التسوّس الروحي، أن امّحاء الماهية الجوانية الأصلية، هو أن لا يكون المرء عاشقاً أو معشوقاً، شائقاً أو مشوقاً، ساعياً نحو الطرف الآخر الذي يكمله ويكتمل به. فما الموت في الحياة إلا خلوّ الفؤاد من الغرام الذي يملك أن يجعل المحبوب كائناً يملأ موقع المثل الأعلى أو مرتبته الشاهقة. ولأنك تشغلين هذا الموقع، فإنك تستحقين عاشقاً خالداً رائعاً مثل دانتي، أو مثل ابن الفارض، الذي لا أعرف أحداً يتمتع برتبة غرامية تبذّ رتبته الباذخة.

ولأنك تؤلفين مثلي الأعلى، وكذلك بسبب طول المدة، فقد ألفت عذاب غيابك حتى صار سجية من سجايا روحي، أو طبيعة ثانية لي، أو عنصراً في باطني وسريرة نفسي. يقيناً، إن حزني عليك هو الفعل الطبيعي الذي أقوم به ليكون بمثابة إعلان عن هزيمتي أمام سلطة الأشياء وجبروتها الساحق. ولكن أهم ما في الأمر أن حزني الذي أجتهد أيما اجتهاد لأكتمه عن الناس بالتمويه واصطناع الفرح هو أنفس بكثير من أي فعل واقعي أنهض به علناً ودون تكتم أو مواربة.

لقد أحببت حزني كثيراً جداً، فلو فارقته لتحسرت عليه وتلهفت شوقاً إليه، تماماً كما قال المتنبي عن شيبه في بيت شعر

جميل. وإنني كثيراً ما أخلو به في مكان منعزل لأن الإختلاء به متعة تبهجني وتجلب السرور إلى قلبي. فهل سمعت، أيتها المرأة الحنون، بمن يبتهج بحزنه سواي؟ أليست هذه مفارقة لا رفع لها بتاتاً؟ وبودي أن أؤكد لك ما فحواه أن حزني، لو لم يكن يلذذني، لما احتفظت به طوال هذه المدة التي قد تبلغ زهاء نصف قرن. وأحسبني سوف أموت يوم لا أعود قادراً على الاستمتاع بحزني الذي جلبه غيابك الطويل. بل لقد بتّ أعتقد بأنني لا أعيش إلا من أجل هذا الاستمتاع حصراً، وهو ما أشعر بأنه يرأف بي ويحنو عليّ، ولا سيما حين أسمع حزني نفسه يقول لي: حسبك اليوم، وغداً نستأنف العراك بعد أن يشحذ كل منا قواه ويشحنها من جديد.

ذلكم هو قدري: مناجاة الغياب ومساءلته، ولكن دون أية إجابة، تماماً كمن يقرع جداراً ويظن أنه باب يقبل الفتح. وقدري أن أحاور النائي البعيد، وأن أتذكر الماضي المندثر منذ عشرات السنين، ثم أن أكرر هذا السؤال كثيراً: يا أيها الألباء الخبراء بشؤون هذه الدنيا، أما من علالة لهذا الاغتراب الشبيه بالحمّى الرابضة في نِقي العظام؟ وكيف يمكن للمرء أن يعيش عمره الطويل في هذا الجحيم الجاحم، وينهل من مياهه الحمئة الآسنة؟ إذن، لا حيدة لأحد عن أن يتحمّل آلامه بسكينة ووقار. وربما صحّ قول من قال: «لا يعظمنا شيء مثل ألم عظيم».

نعم، ليس في حياتي ما يضغط عليّ أكثر من ألمي وغربتي وحزني الشفيف الذي تكيفت معه حتى آويته في مخ عظامي

دون أن يسبّب لي أيما أذى. أما الغربة فتلفحني كأنها رياح الخماسين الشديدة الجفاف. وإنها لتنتصب أمامي بكامل بذاءتها ولغتها المقذعة، بل بكامل حرنها وجموحها العنيف، فأكاد أن أراها بعيني، أو أن أمسكها بيدي. وها هي ذي تنتصب بكثافة وغزارة قبالة وجهي وتطا لبني بأن أقبل بهذا العالم الطافح بالشر والعدوان. وإنه لعالم هجره الشرف والضمير والوجدان، فصار تجسيداً للعنة لا تقبل الهجوع بتاتاً.

ترى، ما خير حياة دونَ وجدان؟ إن الوجدان نقاوة الذات وخلاصة الأنا وزبدة النفس ومركز كل شخصية حية أو مسؤولة عن الحياة. وهو ينتج الوجد كما ينتج العقل الفكر. وهل ثمة في هذه الدنيا كلها ما هو أنفس من رعشة الوجد، أو اهتزاز الباطن متأثراً بكل ما ينتسب إلى فصيلة الألم والكرب؟ ولهذا، فإن عالماً بغير وجدان لا يعدو كونه غابة ترتع فيها الوحوش الضارية، ويقتات بعضها ببعض وفقاً لناموس القوة والضعف. ومثل هذا العالم ليس في ميسوره إلا أن ينجب إنساناً ذاوياً أصفر اللون، يحاول أن يستر الموت الرابض في جوفه بابتسامات شاحبة تصطنع الفرح بطريقة زائفة. فلا ريب عندي في أن عصرنا الراهن ليس سوى طور خريفي يابس أو ناشف، وما من أحد يد ري ماذا عساه أن يكون مصيره البعيد.

فكل نجاح قد يراه المرء في هذه الأيام لا يعدو كونه لطخة عار وشنار تشوّه جبين صاحبه. فالنجاح في هذا الزمن اللاحم، يعني القبول بالشر والتصالح معه. وبودي أن أنوه بأن جبهة

الأشرار واحدة أو موحدة في العصر الراهن، أما الأخيار فلا جبهة لهم قط، وكل منهم يواجه الأشرار بمفرده، وعلى خلافاتهم يعيش أهل البغي والنهب والعدوان في عزّ وازدهاء. فوا أسفاه!

وإن حياة كهذه تفتقر إلى الشعر لا محالة، كما أنها شديدة العجز عن أن تنتج الألحان الأصلية. وكل لحن يسمع في هذه الأيام قد تحدر من الماضي حتى وإن كان هنالك من يدعي بأنه مبتكر. أما حياتي أنا فقد صارت خالية من الشعر والموسيقى خلواً تاماً على وجه التقريب. ولكنك أعظم قصيدة بين جميع القصائد التي كتبتها الطبيعة. ولقد لمست فيك من الشعر ما لم ألمسه في مجمل القصائد التي طالعتها خلال حياتي بأسرها، يا أيتها اللوحة التي يعجز حتى روبنز عن أن يرسم واحدة مثلها. فأنا قانع بأنك أنت وحدك القصيدة الجديرة بأن توصف بأنها الشعر في أصالته وكامل ماهيته.

ولقد سلف لي - والشيء بالشيء يذكر - أن شرحت السبب الذي يدفعنا إلى ابتكار الشعر والأدب والفن بوجه عام. ولئن كنت قد نسيت، فها أنا ذا أذكرك بما قلته لك من جديد. إننا، نحن البشر جميعاً، نمارس أصناف الخيال كافة، وبينها الأحلام، كي لا يتخثر الروح بين الوقائع، أو يصير شيئاً بين الأشياء. إن حياتنا اليومية ضيقة، وهي تمتلئ عادة بأفعال لا تستطيع أن تأخذنا إلى أعماق أنفسنا، أو إلى أعماق الوجود، سيّان. ولهذا، فإن تجربتنا بأسرها تحتاج إلى شحن، وكذلك إلى توسيع قد يخفف من رتوبها الممل. ولا شيء يملك أن يوسّع الحياة، بعد

الحب، سوى الخيال ومنتجات الخيال، وذلك لأنه الأقدر على الاستجابة للمسغبة الروحية التي ينتجها ضيق التجربة اليومية وافتقارها إلى العميق. ولولا هذه المسغبة وهذا الضيق لما كان للخيال أن يكون على ما هو عليه، ولصار ضامراً مثل حبة السمسم. ويوم كنت إلى جواري كتبت الشعر احتفاء بحضورك الجليل. وحين غادرت وغادر معك السرور، كتبت كل ما كتبت لأحصل على تعويض قد يسد مسد حضرتك المفقودة. ولكنني الآن قانط من الحصول على أي تعويض عن تلك الخسارة التي لا تضارعها أية خسارة أخرى.

ما زلت أذكر قولك بأن الشعر ما عاد شاعرياً في هذه الأيام، أي ما عاد يخلب أو يطرب إلا على ندرة وحسب. فمما لا يخفى على اللبيب، بل حصراً على الحسّاس أن الشاعر اليوم قد خسر جانبه الأثيري، فخسر قدرته على التناسم مع الوسيم. ومن دون التناسم مع الوسيم لا وجود للشعر ولا للفن بعامة، بل لا سعادة ولا أصالة في الهوية مهما يكُ نوعها. من دون التناسم مع الوسيم ليس هنالك سوى وجود مبتسر زائف نسبته إلى الوجود الأصلي مثل نسبة الصدى إلى الصوت، وهو ما تنشأ عنه جميع الأصداء بغير استثناء. ولقد حدسنا بأن المستقبل للرواية، ولكن الرواية جاءت مخيبة للآمال. فهنالك طوفان في الكميات وإفلاس في النوعيات. ولهذا، فإننا لا نلاقي سوى الأشباه حين نبحث عن الجودة. نعم، لدينا كائن يشبه الإنسان، ونتاج يشبه الشعر، ونص يشبه الرواية... الخ. أما الإنسان نفسه فعليه رحمة الله. وأما

القصيدة، بل الكتابة بعامة، فقد صارت شيئاً ضامر الوجود حين يفكر المرء بالمستوى الرفيع.

ولقد نسيت أن أحدثك عما جاءتني به الكتابة من متاعب جمّة ومتنوعة. كنت تقولين لي: إن مستقبلك هو مستقبل كاتب مقروء. وفي الحق أن غيابك حثني على أن أصير واحداً ممن يعانون الكلمة بالفعل. فلقد نشرت آلاف الصفحات خلال السنوات الأربعين الأخيرة. وربما كنت سوف أحجم عن إقحام نفسي في هذه التجربة العسيرة لو أنك لم ترحلي حتى الآن. وإنني لصادق، أو هكذا أحسب، إذا زعمت بأنني كتبت لكي أجد ما يؤنسني ويعوّضني عن غيابك المزمن المرير.

ولكنني أرغب في أن أحيطك علماً بأن هذه الكتابة غير المجدية قد جرّت عليّ من العداوة ما لا قبل لي به. فأناس هذا الزمن ينقسمون إلى شطرين غير متساويين في موقفهم من الكاتب: أغلبية لا مبالية وأقلية معادية إلى درجة اللجاجة، وعلى نحو مكشوف. وجميع أفراد هذه الفئة المعادية هجاؤون لا يجيدون شيئاً سوى الشتم. وثمة نوع آخر ممن يعتدون على الكاتب، وأولئك هم لصوص الأفكار. وأسوأ أناس هذا الصنف هم من يسرقون الكاتب ثم يشتمونه. ولا أدري ما الذي أجبرني على ممارسة الكتابة واقتحام فسحتها الشديدة الوعورة، لأتورط بهذه العلوج الغليظة الجافية التي لا وظيفة لها سوى أن تفسد هذه التجربة العزيزة على فؤادي. يقيناً، إن حجم المرض النفسي

المتفشي في بعض أُناس هذا الزمان هو من الضخامة بحيث يثير دهشة كل من يستطيع أن ينتبه أو أن يلاحظ.

إذن، ليس أمام الكاتب الأدبي المسكين في هذه الأيام غير واحد من أمرين: إما أن يلوذ بالصمت، وإما أن يتحمل هجمات بعض اللئام. وهذا هو حالنا، يا سيدة الكَلِمِ الذي يتوج كل كمال في الحياة البشرية. (بالكلام كمل الإنسان). وهي حال منحطة دون خفاء أو دون أي لبس. والجميع مقفوصون في جوفها الخاوي، ولكن ما من أحد يعرف أي مخرج من هذا المأزق الشديد الشبه باللعنة. أن لا نفكر، أن لا نتحسس وجودنا ونتلمسه أو نمحّصه، أن لا نشرح شعورنا داخل لغة أدبية، تلكم هي اللعنة بالضبط، وذلكم هو الانحطاط.

ولعل أهم ما في الأمر أنك تلوذين بالتواري، وبالمسافة الفلكية القاهرة، فتزيدين الطين بلة، أو سوءاً على سوء. أطلّي برأسك، ولو مرة واحدة، ثم قولي: ها أنا ذا، أيها العاشق الهرم، أيها الحالمٍ الذي لا يعنى به أو بأحلامه أحد، ولا يستلهمه إلا نفر يسير جداً من الناس. وعندئذ سوف لن آبه بالكتابة كلها، ناهيك بما جرّته عليّ من متاعب جمّة وعداوات لا يرأب الزمن لها صدعاً في أي يوم من الأيام. وسوف أعوذ بك من شرور الأبالسة الذين يتسلطون على هذا العالم بعدما هجرته القداسة إلى أجل غير مسمّى.

أتذكرين يوم التقينا آخر مرة، وذلك في عام ١٩٧٢، في أوج الصيف، وكنا قد كبرنا بعض الشيء؟ فلا أظنك قد نسيت أننا

أمضينا سويعة لطيفة معاً، وبمعزل عن كل حسود أو غيور أو عذول. ثم افترقنا دون أن تكون بيننا أية جفوة. فلماذا لم نكرر اللقاء ولو مرة واحدة خلال السنوات الأربعين الأخيرة.

ويبدو أنَّه ما من شيء يملك أن يستردك، وما من شيء سوف يعوّض عنك بتاتاً، وجميع الدروب إليك مسدودة بحواجز فولاذية، اللهم إلا بصيص من أمل نحيل، بل هزيل، يا أنفس النفائس، أو يا أيها الكائن النفيس الوحيد في هذا الكون الخسيس. فربما سمحت لنا الأيام بلقاء عابر أو سريع ذات حين قريب أو بعيد. أقول هذا مع شعوري بأنه لم يبق في العمر متسع لمزيد من الانتظار. ومع ذلك، يظل اللقاء البغية الكبيرة، وتظل المسافة العدوَّ الألدَّ، ولا شيء البتة يملك أن يصالح بين الغرام وبين المسافات العصيّة على كل اجتياز.

وإنك زنبقة لا تذبل بتاتاً، حتى لو أسرفت الشمس بإلقاء حممها على الأرض، بل حتى لو استحالت جميع شهور السنة إلى شهر تموز أو إلى شهر آب. ولسوف تظلين هكذا في فضاء خيالي، أعني صورة حية أعتنقها ما دمت حياً، فأستفيق كل صباح على العهد وأنام كل مساء على العهد أيضاً، ودون تغيير أو تبديل. وقد لا أبالغ كثيراً إذا ما زعمت بأنني لشدة ولهي بك أعجز، في بعض الأحيان، عن التمييز بين الأشياء وبين ظلالها، سواء أكانت شاحبة أم لمياء.

ولهذا، أراني أشعر دوماً بأن ولهي بك أو لهفي عليك قد جعل لفحواك رنيناً فضياً يتصادى في فضاء ذاكرتي دون

توقف، حتى كأنه ناقوس أسطوري تدقه ساحرة أو جنية في عالم الخرافات. وهذا هو بالضبط ما أدعوه باسم الإخلاص للبداية وريعان البداية. وعندي أنه ما من شيء يملك أن يجذب النفس أو يناديها بحنين صادق إلا ذاك الذي من شأنه أن يعيدنا إلى البدئي، أو إلى الجذور الأولى للحياة وينابيعها الثرة الغزيرة والشديدة العذوبة في آن واحد.

إننا نشتاق إلى تجارب الابتداء الذي تتصبّ عليه اللهفة والحنين باستمرار، وبصوت لا يسمعه إلا المرهفون وحدهم في هذا العالم المكتظ بالبشر حتى التخمة، بل حتى الاختناق. وهذا يعني الطفولة والأسطورة واللحن والغرام الأول قبل كل شيء. وهذه حقيقة لا يسعها أن تفوتك، ما دمت تتمتعين بهذا القدر من الحضور. كما لا يخفى عليك، يا سيدة الكلام والكمال، أن اللحن، كالطفولة والنور والكلمة، ينبع من قلب البدئي أو من صميمه الراسخ تماماً في مركز النفس. وأكاد أن أجزم بأن ما لا ينتسب إلى البدئي أو إلى الطفولة لا يعوّل عليه، بل لا قيمة له بتاتاً عند الحسّاسين المرهفين الذين يتنصّلون من التجريبي ولا يقنعهم المادي، بل يبتغون دوماً ما يسمو ويتجاوز. كما أن ذلك العنصر السامي هو ما يقلقهم ويلجلج في نفوسهم باضطراد.

فوالوعتي على تلك الأيام التي التهمها التقادم في غابر السنين، فلم يبق منها سوى أصداء خافتة، أو صور باهتة، لا

وظيفة لها إلا ممارسة الجَلْد على روحي المنكوب. وما لم ألتق بك في زمن قريب، فإن حاجة النهاية إلى التماسّ مع البداية سوف تظل تصنع اضطراباً في فضاء النفس، ومن شأن هذا الاضطراب أن يتماوج كما يتماوج بحر تحت عاصفة هوجاء. ولا يخفى عليك أن النفس بيت الحقيقة، بل هي الحقيقة كلها، أو لعلها ذلك اللباب الذي ما وجدت المادة إلا لتكون لحاءه الكثيف. وهذا يعني أنها إذا اضطربت حل الاضطراب في كل محل أو مكان.

- ١١ -

تعرفين جيداً، أيتها المرأة الحاضرة في غيابها، أو على الرغم منه، أن المسافة هي همّي الأول أو الأكبر. فمما يعلمه كل امرئ بالبداهة أن الفاصلة والغرام عدوّان لدودان، ولا صلح بينهما آخر الدهر. وما دام الأمر كذلك، فكيف أبلغ إليك أو أستغني عنك، يا امرأة شطأت من سويداء فؤادي أو من أُسّ روحي وقاعها البدئي. وهل يتبقى لي غير الموت في الحياة إذا ما اقتنعت بأن المسافة التي تفصل بيننا فصلاً قد لا يمحوه الزمان هي وضع سرمدي لن يحول ولن يزول.

ثم أليس الموت الفعلي أرحم من الموت في الحياة؟ أليس هذا الموت الأخير برهة وساطة بين الفناء والعيش؟ فلا هي نعمة الراحة الديمومية في الضريح، ولا هي متعة الحياة السويّة الطبيعية المقبولة على علاتها ومثالبها الكثيرة. فكأنما أصيب المرء بالتخثر فصار أشبه بمادة هلامية منه بأي شيء آخر. وهذا يعني أنه صار عاجزاً عن ممارسة السيولة الحية الحاملة للتوتر والاسترخاء في آن واحد. فلو مرّ الميت في الحياة بالقرب من جدول أو غدير أو بركة ماء لنشف كل شيء أو تبخر أو تلاشى حتى لا يعود له وجود مرئي. وفي ظني أن

الشعر الجيد يستحيل بين يديه إلى نثر من الصنف الهزيل الركيك الذي لا يصلح للمطالعة ولا لإنتاج المتعة الأدبية. فكأن الأشياء قد تخنزرت وفقدت براءتها وحيويتها وخلعت حللها القشيبة، ولبست أكفانها الكالحة، أو جفّ معينها المغذي لعذوبتها الرائعة، ولكن دون فداء أو إنقاذ. وبهذا صار العالم كأنه في مأتم دائم يتجدد كل يوم، بل كل صباح ومساء.

فيا لها من لعنة هائلة هذه اللعنة التي تجهل الهجوع أو السكينة، والتي ألمت بي فغمستني في الجحيم وأنا لم أزل في الدنيا. فما الجحيم إلا وعي البؤس والعذاب. وهو في الوقت نفسه أن لا أجد لهذا الشقاء البشري المحتوم أيما مسوّغ أو تفسير، بل أيما تعليل لا يقبل الدحض والتفنيد. وقد لا أغالي إذا ما زعمت بأن الناس الآن في الجحيم، ولكن أغلبهم لا يعلمون.

ولا ريب في أن القنوط من كلِّ أملٍ خلاصيّ من شأنه أن يعزز هذا الشعور بالبؤس الدائم. فلا فداء، في رأيي، لهذا اليباب المجدب إلا الأعمال الفنية أو الأدبية العظيمة التي تنتصب في مواجهة سقوط العالم، كأنما هي جهود جلّى تبتغي استخلاص الزمان من أشداق الفراغ. وذلك لأن من طبع الفن أن يزوّد الأموات بالحيوية وأن يصبّ على الجفاف ماءً يملك أن يبث الإخضلال في البوار وأن يحوّله إلى روض من رياض الجنان. وهذا يعني أنه ما من فاد غير الخيال والوجدان، أو الفنان الحسّاس ذي الوجدان الحي والخيال الأصيل. ولا فداء إلا من

خلال منجزات الفن الخالدة التي أراها تعويضنا الوحيد، لكن الصغير، عن انتشار الشرور في هذا العالم المسكين الذي يعذبه الشيطان ويعبث به على هواه، فيسومه خسفاً وذلاً وهواناً، ويتخذه مرتعاً لأفعاله الكالحة. وفي الوقت نفسه، فإن هذا العالم تستوطنه كائنات بشرية مغبونة حقاً، وذلك لأنها تدفع من أعصابها أضعاف ما تنال من مردود.

وتحت تأثير هذه المسافة الجائرة التي من شأنها أن تزيل الألفة عن النائيات، بل حتى عن الغرائب، وبضغط من هذا الحنين الملوّع الجارف الذي يملك أن يرفع مصبّ اللهفة إلى أفق المثال، فإنني سوف أظل أنظر إليك بوصفك امرأة تنتسب إلى عالم القداسة بدلاً من عالم الدنس هذا. ولدى استقصاء الأمر عن كثب سوف يتأكد الذهن من وجود وشائج متينة تشدني إلى زمن البرارة الذي غبر واندثر منذ مئات السنين.

ترى، ألم تكوني مع المريمات اللائي أحطن بالسيد المسيح في محنته المشهورة؟ وهل كان لك أن تجيئي إلى هذا العالم الساقط لولا أن النقاء الصرف قد اتخذ قراراً بأن يمثّل أمام البصر، أو بأن يتجسد فيصير من أجل العين؟ ومع أنك الكائن الموجود لأجل البصر، أيتها الشمس الساطعة، فقد لذت بهذا الغروب الذي لا بزوغ بعده، على ما أرجح.

ما من عصر إلا وقد تمنى أن يتميز بأنه هو الذي ولدك أو جاء بك إلى هذه الدنيا. ولكن عصرنا الأشيب الهرم هو وحده

الذي حظي بهذه المزية أو تفرّد بهذا الشرف. ومن المفارقات التي لا رفع لها أنك أنت وفيروز قد تزامنتما مع ظهور القنبلة النووية على مسرح الوجود. ومن شأن هذه الحقيقة أن تؤكد مبدأ المثنوية الذي يتحكم بهذا الكون كله. فلا يعقل أن يطغى الشر إلى هذا الحد المثير للشعور بالاشمئزاز، دون أن يبذل الخير جهداً كبيراً ليتوازن معه أو يتعادل.

ولولا إيماني الجازم بأنك مركز هذا العالم وأسّ مغزاه، لما دُبّجت هذه الرسالة، ولما عرفت دربها إلى النشوء. ولكن، لولا الخواء الذي خلفه غيابك المريع لما كانت الأشياء باردة وممجوجة إلى هذا الحد المتطرف المقيت. فما عاد في هذا الكون شيء جدير بأن ينبض له ناقوس الفؤاد. حتى البحار الزرقاء والمروج الممرعة الخضراء المنداحة، والغابات ذات اللون السندسي، ما عادت تبهجني، لأنها صارت أجساداً بغير أرواح. فلمن يخفق هذا القلب من بعدك؟ ومنذ غادرت، صرت أعتقد بأن «كل الذي فوق التراب تراب»، على حد عبارة أبي فراس.

وبعد أن رحلت، لم يبق في الأرض كلها غير الحلم، ولاسيما الحلم المكافئ للأمل بأننا سوف نلتقي ذات يوم رائق مشمس أنيس. وعندئذ، فإنني سوف أُقنع فؤادك الودود، بل يقينك الجازم، واستناداً، لا إلى البراهين المنطقية الدامغة، بل إلى تلك الأدلة الحدسية السرية، بأن حبي لك ما كان إلا متناسباً مع مستوى جمالك الأخاذ، وبأن ذلك التناسب تام أو دون رجحان أية من الكفتين على الأخرى. ولا أقصد إلا جمال روحك

بالدرجة الأولى، وذلك لأن مخبر الشيء كثيراً ما يكون بعكس مظهره الخارجي.

ولا غلوّ، إذا ما زعمت بأن البحث عنك يشبه البحث عن الوردة الزرقاء التي عشقها الرومانسيون ،ولا سيما نوفاليس، لأنها لا وجود لها في الطبيعة، أو لا وجود لها إلا في الحلم. ولست أدري لماذا أعتقد بأنك اللحن الأول الذي عزفته روح الكون في فجر الخليقة وبدء الإنشاء، كما لا أدري لماذا أعتقد بوجود تماثل كامل بين اللحن، الذي هو روح التناغم والوئام، وبين المرأة ذات السريرة الصافية البيضاء. ولهذا، فإنني قد خسرت كل شيء يوم خسرتك، وتيقنت بعد ذلك من «ألا عِزة بعد عَزة»، كما قال ابن الفارض في «التائية الصغرى».

ومما هو مؤسف إلى حد الأسى أن أخبارك انقطعت عني في الآونة الأخيرة، أيتها المرأة التي لا أدري بمن أشبهها من النساء الأسطوريات أو الحقيقيات. ولعل أندروميدا ذات العصا السحرية الخلاقة أن تكون أكثرهن شبهاً بكنهك المستور. فأنا أكاد أن أثق بأنك لو أومأت بيدك إلى القفار الماحلة الجرداء لأنقلبت إلى فراديس أرضية يانعة أو شديدة الاخضلال، كأنك ذلك المبدأ المبدع «الساري في جميع الذراري»، على حد عبارة ابن عربي في الجزء الأول من «الفتوحات المكية».

صدقيني، أيتها السامية، أنني لا أعرف ما إذا كنت لا تزالين على قيد الحياة، أم وأراك الثرى منذ زمن قريب أو بعيد. لقد

تتبعت أخبارك كثيراً جداً، وظللت أتتبعها حتى ما عاد هنالك من يعرف عنك أيما خبر. يا إلهي! إن وجه هذه الدنيا شديد السماجة والبشاعة من دون أي نبأ يصلني عنك. ولا ريب في أن انقطاع أخبارك عني لهو حدث جلل يشبه احتباس المطر. ولهذا، فإنه يغمّ قلبي كما تغم الغيوم الشمس في جوف الشتاء. وبذلك فقد صحّ عليّ قول من قال: «أحاط بك بحر السراب فانقطعت عن حي الأعراب».

ولو عرفت أين تقيمين، حية أو ميتة، لهرعت إليك راكضاً بسرعة الريح. أما أنت فلا تعبئين بي وبمصيري، وإلا لكنت ظهرت أمامي، فجأة أو على موعد مسبق، ولأعلنت قائلة: ها أنا ذا، أيها الرجل الذي أنهكه القلق على مصيرنا المشترك، والذي ما زال مفعماً بالحنان، تماماً كما كان في صدر الشباب. أو يعقل أن تكوني منذورة للسعادة والهناء، وأن أكون أنا منذوراً للتعاسة والشقاء؟ فأي قدر هذا، يا إلهي الطيب الرحيم؟

غاسق كل شيء من بعدك، باطل أو نافل، بل كثيراً ما تتبدّى لي الكائنات وكأنها ظلمات متحجرة أو متخثرة. ومن دونك شاغر كل ما هو كائن وما سوف يكون. وقد مرّ عمري الزائد عن الحاجة، أو مرّ جُله، وأنا أعلف نفسي برماد يابس كئيب. وعزائي الوحيد أن للزمن ممحاة يمحو بها الأشياء، وأنها أوشكت أن تزيلني من الوجود دون هوادة. ومما يريحني كثيراً أن هذا الجحيم لا يعاش إلا مرة واحدة، أو هو لا يتكرر مرة

ثانية قط. ولسوف يطلق سراحي من جهنم الدنيا دفعة واحدة وإلى الأبد، تماماً كما سوف يفتح باب السجن ذات يوم ليخرج منه أي سجين قضى مدة حكمه. وعندئذ، فإنني سوف أستحيل إلى حلك سرمدي، مثل أي شيء آخر بعدما يلج حيّز العدم والفناء. يقيناً إنني منسوج من ذلك النسيج القلق المتوتر على الدوام، والذي يجهل السعادة حتى لو كان في أعالي الجنة.

ومع ذلك، فإنني دائب البحث عن أفراح. فما من متعة يمكن لها أن تبذ ذلك الفرح الزفافي الذي ينشأ عن التحام الروح بالجمال السامي النبيل. وإن قطرة من مسرة أصلية يسعها أن تغسل هذا الإرهاق المتدرّن كله، وذلك لأنها تجيء بمثابة تحرير من هذا المستنقع الآسن المعكور، أو ربما لأنها تأخذ المرء من يده إلى تلك الفسحة المحظورة التي قلما تبلغ إليها الروح.

آه! إنني أشتهي ملعقة صغيرة من عسل الله، أو من عسل الفراديس الهانئة بصفائها الأزلي. أشتهي شراباً سماوياً له القدرة على التحلية والإنعاش. وأشتهي التحاماً أبدياً بكل ما هو يافع وغضير. وآمل أن يمكنني ذلك الالتحام من الاستمتاع بالأفياء والأنداء، ولو خلال برهة عابرة، ولكنها سعيدة أو مسرورة. فالفرح، وإن كان آنيّاً، هو إجازة من هذه اللعنة الفادحة الفاحشة التي تغلي وتفور في كل مكان على هذه الأرض الماحلة الجرداء.

يوم ظهرت على أفقي لأول مرة ظهرت السعادة والبهجة التي لا ينتجها شيء سوى الحب، ويوم ذهبت جاء الشقاء وحلّت

التعاسة التي لا يصنعها شيء سوى الحرمان. ولكن الإنهاك الذي سببه ذهابك لأعصابي الموهونة الراجفة قد تمكن من أن يحوّل الماضي إلى كابوس راسخ لا يريم، بل عتلني إلى سواء الجحيم بالضبط. نعم، أولجني غيابك في مركز جهنم وغمسني في نيرانها المتوقدة. ولكن نزوعي الدائم إلى الرؤيا قد استطاع أن يحوّل هذه الآلام وهذه العذابات المقيمة الحرون إلى ضرب من ضروب الشعر يشبه حفيف الشجر في ليلة نسيمها رخاء. وعندما نظرت بهرتني روعة السر، مع أنني لم أره قط، ولكنني لمحته من بعيد. فعرفت أذواقاً لا تؤخذ من الأوراق، بل لا ينالها إلا أهل الأشواق وحدهم. وإنها لهدية نفيسة لا تهدى إلا لمن كانت له صلة صادقة بك أو بواحدة من أمثالك، إن كان لك أمثال بالفعل.

فمما قد لا يفوتك، يا امرأة من سلام وسكينة، أنني لا أريد أن أمارس التفكير أو التفلسف، بل الكشف والرؤيا ومقاربة الأشياء بوعي الثمالة لا بوعي الدلالة. ومن هذا حاله فلا قيمة عنده إلا لما يسهم في جعل الأشياء تسيل وتتخلص من جمودها أو تخثرها الذي يعرقل حراكها الحي. ولعلك لا تجهلين أنني أحتقر شناعة طور الصناعة القادر على تجميد روح الإنسان، والذي لا يلوح لنا أي مخرج من بؤسه على المدى المنظور. ولهذا، أراني على الدوام في حوزة حنين صادق إلى خلاص يشمل البشرية بأسرها ويسبغ على الحياة العامة رائحة السعادة ومذاق العسل.

ففي الحق أن النزوع الراغب في الولوج إلى قلب السر السرير، أو المحجوب عن بصائر المحجوبين، قد خذلته الزكانة أو الطاقة الحدسية المستورة، فلم يتمكن من البلوغ إلى حيث أراد. صدقيني أنني، بفضل إخلاصي لك ولحبك المكنون في جوف روحي، قد سمعت السر يوشوشني أو يهمس في أذني من الأقوال ما يكاد أن يكون وحياً. وكنت آمل أن يصعقني وحي أصلي مثل ذلك الوحي الذي منح للأولياء، ومن قبلهم للأنبياء، ولكنني لم أتحمل الكلام الشديد الكثافة والباهظ الثقل، فظللت جامداً كالأصم الأبكم، لا أدري ماذا أصنع، كأنني مبدد مشتت، أو مفتت إلى فتات. ولكنني ما زلت حتى الآن مفعماً بالأمل والرغبة في أن الرؤيا سوف تنطلق من جديد، في ليلة صافية رائعة، وذلك لكي تؤوب إليّ وقد استردت جميع ما قد خسرته أنا من خسائر.

كاد حبك أن يأخذني إلى قلب المملكة السرية، أو إلى جوفها الرحيب، وأن يريني الشمس في منتصف الليل. ولكنّ هذا لم يتمّ إلا لمحاً، وذلك لأن ألم الفراق استهلك أكثر من نصف طاقتي، وأوشك أن يحوّلني إلى شظايا أو نثار، ولو بقيت إلى جانبي فجنبتني إهدار الطاقة في الآلام، لدهمني السر، أو لصعقني حتى أخرّ على الأرض مغمي عليّ. فلا يكفي أن أرى لك أرومة سماوية تشرّش في مركز المستورات، وأن أشهد بأن حبك ملاذ أزلي يشدني إلى الأعلى فالأعلى دون انقطاع، وذلك لتظهري

وكأنك تجسيد للقداسة على الأرض الدنسة، أو قبس صدر عن الروح العظمى، بل حتى عن سر الكون حصراً. فقد كان لا بد من أهبة الباطن لتلقي الصورة العليا، بكامل تفاصيلها وجملة شذراتها التركيبية المعقدة. وإنها لصورة سرية مستورية، ولا تفوقها أية صورة أخرى بتاتاً.

وعندي أن المرء إذا لم يبصر الحقيقة من داخله، فإن أحداً ما لن يستطيع أن يجعله يرى في أي يوم من الأيام، اللهم إلا أن يكون ذلك لماماً وحسب. إنها قوة الزكانة أو طاقة الاستبصار المزودة بمزّية الإلهام النفيس الذي يحبو به الحظ أولئك الذين اصطفاهم قبل بدء الدهر بكثير.

ففي الحق أن العوَز الروحي الذي أصابني فأفضى إلى خَور في الجسم والنفس معاً، وخفّض مستوى حيوتي وعرقل حراك شهيتي، لم يتيسر له أن ينشأ في باطني المضطرب العاصف بالصدفة الخالصة. ولكنني لا أرغب البتة في ترسيخ عقدة ذنب داخل نفسك الرقيقة المدمّثة. إنه القدر الموضوعي الصرف، أو الحركة التلقائية للأشياء. أجل، طبع الكائنات هو الذي هيأ لنا تلك الضربة القاصمة للظهر، أعني ضربة انشطارنا إلى اثنين، أو انفصال كل منا عن الآخر، أو لنقل ضربة الطلاق الذي سبق الزواج، بعدما كنا على موعد مع مسرّة أصلية تبثها قوة سرية صديقة لأرواح الأبرار، أو موالية لكل ما ينتسب إلى سلالة الطهر والبراءة. وعندئذ ارتطم المثال بالواقع، فلم أعد أبصر

غير بؤس وشقاء، فحرمتني هذه المشاهدة متعة الرؤيا الصاعقة. فمن البديهي أن الرؤيا لا تكون إلا إذا غادر النظر الأرض واتجه صوب البعيد. هذا هو ما جرى، يا امرأة من نور لا تمسّه الظلمات ولا تخالطه بأي حال من الأحوال. وهذا هو المصير الذي هندسه لنا طبع الأشياء. فكان أن تراجعت إلى الخلف، أو تقهقرت كالجندي المهزوم، بعدما بلغت إلى عتبة كهف الأسرار.

ولأن القدر الموضوعي الذي أسميه طبع الأشياء هو الذي دبرّ الأمور على هذا النحو الكارث، فإنني لا أريد لضميرك أن يجلدك بتاتاً. وأنا أعرف ضميرك الحي الشديد النشاط، كما أنني على يقين من أنه سوف يضربك بأغلظ عصيّه إذا ما اقتنعت أنت بأنك مسؤولة عن أيّ فعلٍ يضرّ بأيّ إنسان. ولهذا، أرجو أن لا تظني بأنك قد ارتكبت ذنباً يستحق أن تنشأ عنه عقدة نفسية من شأنها أن تعذب الوجدان.

ولكنني أود أن أصرّح بأنني قد صببت جلّ جهدي ومعظم طاقتي التي ظلت في حوزتي على المعضلة الإنسانية أو العالمية، وليس على السرِّ. وهذا هو السبب الثاني في الإخفاق والارتداد عن بوابة المستور. لقد كان لزاماً عليّ أن أقاتل على جبهتين في آن معاً، جبهة السر وجبهة الشر. فمما لا يخفى عليك أن معضلة الإنسان مضاعفة، أعني أن ثمة مشكلتين أمام عقل الإنسان، وتحتاج كل منهما إلى حل أو إلى استجابة مرضية. أما الأولى فهي مشكلة البؤس الذي يصنعه المال، وأما الثانية فهي سؤال الأصل الذي من شأنه أن يجعل سؤال المصير

شيئاً بديهياً حقاً. فمن أين جاء الكون وإلى أين سوف يذهب؟ أو لنقل: من أي مأتى جئنا وإلى أي مكان سوف نؤول؟ ولقد أجاب ابن عربي عن هذا السؤال بقوله: «من الظلام تتبع الصور، وإلى الظلام ترجع الصور». ولعله لا يقصد شيئاً سوى العدم.

إذن، كان قدري أن أعتل صليبي على ظهري طوال عشرات السنين، ولكنني لم أكن أبحث عمن يصلبني، كما فعل ذلك الخزاعي المهيب، لأنني كنت مصلوباً به سلفاً. وإذا لم تعلمي بهذا فتلكم مصيبة واحدة، أما إن كانت لك دراية بالأمر فلا ريب في أن المصيبة أعظم بكثير. فكيف أتحمل فراقك المنهك، مع أن لوجهك قدرة على الاجتذاب تبذ قدرة الشمس. وبينما أزعم أن مثنوية الجلافة واللطافة هي النسيج الكلي لروح الإنسان العام، فإنك أنت وحدك، دون سائر الناس، من يتصف بهيَف نجا من كل جلَف. وما من شيء في الدنيا إلا وهو دنيوي وعلوي في آن معاً، باستثناء وجهك الجليل أو ماهيتك الكريمة الآتية مما وراء المحسوسات. فأنت البراءة الناجية من كل شوب، أنت النجاة من كل فرق أو ضد. أنت البراءة التي لها جاذبية يوم ربيعي دافئ ومترع بالنضارة والبهاء. ولهذا السبب، أقصد لأنك أنفس من الماس والياقوت، بات من حقي أن أزعم بأنني تجرعت كأس الحسرة عليك مريراً كطعم الدفلى، بعدما غادرت هذه المدينة التي كانت فاتنة ذات عهد.

لقد انتزعت مني كما ينتزع الضرس من الفم، وذلك بعدما كنت القوت الوحيد لفؤادي العزيز في تلك الأيام الغابرة. ولشدة

لهفتي عليك، فإن روحي لا تنام قط حتى حين يغط جسدي في رقاد يشبه الغيبوبة. فروحي مشغولة بك ومنهمكة بهمك حتى أثناء النوم. فلئن كان الرقاد للجسد، فليس للروح شيء سوى السهاد الدائم، يا سيدة طالما أرّقتني في هدأة الليالي الدامسة. بيد أنني أتسامح معك إلى أقصى تخوم التسامح، ولا سيما إذا علمت بأن اهتمامك بي يضارع واحداً بالمئة من اهتمامي بك. ثم إنني كثيراً ما أسامح أولئك الذين يكرهونني، وأغفر حتى للذين أساؤوا إليّ، فكيف لا أسامح شخصك الكريم؟ وكيف لا أغفر هذا الإغفال، أو هذا الإهمال الذي تبدينه تجاهي؟ ففي مذهبي أن العاشق لا يملك أن يكون حقوداً لئيماً وغير متسامح، بل إن على المرء أن يختار واحدة من اثنتين: إما أن يكون سموحاً، وإما ألا يكون عاشقاً بتاتاً، وذلك لأن من طبع ظلام الحقد أن يطفئ لواعج الغرام. حقاً، إن اللؤم والحب ضدان لا يلتئمان في كبد واحدة. ثم إنني لا أستطيع النظر إلى البشر، حتى الأجلاف منهم والأوغاد، إلا بعين الرحمة والشفقة، وذلك لإيماني الجازم بأنهم جميعاً مأهولون بضعف من شأنه أن يجعل منهم كائنات يرثى لها.

وهذا يعني بالضبط أن على الهيَف أن يتحمل الجلّف.

بيد أنني أود التنويه بثلاثة أحداث لا أملك أن أتصالح معها بتاتاً: (١) ضياع الوطن، و(٢) ضياعك من بين يدي، و(٣) اضمحلال العبقرية منذ أواسط القرن العشرين، وعلى مدار العالم كله.

ومما هو صادق في ذهني أن البشر يتسوّسون ويصدؤون في هذه الأيام العجفاء، فيهجرون كل فعل أصيل باتجاه وضع نغيل. وهذه حال أهم بكثير من المصائب الثلاث الآنفة الذكر. وربما صحّ قول هاملت حينما صرّح بأن نسبة الأجواد إلى الأوغاد هي واحد بين كل عشرة آلاف. ولعل أهم ما في الأمر أن هذه الحال لا تقبل أي إصلاح بتاتاً، وذلك لأن «الحقائق لا تتغير»، كما قال ابن عربي في «الفتوحات المكية».

- ١٢ -

إنه لشيء مرهق أن يكون الإنسان عاشقاً ولهاناً، ولا سيما إذا كان عشقه بغير تلبية بتاتاً، وعلى الأخص في هذا الزمن اللامبالي والزاخر بالضجيج والفوضى. إلا أن الخلوّ من الحب حال لا أطيقها حتى لو كنت أعيش في الجنة، بل حتى لو تجاوزت المائة عام.

ومع أنني قد لُعنت بالفراق والحرمان من رؤية محيّاك الصباحي المشمس، ومع أن حبك مرهق أو منهك، أيتها المرأة التي تتمتع بلون الزيتون الأخضر، فإنني أكون قد فاتني خير كثير جداً لو لم أعرفك وأتولع بك إلى حد الهوس. فأنا على أتم استعداد كي استبدل بهذا العالم كله ساعة أمضيها إلى جوارك أو بالقرب منك، يا امرأة لها فؤاد من ذهب. ولسوف أكابد حسرة كاوية إذا ما كففت عن الاشتياق إلى وجهك الضاحي الكريم، أو إذا ما اقتنعت بأن حنيني قد خبا وآل إلى الفتور في أي يوم من أيام المستقبل. ولن يغيّر موتك من الأمر شيئاً، فإذا ما تمت وفاتك، وهذا ليس بالأمر المتعذر، فإنك سوف تظلين قابعة في مركز روحي، حية زاهية، بل أكثر حضوراً من جميع الأحياء.

فما من شيخوخةٍ تضاهي شيخوخة الفؤاد، وذلك لأنها الاسم الآخر للموت في الحياة، أو للشطر الخريفي من أشطار العمر، وهو الذي قد يخثر النفس أو يحوّلها إلى شيء بين الأشياء. فمما يلوح لي أننا نعشق لكي لا نتشيأ فنكابد مذاق الرماد وعطش الحاجة إلى الحيوية ونضارة النفس. كما يلوح لي مرة ثانية أنَّ للعشق مزيةً خلاصتها أنه يقنع المنتسب إلى شيعته بأنه خلية حية في منظومة الطبيعة، أو عضو في مجتمع الوجود الذي يجهل النهايات. ولهذا، أراني أشعرُ بأنَّ الحب بالضبط هو الذي اصطادني بشبكته فخلبني وسحر لبّي، ثم أدخلني في نحلته التي هي أرقى نحلة على الأرض. وهذا مما قد يعني أنني أحب الحب نفسه قبل كل شيء.

والآن، أيتها الزهرة الأرجوانية النادية، أيتها الوردة الحمراء القانية كاللهب المتأجج، إنِّي لأتساءل عما إذا كانت هنالك وردة تشبه فؤادك الطافح بحب لا يبلى إلا إذا بلي الزمان. كما أتساءل كرة أخرى: هل سنغوص في البؤس الآتي دون أن نبلغ إلى قعره الأشعث السحيق؟ ثم ماذا عن هذا الحنين الدافئ إليك، وهو ما قد ألهمني الشعر والرؤى، وجنبني الارتطام بالشائه والممرور، وجعلني أرى الشمس تسطع في منتصف الليل البهيم؟ إنه الشوق الموحي والقادر على تحريض العواطف والانفعالات التوّاقة والنازعة إلى الحميم الناجي من كل غمّ أو توتر. وهو شوق لا يتجه إلاّ إلى روح براءتها متألقة، بل

متوهجة راعشة أو متماوجة. ولهذا، جاز الزعم بأنه شوق من شأنه أن ينتج الذوق.

ففي هذا الزمن المهترئ، ما زال ثمة شيء يتلألأ بأصالة ماسيّة ويسطع في جوف الظلام الحالك، وما زالت هنالك كف قادرة على أن تبذر البذار في أثلام التربة الحمراء، وما برحت هنالك أرواح قادرة على أن تغتبط بالنور والهواء الطلق. ولكن هذا الشوق الحنون كثيراً ما يجيء على هيئة رياح عاتية جارفة تهب من القطب الشمالي حيث لا وجود لغير الظلام والصقيع طوال الشتاء. أما إذا قيّض لك أن تؤوبي من حيث تسكنين، فإن روائح مكانك الفردوسي الراهن سوف تفوح من ثيابك على نحو مسكر، وذلك نظراً «لقرب العهد بالدار» وحينئذ لن يكون هنالك سوى غرام ورغد ومسرة.

وعلى أية حال، فإنني سوف أظل أؤمن بأن الربيع الوارف الظلال لا ينبت إلا من صباحك الخاص. ولست أقصد ربيع الدنيا السنوي، بل ذلك الربيع الذي يخصني وحدي من دون الناس. وفي تخميني أنَّ العاصفة الربداء التي جرّفت فؤادك ذات يوم قد جعلتك امرأة ياقوتية تصلح تعويضاً عن كل خسرانٍ مهما يكَ باهظاً. والأهم من ذلك أنها نشّطت وعيك الدافق، وهيأتك لإدراك ما يعتور هذه الحياة من شر وبؤس وكآبة. وبسبب ما يأهلها من سلب شامل غامر، فإنه ليس في الميسور أن نستقطر منها غير قطرة فرح صغيرة واحدة. ومع ذلك،

فإنني لن أنصاع لهذا الشقاء الكلي الواسع الانتشار، بل سوف أظل أكافح لأحصل، بين الفينة والأخرى، على لقيمة من جمال أصيل لا يمتثل لإرادة الذبول. ولهذا بالضبط فإنني ما زلت أقرأ امرأ القيس واستمتع بشعره الذي يختص بنكهة لا أجدها عند سواه. كما أنني ما برحت أطالع المتنبي والمعري وابن الفارض وأتلذذ بأشعارهم التي ما زالت حية حتى يوم الناس هذا.

نعم، ثمة سلوانٌ عن هذه المصائب الهادرة الهوجاء، وهو الشعر والنصوص الأدبية بعامة، وكذلك منجزات الفن من كل نوع. وثمة سلوان آخر وهو شخصك الكريم، حتى وإن يك نازحاً إلى النائيات. ولكن، أيّ سلوان وأي عزاء يمكن له أن يعزيني بفقدي لك حصراً، يا أغلى الغاليات وأنبل النبيلات؟ وهل بقي في هذا العالم كله شيء تستحسنه العين من بعدك، أيتها السمراء التي أراها روحاً للوجود بأسره؟ لقد صرت أنت هويتي الداخلية، وصار فحواك لباب ماهيتي بالضبط، وذلك لفرط ما هجست بك، ولطول ما تفقدتك وحننت إلى رؤيتك المنعشة والمهدئة لاضطرابات نفسي. ولو نظر أهل الفراسة إليّ بإمعان لأبصروا صورة محيّاك مرسومة في باطن روحي لا تخفى على كل من يملك أن يحدس ويستبصر بيسر.

ولهذا، فإن كل خلية في بدني تتوتر من بعدك وتصخب مطالبة بحضورك الذي هو أسمى حاجاتي الوجدانية أو الذاتية. وحتى النسيم العليل في نوّار، نسيم المساء البلسمي الشافي من

الأمراض، كثيراً ما أشعر بأنه حزين وينطوي على خيبة تبث الكآبة في باطني المعكور، حتى وهو يهب من مروج سندسية موشاة بزهور من أصناف متباينة. وإنه الحزن القديم إياه، وهو الذي عايشه الإنسان منذ أن ظهر على الأرض لأول مرة قبل آلاف السنين. ولكن، عليّ أن أعترف جهراً بأنني أتذوق شيئاً من المتعة حين أمارس هذا الحزن الشفيف. ومع ذلك، فإنني ممتعض في الوقت نفسه، بل جد ممتعض، من أحزاني التي لا شفاء لي منها آخر الدهر.

وبسبب هذا الاضطراب الذي خلفه رحيلك المشؤوم، أو ذلك الأفول الذي لا بزوغ بعده، أراني أرفض فكرة مؤداها أن الحياة ما انفكت تدخّر الكثير من حلاوتها وطلاوتها وعذوبتها السعيدة، بل لعلها أن لا تدخر سوى بذرة صغيرة قابلة للإنتاش والنمو. وهذا يعني أن نقبل بمعايشتها كمأساة تحتم على الإنسان، في المآل الأخير، أن يخفق ويدحر إلى الخيبة المتوضعة فوق هامش صقيعي تعوزه الغضارة والنضارة وحسن الحال. وهذا هو المحتوى الصميمي الذي يملأ معلقة عبيد بن الأبرص، فيجعل منها كنزاً من كنوز الوثنية وعصورها الغابرة. ولقد ذكّرتك بتلك المعلقة في ما سلف من هذه الرسالة، وأشرت إلى أننا قرأناها معاً وتمتعنا بقراءتها كثيراً.

وليس ثمة أية تعويذة أو رقية يمكن لها أن تحرر البشرية من مصير قاسٍ كهذا المصير، اللهمّ إلاّ أن تكون اللامبالاة التي لا

يقوى على ارتكابها إلا البلهاء والمعتوهون، والتي لا تثير في نفسي غير الشعور بالقشعريرة. فكلما تلهبت قوة الخلق والابتكار وأوغلت في الرهافة والحسّاسية، صار الحياد متعذراً أكثر فأكثر، بل صار الانخراط في لجة الأشياء أمراً محتوماً لا حيدة عنه. وكيف لا ننخرط في اللجة، أنت وأنا، مع أننا ننتسب إلى شعب يتخذ من آلامه وقوداً لحركته فوق سطح الزمان الذي لا يمارس علينا غير التدجين والتهجين. ومن شأن هذه الحقيقة أن تدفعنا إلى التساؤل عن حقيقة السعادة وصحة وجودها. فالانخراط في اللجج هو التوتر، والتوتر نقيض السعادة التي لا أراها إلا استرخاء وهدأة بال.

- ١٣ -

لا براءة بغير عذوبة، ولا سعادة بغير براءة. فالعذب وحده البريء، والبريء وحده السعيد. ولكن، من أين تجيء العذوبة في هذه الأجواء الموغلة في الشدة الغاسقة والاستفزاز المسعور، وهما اللذان لا ينتجان شيئاً آخر سوى الموت والخراب. وكيف يسع البراءة أن تعرف دربها إلى هذه الدنيا مع أنها الخلاص من النقيض. فمما يلوح لي أن جذر المصيبة هو المثنوية التي من طبعها أن تجعل الصراع محتّماً، بل بديهي الوجود، وأن تؤكد حق الظلام والمرض والدمار في الكينونة إلى جانب النور والصحة والعمار. فالحال الموسّطة التي يصنعها الفجر، أعني حقيقة الغبش الذي يتمازج فيه نقيضان، هي وحدة تجمع الليل والنهار في برهة تركيبية واحدة. وأهم ما في أمرها أنها لا بد منها ولا محيد عنها ليجيء النهار إلى الوجود. حقاً، إنها شرط يمهد لشروق الشمس، ولا غنى عنه بتاتاً.

ثم إن المثنوية هي السمة الأزلية للأشياء، فلقد أصاب ابن عجيبة الحسني حين قال في «شرح الحكم»: «بني العالم على سر الازدواج». وفي الحق أنه ما من شيء يملك أن يضير الكائنات بقدر ما يضيرها وجهها الآخر، أو جانبها الثاني

المعاكس لما هي عليه، والملحف في المطالبة بحقه في الوجود والاستمرار. ولهذا، فإن في الميسور الزعم بأنه لا نصر ولا هزيمة بتاتاً، بل صراع ديمومي خالد لا يحول ولا يزول. ولهذا، كان لا بد من أن تهرس بعض الكائنات هرساً تحت آلة الحركة، وكان من الطبيعي أن ننشطر، أنت وأنا، وأن نكابد دون أن يأبه بنا أحد. وهذه الحال هي بالضبط إحدى نتائج التناقض أو التضاد.

فلولا المثنوية، لولا أن تشكم الأضداد بعضها بعضاً، لما كان لهذا الكون أن يكون بتاتاً. فلولا الحرارة، مثلاً، لاستطاعت البرودة أن تجمد الكائنات وتحولها إلى جليد. ولولا البرودة لاستطاعت الحرارة أن تحرق العالم وتحوله إلى رماد. وربما كان هذا التشاكم المتبادل هو سر الازدواج الذي تحدث عنه ابن عجيبة الحسني .

أيتها المرأة الملكية الهانئة بصفائها الخاص وبراءتها الناجية من كل نقض، إن فؤادي ما زال يستمد القوت من صورة عينيك التي هي منهل روحي. ولقد حذرني ابن الفارض حين قال: «واحذر فتنة الدعج». ومع ذلك، فإنني لم أحذر، بل انخرطت في لجة الفتون. ولكن المثنوية التي يتمتع بها لونك الأسمر، وهو الذي يدغم جمال البياض، أو النور، بالعمق الذي يتمتع به الظلام، هي مصدر نفع وليس مصدر ضرر. إنه امتزاج لنقيضين بينهما مسافة كالتي بين القطب الشمالي والقطب الجنوبي، أعني الأبيض

والأسود. لهذا، فإن لونك الأسمر برزخ يتوسط بين حدين متضادين. وبهذه السمة الجميلة استطاع أن يسهم في تحويلي إلى عاشق لك على نحو ديمومي، أو تمكن من أن يكدنني تحت نيرك المنهك، والذي لا أملك، في الوقت نفسه، أن أعيش من دونه قط.

فلو شربت جميع مياه العالم لما ارتويت إلا إذا تذكرت صورة عينيك ونهلت منهما النور الضروري لروحي المرتبط بذكراك ارتباط الطفل الغرير بأمه، لا يرضى عنها بدلاً. لقد لثم ابن الفارض لثام المرأة المثالية أو الأسطورية التي أحبها، كما جاء في قصيدة ميمية له، فهل تسمح لي الأيام بأن ألثم لثامك قبل أن يزيل الزمن هذا الرمق الأخير الذي ظل ينبض في صدري حتى الآن، يا من سوف تشفعين لي يوم البعث والنشور.

ولكن، أما تشعرين اليوم برهاب أشدّ هولاً من رهاب يوم القيامة؟ أما ترين رعباً فاشياً في كل مكان على الأرض، يا امرأة من نسرين وياسمين؟

أما أنا فأشعر بأن كل شيء يطلق عواءه أو نباحه الصاخب وكأنه قد أزمع أن يفترسني عما قليل. وفي رؤيتي كذلك أن الخوف يتخلل مسام الأشياء برمتها، ويهسهس في شقوقها وفجواتها، ويفرض نفسه بوصفه قوة تستطيع أن تزلزل نظام النفس، أو تحول بينها وبين الطمأنينة وهدأة البال. ومع أنني لا تعوزني الرغبة في الاعتزال المنتج الخلاق، ومع إيماني بقول ابن عجيبة: «العزلة كالحمية»، تقي المرء شرور الأنذال

وتحجبه عن الأوباش، فهي كالحرز الذي يحرزك من كل شر وعدوان، ومع إيماني بعدم وجود صداقة إلا بين الأطفال والمراهقين، وذلك لأن التنافر يضارع الانسجام أو التجانس، مع هذا كله، فإنني قانع بأن التوحد لم يقدم حلاً يملك أن يقيني شرور التوتر الناشط في الحياة الحديثة العارمة بالحراك والموّارة بالخبث والخداع والأكاذيب.

فالرعب، أو الخطر، يستطيع أن يقتحم البيت على المرء في هذه الأيام العسيرة، وأن يسبب له من الأذى ما لا يتوقع، فضلاً عن أنه قد يفرّخ ذرية طويلة وعريضة من المصائب الفادحة. ولست أرى أيّما شيءٍ يملك أن يطهّر النفس من أدرانها، أو من توترها الرهيب، أو أن يجلب لها الصفاء النيرفاني المأهول بالنشوة، بل إني لأجهل كل ما ينتمي إلى فصيلة المطهر في هذه الدنيا المضطربة القلقة. ولكنني أجنح إلى الذوبان في لذة روحية قد لا يتيسر لهذا العالم المحكوم باللعنة المادية أن يجعلها ممكنة، ولو لماماً. ومما هو صادم حقاً أن المرء، حين يطلب البكارات الزاغبة، لا ينال إلا السعالي أو الحشرات والرخويات، وحين يبتغي الإخاء لا يلاقي سوى العداء.

ولقد زعمت الصوفية أن الصدق في الطلب هو الشرط الشارط للحصول على المطلوب. ولكن، أصحيح أن الصدق في الطلب يفضي إلى تحقيق المراد إفضاء حتمياً، أم أن ذلك وهم، لأن المطلوب لا ينال إلا إذا توفرت شروط الحصول عليه؟ وربما كان الصدق في الطلب كافياً للبلوغ إلى الهدف يوم كانت

الدنيا في الريعان، أما اليوم، فإن في الواقع من التشنج والعسر ما يجعل تحصيل المراد أمراً لا يتحقق إلا على ندرة وحسب.

ومما أراه شاقاً جداً أن تتمكن الروح، وهي المغمّسة في حمأة هذا التوتر الناشب، والشبيه بأمواج اللهيب، من مغادرة هذا الشعور المخيف صوب ذرى تتسلقها نحو العلاء المنشود والمجاور للملأ الأعلى الهانئ بكماله الخاص. ولهذا، لست أرى البتة أيما محيد عن تكبد خسران باهظ التكاليف، وفي المستقبل المنظور. فقد لا تكون هنالك أية فطنة تستطيع أن تشق درباً صوب الأمن والهدوء بعد اليوم، وإلى أجل غير مسمى، وذلك لأن الواقع تيبس واستعصى وخسر مرونته المطاطية التي كانت له في الماضي، والتي ظل يحتفظ بها إلى عهد قريب.

لقد ولى الزمن الذي كانت جميع أشيائه تتأنث أو تتأنق. (هل تذكرين ولعنا بالاشتقاق وفقه اللغة العربية؟) وأحسبك تذكرين كيف كان كلّ شيءٍ أنيساً أو أنيثاً مدمثاً يعامل الناس بسهولة وليونة. لقد كان ذلك كله فيما مضى من زماننا. أما اليوم فإنني أسمع كل شيء يزمجر ويدمدم ويشحذ أسنانه. رحماك، يا سلطة المستور الخفية. رفقاً بأطفال الناس، على الأقل.

فليشهد كل من يستطيع أن يشهد على أنني أفضّل أن أموت قبل أن أرى سوريا وقد أصابها أي ضرر جسيم أو نزلت بها أية مصيبة عظيمة. إنها سوريا الجميلة، بلد الصبايا الملاح والمواطنين الكرام، الذين آوونا وأحسنوا إلينا أيما إحسان. لقد

صدق ذلك الشاعر الصوري الذي كتب باللغة اللاتينية، حين قال: «من العجيب أن تشعر بالغربة وأنت في سوريا».

وربما جاز لي أن أزعم بأن خوَر الذهن هو الأس الذي شطأ منه هذا الدمار بأسره. والأهم من ذلك كله أن إدارة الظهر للشر، أو السلوك إزاءه كما تسلك النعامة إزاء الصياد، شرّيرها الخاص، هو أخطر خوَر يعيشه الإنسان المسكين. فمن المحال أن تكوني عاقلة، أيتها المرأة اليانعة الرائعة، وأن تبصري الحب، ولكن دون أن تشاهدي الكراهية والشرور وهي تعرم وتستطير في كل أفق وناحية. فمما يلوح لي أن الآفاق بأسرها مسدودة بالظلمات، وأن دماء حمراء قانية سوف تسيل في كل مكان. فالإشكال مزدوج: سر وشرّ في آن واحد. ومع ذلك، فإن قطرة الضوء المستتبة في سريرتي دون أن تتزحزح أو تترجرج، هي من صنعك ومن فضلك، أيتها المرأة المنسوجة من خيوط الشمس الذهبية.

ولعل الأمر أن يتخلص على هذا النحو: ليس علينا، أنت وأنا إلا أن نعيش الروح وفي الروح ومن أجل الروح. أما بقية البشر فلا نستطيع أن ننقذهم من هذا الرماد الذي يتمرغون فيه. ويبدو أن البشرية لم ترشد بعد. ولأنها لم ترشد، أو لم تنضج، حتى الآن، فإنها لا تملك أن تنقذ نفسها بنفسها. وما لم تنقذ نفسها بنفسها فلا خلاص لها، على ما أرجح.

وهذا يعني أن وجود الشرّ لا يجوز له أن يمكّن السياسة من أن تنطلي على أحد بأحابيلها وأكاذيبها الزائفة المخادعة المراوغة. فيا طالما مارست السياسة غشاً على أرواحنا الطرية، ويا طالما عاثت فساداً بعقولنا الخضراء، وذلك لأن الفساد يلازمها ملازمة الموت للحياة، بل يحايثها بوصفه عنصراً ديمومياً من العناصر التي تسهم في تركيب بنيتها المخيفة. حبذا، إذن، لو نقلع صوب الفنون، ودون أن ننظر إلى الخلف إلا لماماً. فإذا ما التقينا ذات يوم، فإننا - على الرغم من الشيخوخة - سوف نغني بفرح ومرح، كما اعتدنا أن نفعل في غابر الزمان.

أيتها المرأة الربيعية الدائمة الاخضرار، مثلما يجدد القمر نفسه بنفسه، فإن صورتك تجدد نفسها في مخيلتي ودون انقطاع. ولهذا، أراك تجهلين كل عسف وصلف واستبداد، وتلهمينني حقيقة فحواها أن التنفس يضطرب، بل يصير عملاً نافلاً وبغير قيمة، وأن سكوت القلب يغدو أفضل من وجيبه، عندما لا يبقى للحياة أي هدف أبعد من التنفس. حينئذ لا تترسب من مجد العيش سوى فتيتة لا قيمة لها. وفي الحق أن من كان ذكياً لا يحتاج إلى شرح، لأنه يدرك الحقائق من تلقاء نفسه، وذلك بفضل تلك البوصلة الراسخة في مركز الذهن، والتي تتجه دوماً صوب موضع الحقائق. ولعل واجبي أن أبيّن ما فحواه أنني لا أفهم شيئاً فهماً عميقاً إلا إذا وجدته سلفاً في سريرة نفسي. ولهذا بالضبط، فإنني أحترم أولئك المأهولين بقوة الاستبصار والحدس،

والذين لا عمل لهم قبل سدانة الحقيقة ذات الطابع الوجداني أو ذات الطابع الغنائي.

بيد أن العيش من أجل الروح لا يملك البتة أن يخفف حسرتي عليك وعلى وجهك المفقود، بل هو لا يسعه أن يؤثر عليها قليلاً أو كثيراً، وخاصة بعدما استنزفت طاقة الذهن وأرغمته على الهبوط إلى ما دون مستواه المألوف، وأولجت فيه عجزاً كان من شأنه أن رمّد نصف طاقته، أو حتى ما يزيد عن ذلك. وبهذا الترميد لنصف الاستطاعة الفعالة استحالت الحسرة إلى لعنة لا تهجع، أو صارت قوة تثبيط وتهويش فتاكة. فصارت العين موهونة حتى ما عادت تحملق إلا بمشهد شاغر، وذلك لأنّه محرومٌ من أيّ غمام يسبح فوق الهضاب والآكام. وإنه لمشهد لا يحتوي على غير السهوب الجافة والقفار الجرداء الخالية من كل دوح أو أيك، والتي لا يخترقها أي نهر، حتى وإن لم يزد عن كونه جدولاً ينساب بين الرمال، فينعش ولو شطراً صغيراً من الموات الفاشي في هذه البراري والصحاري المنداحة على مد البصر.

أجل، إن الحسرة الطويلة الأمد شلل يصيب الشخصية ويملي عليها كساحاً قد لا تشفى منه إلا بعد مدة طويلة، ولكنها، على ما يحتمل، لن تشفى من سقمه بتاتاً. وربما بالغت وصرّحت بأن للحسرة قدرة على انتزاع الخضاب من الدماء المتدفقة في الشرايين. ولكن ما هو جد مؤسف أنَّ الحسرة قدرٌ ضروريّ يحتمه طبع الأشياء، وذلك لأن أعزّ الرغبات على الفؤاد لا تقبل التلبية، وقد لا تنال إشباعها في أي يوم من الأيام. وإننا

لمحرومون من إمكانية الاندفاع وراء ما لا ينال ولا يطال، أو وراء ذلك العنصر النفيس، ولكن الزئبقي أو الحرون والشديد القدرة على المخاتلة والمراوغة دون كلل أو ملل. وإنه ليروغ كما تروغ الثعالب، فلا يلبي إلا نادراً، وقد لا يستجيب أية استجابة مهما يك نوعها. ولهذا، فإنه لا يترك خلفه إلا ظمأ أو جفافاً على الشفاه وعلقماً في جوف الثغر الناشف. ولكن الاتصال بك، يا امرأة من زهور وشذى، هو أوغل في التعذر والاستعصاء. فأنت ترخمين في أقصى الأقاصي النازحة، يا أعسر الأمور العسيرة، ويا أكثر الكائنات عزة ومنعة في هذا العالم الحرون. ترى، هل من تلبية لحنين هذا الفؤاد المعذب المشوق؟

ما أحوجنا اليوم إلى إلهامٍ قادرٍ على أن يسترد الحياة من تدهورها المريع، وأن يضع النفس في حراك يتجه نحو السعادة الأصلية التي يمكن لها أن توحّد المرء مع نفسه، فينجو من مثنوية الوئام والخصام الداخليين. ولعل في السداد أن يقال بأن هذه النجاة قد تؤهل المرء كي يلمح ذلك العنصر النفيس الذي من شأنه أن يعمق الشعور بالحياة. ولئن حدث هذا فإنه يكون قد نال غنيمة لا تشتريها أموال الدنيا بأسرها، وذلك لأنه يتأهل للصعود إلى ما هو أرقى من كل تضاد. فمن جاز إلى الما بعد نال من الخير ما لا يحصى ولا يعد. وهذه هي الصوفية في أسمى مستوياتها.

ولكن هذا المذهب المعد للتغلب على كل تناقض أو اختلاف، لم يقدّم، على الصعيد الإجرائي، أيما علاج يملك أن يحذف كل

مثنوية أو صراع. فلا يبقى في التجربة العملية سوى خصام خالد لا شفاء للأرض من شروره الجسام، إلا إذا كفت الحياة عن وجودها الفوّار. فالنفس الساعية وراء الهناء قلما تنال شيئاً آخر غير البؤس والشقاء. ولهذا، صار من حقك أن تصرّح بأنه عالم منكوس هذا الذي نحن فيه. ولا أدل على ذلك من أنك تطلب السمان فلا تنال سوى العجاف، اللهم إلا ما ندر. ولعلك أن تحالف السداد إذا ما صرحت بأنه عالم من أجل الافتراس وجميع أصناف العدوان.

ترى، هذه الغمة التي تغمنا في الأيام المدلهمة الراهنة، هل سوف تنجاب عما قريب؟ هل لديك إجابة، أيتها المرأة التي أراها المصبّ الوحيد لحنيني النافد الصبر؟

ولكن الإنسان، دون مراء، عاشق بحكم طبعه البدئي أو الأوليّ، ما لم يكن في قبضة الظلام أو في حوزة السقام. فكما قال الشاب الظريف: «واشرح هواك فكلنا عشاق». حتى الذي لم يعشق في الجهر والعلانية هو عاشق في سره الصامت التوّاق إلى ما يؤنس أو يرضي. فما من أحد يملك أن يقاوم سطوة الجمال إلا الممرور فقط. ولكنّ بغية المرء التي يتماهى معها بحيث تتبطنه من الداخل، تنطوي دوماً على توتر وإنهاك، لا لأن الحصول عليها أمر عسير وحسب، بل لأنها تجعله يصبو إلى الديمومة واللانهاية، وذلك في عالم لا يعرف غير الآنية والحضور الموقوت والمندفع صوب الاضمحلال والزوال. وإني

لأتساءل عما إذا كنت اليوم ترين هذا العالم مهولاً مرذولاً يتأجج فيه الجنون أو الذهان، أم هو في نظرك ما زال بنية مأنوسة مقبولة، يمكن للروح أن يتكيف معها أو يتصالح. فأنا أجهل آراءك لأنني لم أسمعها منذ زمن بعيد. أما زلت تتمتعين بالرأي السديد، يا سيدة السيدات جميعاً؟

وأيّاً ما كان جوهر الأمر، فإن زمن الصناعة هذا، وهو زمن انحطاط لا يخفى على الألباء، قد أفسد كل شيء تقريباً، بل جفف اليخضور الذي كان مبثوثاً في أنسجة الحياة، وخلف عالماً متليفاً لا طعم له ولا مذاق. ويكفيه خزياً أنه اخترع التلفزيون الذي لا أراه إلا علامة اتضاع في مسار التاريخ، وذلك لأنه زوّد الطغاة بجهاز فعال جداً وقادر على نشر جورهم وعسفهم في البلاد والعباد. أضيفي إلى ذلك أنه منذ ظهوره على الأرض أخذت الفنون والآداب والفلسفات بالتلاشي التدريجي، حتى لم يبق منها سوى رسابات تشهد على ماضٍ عريق. ولا عجب في ذلك، فقد برهن هذا الجهاز التافه، ولكن النافع كثيراً لأساتذة الغوغاء، بل لمن يهندسون الغوغائية وضحالة الأمية المقنّعة أو المستترة، على أنه صنف من أصناف الأفيون. ولكنه، للحقيقة، صِنفٌ خاصٌّ جداً يتخدر به معظم البشر في كل مكان على سطح الكرة الأرضية.

إذن، هزم الإنساني الراخم في سريرة الإنسان أمام المنجزات التي أنجزها هو نفسه في هذا الطور التاريخي المشؤوم الذي قد

يوهم بعض المغفلين بأنه خصيب أو عظيم، مع أنه في حقيقة أمره، بائس حتى مخ العظام. فلقد استطاعت الصناعة أن تمدّ الجريمة بجميع الأدوات التي تلزمها وتجعلها ممكنة التنفيذ. ففي الكثير من أقطار العالم، ولا سيما في بعض البلدان العربية، تصهل المذبحة صهيل الجياد الجامحة الرعناء. وهي من الشناعة والفظاعة بحيث يجفل منها القلب، حتى وإن كان قاسياً كالصوّان. وإنها لتنطوي على جلافة البداوة التي تلازم النفس البشرية، حتى وإن زعمت أنها بلغت أوج الحضارة والرقي.

- ١٤ -

أيتها المرأة السندسية اليانعة، يا امرأة لا تبذها أية زهرة من الزهور الأرضية أو غير الأرضية، حتى وإن تكن تلك الزهرة الخرافية التي لا تذبل بتاتاً، أيتها السعادة التي لا تنال ولا تطال إلا في الأحلام وحدها، لقد انتظرتك طويلاً عسى أن تفيئي إلى نفسك فتدركي أنْ لا بد من الاستقرار إلى جواري على نحو دائم أو ثابت، مادمت على قيد الحياة، فتهجري كل شيء ثم تهرعي إليّ راكضة لا تلوين على أي كائن من الكائنات. ولكن وجهك ما لاح على أفقي بتاتاً، فلم أحصد غير الخيبة واللاجدوى في نهاية المآل.

ولهذا فإنني كثيراً ما تدهشني قدرتك على تحمل هذا الفصال الطويل وما يفرزه من لوعة لو نزلت على جبل لتهدم من شدة وطأتها وثقلها الفظيع. وفي تخميني أنك تكابدين الحسرة والندامة على ما فات، ولهذا فإنني أستهجن سكوتك على ما يستوطن في كبدك من آلام وأوجاع. ولكنني قانع بأنك نفس جبارة تملك من القدرة على الصبر والجلد ما يملك القديسون. ولا أحسبك قد شكوت لأحد ما تعانين من سوء حال، ولا عرف أي امرئ شيئاً يخصّ ما يجنّه فؤادك من هوى ورثه الزمن الراهن عن زمن

غابر ولى منذ عشرات السنين. وإنني لأجنح إلى الظن بأن شعلة الغرام ما فتئت تمارس التوقد في سريرتك حتى اليوم. أقول هذا مع أنني لم أرك منذ أربعين سنة على وجه التقريب، بل لا أدري ما إذا كنت ما زلت حية أم لا.

أما أنا فما برحت أتنسم ريح الصَّبا علّني أشم رائحتك ممزوجة بفوح الياسمين، أو البياض الذي ينجبه الاخضرار. فأصيخ السمع لهمسها حين أكون في مكان يبعد كثيراً أو قليلاً عن العمران والازدحام، وألمس نسيجها الحريري اللدن الذي علمني اعتماد المرونة في الحياة العملية، ثم أشحذ أنفي لعلي أشم رائحتك الخاصة التي أقدر على تمييزها حتى وإن امتزجت بألف رائحة من الروائح المتباينة، أو جاءت من وراء البحار السبعة المحيطة بالأرض.

ولقد صرّحت للكثيرين بأنني عشقت فتاة قلبها من ذهب، بل كتبت ذلك للنشر، ولكنني لم أذكر اسمك المقدس لأحد بتاتاً. لقد اعتاد الناس في مصر الفرعونية أن يحجموا أو يتورعوا عن ذكر اسم «أوزير»، رب البؤس البشري، فلا ينطقون به جهراً على ألسنتهم، بل يكتفون بأن يلمّحوا إليه تلميحاً، وبطريقة من الطرق الخاصة بذلك التقليد. وإنني لأفعل الفعل نفسه حين أريد أن أذكر اسمك، فأكتفي بأن أقول «السمراء» في كثير من الأحيان. فكوني على ثقة بأنني سوف لن أذكره لأحد بتاتاً، وذلك لأن ذكره صريحاً قد يسيء إلى سمعتك، يا سيدة الطهر والطاهرات.

وأما أنت فلا أحسب أنك قد تجرأت فقلت بأن رجلاً ما قد استهواك ذات يوم فاجتذبك فملت إليه، ولو ضمن دائرة الكلام وحدها. فما زرت قط إلا في الخيال، أو في المنام وكفى. ولست أطمع بأكثر من ذلك، ولا أبغي وراءه أية بغية. وفي الحق أنني أعوّل كثيراً على زيارتك في المنام أو في الأوهام. وإنها لصور وحسب، صور قد تؤشر إلى الفعل من بعيد، ولعلها أن تكون صداه الخافت أو الخفيض. ولكنني بهذه الصور الغالية على فؤادي أقتنع بأن الوجود صلة أو علاقة بين اثنين، أحدهما عاشق والآخر معشوق، بل إن كلاً منهما عاشق ومعشوق في آن معاً. ويجوز الزعم بأنهما شائق ومشوق، وإن تكن تلك الصلة لا وجود لها إلا في الوهم أو في الخيال. ومن شأنها أن تهب الكينونة قيمة لا تهبها لها جميع الانتصارات التي أحرزها الجنس البشري في جميع الميادين دون استثناء.

وأخال أنه مجتمع جائر هذا الذي يخوّل الرجل حق التصريح، ولكنه يحرم المرأة حتى من حق التلميح. ولسوف تندلع القيامة ثم لا تنطفئ لو نوّهت تنويها بأنك تميلين، تميلين فقط، إلى رجل من الرجال. فكأنك بغير حقوق بتاتاً. ولكن الجميع يطالبونك بألف واجب على الأقل. وهم ينسون ما فحواه أن من لا حق له لا واجب عليه، بالبداهة.

* * *

صدقيني إذا ما زعمت بأنني ما شممت رائحة زكية قط خلال السنوات الخمسين الأخيرة إلا تخيلت أنها تحيّة منك ترسلينها إليّ على البعد والنوى. وصدقيني إذا ما زعمت كرّة أخرى بأنني أستعذب عذابك مثلما أستعذب الماء الزلال حين أتناوله على ظمأ شديد. ولعلني أتمنى أن أتوجك بيديّ ملكة على جميع الحسناوات كافة في هذا العالم الذي سوف يخسر نصف جماله يوم يخسرك أنت حصراً. ويا لها من خسارة سوف يتكبدها على كره منه وهو كظيم.

ولو أنني استهلكت اللغة بأسرها في وصف شمائلك ومحاسنك، فنفدت جميع مفرداتها وطاقاتها التعبيرية، لبقيت فيك من الحسن معان لم تصل إليها الكلمات في أيٍّ يومٍ من الأيام. ولا أرتاب لهنيهة واحدة بأن معانيك الخفية الكثيرة سوف تظل تحثني على أن أصبو إليك ما دامت أنفاسي تدخل إلى صدري وتخرج منه. ولكنني سوف أتحمل آلام الصبوة وأطيقها، على شدة تبريحها وما تلحقه بالضلوع من أذي ليس باليسير. ففي الحق أن بي فاقة إلى فحواك النفيس، يا امرأة من سكينة وهدأة بال. ترى، هل في الإمكان أن يكون لحياتي أيّ معنى من دون فحواك النفيس؟ وما دام هذا الأمر غير ممكن، فإنني سوف أظل أواظب على إفراز الحنين الممتزج بحزن كئيب يشبه الدنف أو السقام.

وكثيراً ما يخطر في بالي أنك لست سوى صورة وهمية لا وجود لها إلا في خيالي وحده. ولكنها صورة من ماس وياقوت،

أو من لآلئ نفيسة لا تبذ. والأهم من ذلك أنها منعشة إلى حد الإحياء أو الاسترداد من تخوم الموت في بعض الأحيان. ثم إنك صورة أو أخيولة مهيّمة، لا تشبه إلا تلك الصور التي ترى في الأحلام أو في الأوهام. وأنّى للمرء أن يصادف هذه الصورة في أرض الواقع والفعل؟ فأنا حين أتغزل بك إنما أتغزل بحقيقة مسرّحة لها سمة العلو المطلق. وإنها مهيّمة نائية تكنز جمالاً يتوهمه العقل ولا يملك له أيما تحديد. ففي ميسور الكائن المجسد أن يتحول إلى طيف أو إلى صورة، ولكن كيف يتيسر للطيف أن يتحول إلى كائن مجسد؟ هل لديك جواب عن هذا السؤال، يا امرأة أنوء بهمها كما ينوء جمل بحمل ثقيل؟

ولكن، ما جداء صورة لا تقبل أن تستحيل إلى كائن فعلي محسوس. ألها من وظيفة غير التلويع والتعذيب؟ أجل، إن لها وظيفة أخرى، وهي إشعال الكلف واللهف في جوف الفؤاد، فيستتلي ذلك إغداق الأهمية والقيمة على الحياة. فلئن كان لهذا الوجود من لباب فهو تلك الصورة الغرامية الراخمة في بؤرة الخيال لا تريم. وههنا بالضبط يكاد الذهن أن يلامس سر الأشياء. فمما يلوح لي أن الوصال هو المقولة المحورية بين جميع المقولات التي تخص الروح. وتأتي أهميتها من كونها أقدر المفاهيم على مواجهة العزلة والاغتراب في آن معاً. ولا ريب في أن هذا الاكتشاف هو واحد من التعويضات الكبرى التي أنالها عن غيابك الطويل.

وأتمنى أن أكون صادقاً إذا ما ادعيت بأنني أستشعر أحيانا نشوة نبيذية حين تمر صورتك في البال أو في الخيال، ولو على نحو عابر أو سريع. ومع أنها نشوة تنتجها صورة وهمية لا وجود لها قط، فهي في شعوري خير خمرة يمكن للإنسان أن يخبرها أو يمارسها في الوهم أو في الواقع، سيان. ولست أزعم أنها من فصيلة تلك الخمرة التي قاربها ابن الفارض وسكر بها حتى الثمالة قبل أن تخلق أشجار الكرمة نفسها، ولكنني أزعم بأنها تزيدني هياماً بك وشوقاً إلى «غرتك الغراء»، يا امرأة منسوجة من شعاع القمر حين يكون بدراً.

وربما كانت هذه النشوة هي التعويض الأول الذي أكسبه من غيابك المرير، أو لنقل من انّدياح المسافة الفاصلة بين الهنا والهناك. وهذا الانّدياح هو أكبر غم يغمني في هذه الدنيا التي لا أرى لها أي كنه أو أي لباب من دونك. وفي زعمي أنها نشوة أنتجها الحرمان والفصال والشوق إلى الغائب المنشود. فالشيء ينجب نقيضه، يفقّسه، في بعض الأحيان. أما رأيت كيف تنقلب الصحة إلى مرض والشباب إلى شيخوخة؟

ولست أتكلف هذا الكلف بك، أيتها النازحة إلى أقصى المنافي، ولو كنت أتكلفه أو أصطنعه اصطناعاً لما برّح بي وأضناني على هذا النحو البائس الكئيب. فبينما تعلوني صفرة فاقعة دوماً، ويلفني ذبول خريفي لا يحول ولا يزول، فإنني لا أخالك إلا مخضلة ريانة وغضيرة البدن، وإلا مغمّسة بالزرقة

السماوية المطلولة من الأفق الأيمن إلى الأفق الأيسر. ولهذا أراني قانعاً تماماً بأن سلطة الجمال هي التي ولّتك أميرةً عليّ إلى أبد الآبدين. فمما هو مقبول أن جميع السلطات لا تحتل إلا ما يحيط بالمرء، أعني جانبه الخارجي، أما سلطة الجمال فتحتل الإنسان من الداخل. ولئن لم تستتبّ صورة جميلة في السريرة فتحتلها عنوة، فإن الحياة تختل، أو هي لا تكون على ما يرام.

وبالبداهة، فإن بعدك عني هو ما يؤجج الشوق في وجداني المحْزون. ولكنه في الوقت نفسه يجعل لحياتي معنى ليس بالضئيل. ولولا أن تحوزي بعض المناقب والسجايا الرائعة، لما استطعت أن تجتذبيني إلى هذا الحد المضني. فبُعدك من جهة المكان هو قربك من جهة الجنان. وربما بالغت إذا ما قلت بأنني لا أراك إلا بما يشعه محياك من أنوار في سواء الظلمات الحالكة، ومن وراء المسافات الفلكية، ولكنني أحب أن أزعم هذا الزعم لأنه لذيذ وحسب. فهل من سبيل إليك في مملكة الحدثان، يا امرأة قرّت بها العين وحنّ إليها الفؤاد حنين طفل إلى أمه التي أبعد عن حضنها الدافئ الهنيء.

* * *

ترى، هل من الأنسب لي أن يصطادني شرك هذا الهوى الملوّع، أم أن أفلت من حصاره إلى أبد الآبدين؟ إنه لسؤال محيّر لا تتيسر الإجابة عنه بسهولة، لأن النقيضين فيه

متعادلان. فالتورط في هذا الغرام، في سورته واحتدامه، هو ضرب من ضروب البؤس. ولكنه بؤس له متعته وبهجته وسعادته الخاصة، في الوقت نفسه. أما النجاة من هذه الورطة المهلكة، فلا تعني غير البلادة ورثاثة الباطن. فما خير عيش بغير علاقة تعتلق الماهية الجوانية في الصميم؟ ولماذا يحيا بعض البشر حياة لا تختلف كثيراً عن حياة البقر؟ وأخيراً، هل تتيسر لأحد أن يبعث الإنسان من مرقده الذي يرقد فيه وهو لم يزل على قيد الحياة؟

أيتها المرأة التي أحببت من بعدها امرأتين اثنتين على الأقل، ثقي تماماً بأنني ما أحببت واحداً ولا واحدة بقدر ما أحببتك، يا من استولت عليّ من دون الناس كافة. فلقد امّحى حبهما من فؤادي حتى لم يبق منه سوى أثر باهت فقط. أما أنت فقد أتلفت عمري بأسره في حبك الذي لا أفضل عليه جميع كنوز الأرض. ولا غرو، فأنت حبي الموفق الأول، حبي الذي نجح بعد تجارب غرامية أخفقت فتركت على سطح النفس رضوضاً مؤلمة، أو مما لا ينسى. ولقد أصاب ذلك الشاعر الذي قال:

نقّل فؤادك ما استطعت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول.

ولا أحسب أن غرامك قد استمر طوال هذه المدة الشاسعة لأنك كنت الأولى بين النساء اللائي أحبوني، بل لأن فيك من الخصال والمناقب الطيبة السامية ما لم يتوفر لأية واحدة من

السابقات أو اللاحقات. ومع أنني حرمت منك بالفعل، فإنني أرى نفسي محظوظاً جداً لأنني رسّخت صلة غرامية وطيدة قُيّض لها أن تكون ثنائية الطرف لأول مرة في حياتي. ومع أنها جاءت محصورة ضمن إطار الكلام وحده، فهي لم تقلّ عن كونها عرساً روحياً لا يعرفه من الناس إلا أنت وأنا. وحين راح بعضهم يذكرونك أمامي وهم يتهجمون عليك لأنك حاولت أن تستأثري بي، فقد اعتدت على أن أشكرهم لأنهم يهتمون بك ولو على نحو سلبي. ويا طالما أرجفوا ولفقوا أحاديث البهتان والأخبار الثالبة للسمعة والجالبة لسوء الأحدوثة والصيت الشائه المحقور عند الناس.

أقسمت عليك بما تجنّه ضلوعي من تلهّف واشتياق إلى وجهك الكريم - وإنه لقسم كبير، بل أكبر قسم عندي - أن تطلي برأسك أمامي، وأن تقولي ها أنا ذا، وذلك بعد أن تقع هذه الرسالة بين يديك مباشرة، يا امرأة لا أظن أن اللغات كلها تستطيع أن تصفها بدقة، أو حتى على وجه التقريب. فبودي أن أرى كيف صار وجهك بعد مضي أربعين سنة على آخر لقاء جرى بيننا. ترى، هل تكهف خداك وتجعّد وجهك وارتسمت الأخاديد على جبينك الباذخ الأشم؟ وهل تبدل مزاجك وصرت عصابية أو متوترة بسبب السن العالية وما تجلبه من تلف وذبول؟ ترى، هلا زلت تعتنين بهندامك مثلما كنت تفعلين في سالف زمانك؟ أما برحت

تصففين شعرك الأسود الفاحم الغزير، يا سيدة الأناقة والوسامة، ويا من خلقت في أحسن قوام أو تكوين.

وأحسبك سمعت ذلك الوغد الشديد الشبه بالغراب حينما راح ينعب أو يخطب قائلاً: «سوف ندافع عن ترفنا». ثم هجم وفتك بشعب آمن، وقد حرّضه على ذلك ضمير من رماد. إنه ترفهم الذي يستلونه أو ينهبونه من قوت الأمم الضعيفة، التي لا حول لها ولا طول. وإنهم ينهبونه دون حياء، بل بقذارة لا تحسب لكرامة الإنسان أيما حساب، ولا تقيم له أيما وزن. أتمنى لو كنت أنا هو من لطمه بذلك الحذاء التاريخي النفيس، إذن لاعتقدت جازماً بأن حياتي لها معنى وهدف، ولرضيت عن نفسي رضى لا تسعه الأرض ولا السماء.

ولا أحسبهم بشراً أولئك الأشرار الذين صمموا ذلك العدوان ونفذوه، فأبادوا مليونا من أهل العراق أو أكثر. إنهم يجهلون المروءة أو الإنسانية جهلاً مطبقاً، فلا يشبهون غير الوحوش المفترسة الضارية التي لا تُعْنى إلاّ بجوعها الذي لا يشبع ولا يقنع. ولهذا السبب ، فإنهم مرشحون للخروج من الحياة التي تتلخص شيمتها الأولى في أنها تطرد إلى خارج ساحتها كل تطرف أو إفراط في الشذوذ عن القواعد التأسيسية. إن طبع الحياة قائم على التوازن أو على الاعتدال، فلا يكون الشيء الحي القابل للاستمرار إلا في وسط المسافة الفاصلة بين نقيضين. ولكن أولئك الأوباش المحترفين للنذالة والإرهاب قد

استحالوا إلى شر محض لا يخالطه أي خير، حتى كأنهم قراصنة أو رجال عصابات.

أما مصيبتنا نحن العرب فهي أننا عاجزون عن حماية أنفسنا من شرورهم وميلهم إلى الجريمة وسفك الدماء الذي هم به مغرمون. والسبب في ذلك هو أننا خاضعون لأسوأ شكل من أشكال الاحتلال. هل سمعت، يا سيدتي النبيهة الفطينة؟ إننا خاضعون لأكثر أصناف الاحتلال شناعة وبشاعة ولؤماً وقدرة على إلحاق الأذى بالناس. سلمى، يا فتاة الحي، إن بلادنا ترزح تحت وطأة احتلال محجّب مقنّع مخبوء عن كل عين، إلا عين الباطن المستيقظة، والتي لا يحوزها غير الموهوبين ممن اصطفتهم قوة الخلق وأسبغت عليهم نعمتها ورعايتها الخاصة.

يقيناً، إن هذه الحقيقة هي أهم حقيقة ينبغي أن يعرفها كل إنسان عربي. إنهم يحتلوننا على نحو مكتوم، يا أيتها المرأة الشديدة القدرة على الاستيعاء الخاطف كالبرق، وهم يفعلون ذلك معتمدين على قوة ظلامية مخبوءة تتفشى في المؤسسات كأنها اخطبوط. ولكنهم يحاولون أن، يبذروا في وعينا وهماً خلاصته أننا مستقلون. وبالفعل يتبدى الأمر، لدى النظر إلى السطح، وكأننا نتمتع بشكل ما من أشكال الاستقلال. وهذا يعني أننا نرضخ لاحتلال غير منظور، فلا يدركه الذهن إلا حدساً، وبعد

تتبع طويل لما يجري على الأرض من حوادث، كما يعني أن حياتنا قد أصابها اختلال لم نعرف له مثيلاً من قبل.

وكلما جاء يوم جديد أكد للقاصي والداني أن النفط ما كان إلا وبالاً على العرب. فلقد أتانا بأسوأ أصناف الكوارث التي عرفتها الأرض طوال تاريخها. ولسوف يظل الأوغاد الغربيون يضربوننا ما دامت لدينا قطرة نفط واحدة. فلا عمل لهم سوى ابتزاز الشعوب وتجريدها من قوت أطفالها. فما عرفت الدنيا حضارة أكثر جشعاً من الحضارة الأورو - أمريكية التي لا خلاص لنا منها إلا إذا انهارت من داخلها وحسب.

* * *

وحيثما كنت، يا سيدة الحضور، فلا بد من أنك تعلمين تخبطنا الراهن في مرحلة تاريخية مأزومة، وأننا نتمنى أن نخرج منها بأسرع وقت ممكن، ودون أن نتكبد الكثير من الخسائر. فيا له من قدر عنيد هذا الذي ورطنا في هذه المصيدة التاريخية. فكأن العالم بنيان يتهافت ويتداعى للسقوط المريع في هذه الأيام التي فار فيها المال فنخرها كما ينخر السوس الخشب. إنهم يلهطون ولا يشبعون.

ترى، هل تؤْثرين أن تظلي مكتومة مجهولة أو مخبوءة إلى الأبد في مكان لا أدريه؟ حسناً، إن هذا هو حال الكنز

الذي لا يكون كنزاً إلا إذا استتر أو توارى عن الأنظار، فلا يعرف مكانه أحد بتاتاً، وحين يكتشفه أي امرئ، فإن سره يتبخر أو يزول.

يا إلهي. ما الذي حلّ بك، يا امرأةً عزيزة على فؤادي الملهوف؟ وما هذا الشيء أو اللاشيء الذي يحفر في خلايا البدن، ويظل يحفر حتى يستحيل المرء إلى كائن لم يكنه من قبل؟ أنت، أيها المحتل اللئيم الذي يسمى الزمن، هل لك أن تجلو عن خلايا جسدي، فتخرج منها ولا تعود إليها آخر الدهر؟ أم تراك تلازمها أبداً لأنك عنصر تركيبي في بنيتها الكلية؟ إذن، لا بد من نهاية، لا محيد حتماً. وما دام الأمر هكذا، فهل يستطيع هذا الوجود بأسره أن تكون له أية قيمة، مهما يك نوعها؟

- ١٥ -

يا أعز العزيزات وأغلى الغاليات، إن حزني عليك لا يدانيه أي حزن آخر، ولا حتى حزن الوثنيين على تموز. ولشدة ارتباط روحي بروحك الجليل، والموغل في الطهر والصفاء، فإنني ما شممت زهرة، ولا سيما زهرة الياسمين الغالي على فؤادي، إلا شعرت بأنني أشم رائحتك أنت حصراً، بل بأن تلك الرائحة الزكية لا تقل عن كونها تحية منك ترسلينها إلّي من وراء المسافة الطويلة الحاجزة. وبسبب هذه العلاقة الخيالية التي من شأنها أن تجعل الروائح الطيبة رسائل غرامية، أراني قانعاً بأن علي أن أحّول المسافة إلى شعر. ولكن ذلك لا يتيسر قط إلا بعد تحويلها إلى حزن أو حنين ملتاع يجاور الدنف أو يدخل في كنفه العريض. ولكنني كثيراً ما استهجن كيف أن هذا الحنين المنتج للحزن لم يقتلني بعد. وها أنا ذا أرفض الهنا والآن والواقع والحاضر، وأحن إلىَّ الغائب والنائي البعيد، وكذلك إلى زمن ذاب في الماضي منذ عشرات السنين. وربما حننت إلى ما لا وجود له بتاتاً، أو إلى ما لا ينال ولا يطال حتى ولو عنت المرء في التنقيب عنه.

فلا ريب عندي في أن الجاذب دوماً وثيق الصلة بالخيال والرؤيا، أو بالحلم والأسطورة اللذين لا يتيسر استيعابهما إلا من

خلال برهة الحدس السرية. ولعل في السداد أن يقال بأن الولوج إلى هذين العالمين هو انسحاب من الواقع المعيش. وهما إذ يفتتان الذات لا يفعلان ذلك بما لهما من حلل عسجدية قشيبة، بل لأنهما يضعان الشعور في فسحة الأسرار الخالدة. وفي الحق أنك ما عدت تظهرين في خيالي إلا مثل حلم عظيم، ولكنه حلم يأبى أن يزول من ساحة البال. وههنا يتبدى ناصعاً أنه شيء يخنس فيه اللغز صامتاً، ولكنه يكاد أن يتكلم ويفصح عن محتواه، وذلك من خلال الحنين الذي يملأ هويتي الإنسانية.

وإنه لحنين صرف لا تشوبه أية شائبة مما ينتسب إلى فصيلة الفتور أو الارتخاء الكسول. وأرجو أن تصدقي إذا قلت بأنني لا أشعر بماهيتي، أو بفرديتي في أية برهة، قدر ما أشعر بها حينما يستبد بي الحنين الجامح والراغب في الالتقاء بك أو برؤية وجهك الكريم. ففي هذه البرهة قبل سواها أقتنع بأنني إنسان حقاً، وبأنني مزود بروح مرهف حساس، ولست شيئاً جامداً بين الأشياء الجامدة. ثم إنه لروح ينتشي بخمرة الحسن ويغتذي بصورة كل ما هو أهيف أو أملد. وههنا بالضبط أعثر على هويتي الحقيقية المؤلفة لأعماقي أو لصميم شخصيتي وما يحتوي عليه من محتويات. وبفضل ذلك العثور على الماهية، يسعني أن أعيد صياغة المبدأ الأول ليصير على هذا النحو المدمث اللطيف: أنا أعشق، إذن أنا موجود. وهذا يعني أن سورة الحنين قد جعلتني تجسيداً للعشق الروحي نفسه، كما جعلت منك المعشوقة الكلية أو الكونية التي أغرم بها جميع

العشاق في كل مكان وزمان. ولئن صح زعمي هذا، فإنك لا قيمة لك بتاتاً لولا حنيني إليك وتولهي بك ولهفتي على الالتقاء بوجهك النبيل. ولا ريب في أنَّ هذه الحرارة العارمة هي التي زودت كتابتي بهذه السمة الشعرية التي قد لا تخطؤها العين.

وربما كانت النتيجة التلقائية لهذا الشعر هي تدميث النفس وتعزيز الإحساس بعذوبة الحياة ونفاسة الروح. فليس من شأن الحزن عليك أن يحول بين لغتي وبين تزويد الذات بلطافة لها القدرة الكافية على نفي كل جلافة. والأفكار التي هي أزهار العقل في نظري، قد تملك أن تغلغل في النفس وتستقلبها من داخلها، أو أقله أن تترك بعض الأثر على بنيتها القابلة لإعادة الصوغ كثيراً أو قليلاً. ولهذا فإن شدة حنيني إليك فد جعلتني أتوهم بأن أيامنا التي عشناها في سالف الزمان، ما كانت إلا حلماً حلمنا به معاً ذات ليلة هادئة.

وعندي أن الروح كلما أسرف في الحنين إلى كائن من الكائنات، فإن هذا الكائن يزداد نفاسة أو قيمة، وذلك لأن قيمة الشيء، وفقاً للبداهة، يحددها زخم الاندفاع المتجه صوب حيازة ذلك الشيء، أو صوب الالتحام به على نحو حميم لا يقبل الانحلال. ولهذا، فإنني أعرّف الجميل بأنه المتاق الذي ينصبُّ عليه الاشتياق. وبما أن اشتياقي لا ينصبُّ على شيء قدر انصبابه عليك أو على روحك المرهف اللطيف، فإنك أنت الكائن الأكثر نفاسة في هذا الكون بأسره، هذا وحده كفيل بأن يسوّغ حزني عليك، يا أغلى الغاليات اليانعات دوماً، والزاهرات في

حديقة البال دون أي ذبول أو شحوب. يقنياً، إن ازهرارك الدائم في ذاكرتي هو سر يندّ عن كل تأويل أو تفسير. يا من تمازجين روحي مثلما تمازج اللحمة السَّداة، صدقيني إذا أكدت لك بأنني أراك في كل جمال مهما يك نوعه، وخاصة في كل طائر غريد، وفي كل نبات جميل، ولا سيما حين تتفاوح أزهاره وتبث أريجها في الجو. كما أراك في كل لحن عذب أو صوت رخيم، وكذلك في الندى والساقية والينبوع الرائق الصافي الأنيس.

وإني لأتذكرك مشتاقاً كلما تحرك النسيم وهب ناعماً لطيفاً على وجهي الحزين، ولا سيما إذا حمل إليّ شيئاً من عبيرك الذي أشعر بأن له نشوة تشبه نشوة السلاف. كما أتذكرك حين أشاهد الغيم والمطر والثلج وكل ما من شانه أن يصنع الخصوبة وعرام الحياة. وإنك لتتبجسين في ساحة خيالي كلما أبصرت زرقة البحر أو زرقة السماء أو اخضرار المروج أو سمو الجبال وشموخها الأشم.

ويلوح لي أنني أخلص نفسي من كل كزازة أو غثاثة حين أراك على هذا النحو، أعني حين تتماهين مع كل ما هو مبتهج أو مسرور. فما دخلت مكاناً أنيقاً له من الحسن ما يشرح الصدر إلا وتخيلته يزف لي تحية خاصة بالنيابة عنك. وما رأيت امرأة وسيمة قط إلا خلتها أنت وقد رجعت من منفاك الذي لا يجلب إلى وجداني غير العكر والاضطراب، يا حلوة الشمائل، يا من تجولين في النفس مجال النفس الصانع للحياة، بل الذي هو الحياة بالضبط.

وهذا كلّه يعني أنني أهجس بك على الدوام، أيتها الروح التي لا بيت لها على الأصالة سوى سريرتي أو صميم روحي. بل إن هذا ليعني أنك قد صرت وسواساً استحواذياً متسلطاً لا يقل عن كونه ضرباً من ضروب الهوس الذي أراه من أقرباء الهوى. وما كان لهذا الهوس أن يهيمن علي بالصدفة، بل لسبب حقيقي مرده إلى سماتك النادرة. ففي الحق أنني استهجن كيف تستطيعين أن تتحملي ثقل الطيبة المستتبة في روحك المطهم الجليل. وإنني لأخال بأن في ميسورك أن تعلمي الناس كيف يداوون أمراضهم بأنفسهم. فأنا أثق بك إلى حد الغلو والتطرف، ودون أي تحفظ قط. ولهذا، فإنك تشعين في وجداني بلونك اللجيني الخلاب مثل نطفة من نور وهّاج. وإذ أصفك ههنا فليس ذلك بهدف التعبير عن سجاياك النفيسة وحسب، بل لكي أحوز تلك السجايا وأجعلها بعضاً من صفاتي الذاتية الخاصة.

صدقيني أنني أغضب على نفسي حين أشعر بأن الهم الذي ينسجه غيابك ويحبسه في قاع روحي قد تراخى أو فتر قليلاً أو كثيراً، وذلك تحت وطأة العبء الباهظ الذي أتمنى أن يقتلني لأرتاح من مقاساة العناء والاضطهاد. ولكنني لا أرغب في زوال هذا التوتر أو القلق الذي أعيشه حزناً عليك، أو اهتماماً بأمرك الشبيه بالكابوس. وإنني سوف أظل ملتزماً بهذا التوتر، وبهذا القلق الصانع للأرق، ما دمت لم تحضري أمام عيني المشوقتين إلى رؤية وجهك التي ما من شيء سواها يملك أن

ينعش روحي أو ينتزعها من أشداق اللعنة. ولهذا، أراني أشعر بأن ما أكابده من الوجد، من الشجى والجوى، هو بالضبط ما يصنع هويتي الخاصة. فلا ريب في أن بي عوزاً صميمياً إلى فحواك النادر العظيم. وبسبب هذا العوز، أو الظمأ إلى معناك العميق الأصيل، فإنني لن أنبذ حزني عليك ما دمت قادراً على أن أحزن. فإذا نبذته أفرغت باطني من كل محتوى ذي بال. فماذا سوف يتبقى لي، بل ماذا سوف يتبقى مني، إذا ما خلوت من الحنين إلى وجهك الأغر؟ وما قيمة ذاتٍ شاغرةٍ أو خاليةٍ من كلّ حنين أو اشتياق إلى تجربة ليست من المألوفات؟

فلا يكفي أن أزعم بأن الجحيم هو غيابك حصراً، وذلك لأن الجحيم هو، قبل كل شيء، خلو الفؤاد من الغرام، أو من الاشتياق إلى كائن وسيم من فصيلة النعناع، كائن يانع يجسّد العذوبة والسعادة، بل القدرة على الخلب والجذب بالدرجة الأولى، حتى لكأنه بذرة لا تشطأ ولا تزهر إلا في سويداء الفؤاد. وحين أقول الغرام فلا أقصد إلا التولّه الروحي بشخص من الجنس الآخر. ولئن بلغ المرء إلى برهة كهذه البرهة الفارغة، أو الخاوية على عروشها، ولكن دون أن يشعر بتصدع جدران الوجود وأعمدة الكينونة كلها، فإنه في نظري كائن لم يبلغٍ إلى مرتبة الشخص البشري، بل تفصله عنها مسافة طويلة جداً. ففي الحق أن الإنسان لا يكون له وجود أصلي إلا في العلاقة أو في الوصال: الحب، الأمومة، الأبوة، الإخاء، الصداقة، الزمالة، القرابة، الجوار.....الخ.

وربما صح القول بأن النشوب في علاقة وجدانية هو من أجلّ الأمور وأكثرها قيمة وأهمية في الحياة. وهذا يعني أن مقولة الوصال هي المقولة الأولى في جهاز المقولات كلها. وفضلاً عن ذلك، فإن الوصال الحميم شديد القدرة على دحض الشعور بالاغتراب أو على تخليص الروح من التشيؤ أو التجمد بين الأشياء الجامدة. ومما هو مؤكد أن المرء لا يكون بغير وصلة تربطه بالآخرين، ولكن ارتخاء هذه الوصلة هو الضياع والتخلع والقنوط من أية إمكانية للحصول على السعادة والهناء.

إذن، قضيت جل العمر وأنا أشتاق إليك وأتلوع وأحزن وأحن. ولكنني عبثاً فعلت، وذلك لأنني كنت أروم ما لا ينال أو يطال. وكثيراً ما زعمت بأن العمر قصير، ولكن هذه اللوعة الحزينة المفجوعة لها وطأة ساحقة من شأنها أن تجعل العمر القصير أطول من عمر نوح. ومع أن العمر مسار (مشوار) وله شأن جديد كل آن، ومع أن المرء دوماً على الدرب الذي يفضي به إلى مستقره الأخير، فإنني أشعر وكأنني أراوح في مكاني لا أبرحه البتة. فلقد تعطل الزمن وشكم حراكه عندما غادرت إلى الأقاصي النائية، ولم يسر بعد ذلك قط، حتى ولو قيد أنملة. وها أنا ذا أكبر وأهرم، وأتورط في مأزق المرض والشيخوخة، بل أجلس على حفاف الضريح وأنتظر النهاية، ولكن عيني لا تتطلعان إلا إلى الخلف، أو إلى البرهة التي تتشتك من بين يدي إلى غير رجعة. ففي فسحة مخيلتي يمور الماضي ويفور ويعرم ويحتدم ويتدفق

مثل طوفان شديد الهيجان. وهو لا يفعل ذلك إلا بسبب حنيني واشتياقي إلى وجهك الصافي الأنيس. ثم إنني أعتقد بأن الفنون والآداب قلما يبدعها أحد على الأصالة إلا الإنسان المشوق إلى غائب مفقود، أو إلى حميم منشود تتغلق دونه الدروب كلها.

وفضلاً عن ذلك كله، فإن ذكراك وصور تجربتنا المتدفقة في البال والآتية من جوف الماضي ما فتئت تنثال في خاطري انثيال الماء من شلال غزير يصب في واد سحيق. أما نداءاتك الموجهة إلى روحي والآتية من وراء المسافة التي يتعذر اجتيازها على رجل شائخ مثلي، فما انفك دويها يتصادى في أذني الاثنتين طوال عشرات السنين. وما كان لهذه الحال أن تنشأ بغير سبب عظيم وهو أنك أحببتي حباً جماً، بل إلى حد الإسراف، ولكن برزانة لا نظير لها. فقد كنت تفضلين أن تقطفي الزهور البرية معي في تخوم الغوطة، خلال شهر نيسان المخضل، وإبان شهر نوّار الوارف الظلال، على أن تتوجى ملكة للعالم بأسره. ومما شدني إليك كثيراً أنك فتاة شديدة اللباقة، فأنت لا تأتين إلى الأشياء إلا من سفحها المشمس، ولا تجيئين إلا على الدروب المسيجّة بأشجار الياسمين والمحفوفة بالينابيع الغزيرة الرائعة. وما من غلو إذا ما زعمت بأنك امرأة، لا من ذهب أو ماس أو ياقوت، بل من مادة أسطورية قد لا يكون لها وجود في الأرض كلها. ومما يلوح لي أنك تنتسبين إلى سلالة الأسرار والألطاف الحسنى، وهي التي خلقت منها أرواح

الأبرار والأطهار وسكان عليّين. ولئن لم يكن الأمر كذلك، فإن هذا هو الانطباع الذي تركته في وعيي حينما كان الزمن في الريعان. وبسبب هذه الشمائل الباسقة التي تتمتعين بها، أيتها المرأة الفردوسية، فإنني أُخوِّل نفسي حق الزعم بأن العمر من دونك ليس سوى وليمة من حصباء.

ومع ذلك، فإنني أبذل قصارى جهدي كي أتجشم مشقة الاستمرار على قيد الحياة، وكي أتحمل الصقيع الذي أتت به صدمة الفقدان وما أفضى إليه من ترميد نشوة الشباب حين كان في ذروة ربيعه. ومع أنني جدّ عليل، فسوف أثابر على التنفس في عالم همجيّ قلما يعبأ بالروح، أو بآلامها وغرامها، وذلك بفضل قوة الأمل الذي يهمس في أذني قائلاً بصوته المسرور بأننا سوف نتلاقى ذات يوم من أيام المستقبل. ومن شأن هذا الصوت الخصيب، والشبيه بأغنية خلابة، أن يخفف من وطأة الشدة الباهظة التي أعتلها على كاهلي طوال نصف قرن، أو زهاء ذلك.

وأنا أثق بأنك مزوّدة بخيال جامح خلاق وشديد القدرة على الكشف أو على التغلغل في جوف الغيوب. ولهذا، فإنني أدرك بسهولة أنك تهجسين بما أعاني من شدة وحدّة واضطراب. وربما ضربت كفّا بكف بسبب ندمك العارم على ما ألم بي من تسمّم أصاب نفسي وأعصابي المرهقة، ولكنك لو شققت عليّ ثيابك،

فإن ذلك لن يغير من الأمر شيئاً، ولن يتحسن حال وجداني إلا إذا التقيت بك وجهاً لوجه وتحادثنا معاً من موقع الكثب.

وفي الحق أن حكايتنا ليست حكاية غرام أخفق وحسب، مثله في ذلك مثل آلاف الأحوال المخفقة في هذه الدنيا المبتلاة بنقص لا تغطية له ولا توفية بتاتاً، بل هي أشبه برواية مدارها على تحَسّس الحياة أو تلمّسها وتقرّيها بشعور جد قويّ يضرب في أغوار قعرها السحيقة. ثم إنها رواية تحاول أن تحاكم المال والسلاح وما يأتيان به من استبداد وجريمة وإزهاق لأرواح الأبرياء. ولهذا، فإنني على أتم أهبة كي أعلن على الملأ أنني العدو الأول للمال في هذا العالم بأسره. ففي الحق أن انهماك البشر بالمال هو السبب الأول الذي يصرفهم عن الروح وقضايا الروح. وبصراحة تامة، لا أستطيع أن أنظر إلى أولئك الذين يتعبدهم المال بإفراط إلا من حيث هم بقر على هيئة بشر. فما أنا إلا عاشق وحسب، وما من عاشق يستطيع أن يكون غير لطيف، ولا أن يتكيف مع القسوة أو أن يتصالح مع الهمجية وعدم مبالاتها بقيمة الإنسان وكرامته وحُرمة دمائه. ومادام العالم شرساً ولا مبالياً وغير مهموم بهم أحد، فإنني أصفق للشاعر الذي قال: «ويوم منيّتي هو يوم عرسي.»

وبما أنني دائم الحنين إلى النظافة والنقاء المحض والخلاص من قَذَر المال وشروره الوخيمة، بل من كل قيد واحتجاز أو

تحديد أياً كان نوعه، فها أنا ذا أشعر بأنني أنتمي إلى عصر لم ينشأ بعد، وكذلك إلى وطن لا وجود له في الأرض أو في بقية الأفلاك والكواكب. وإنه لوطن بلا سادة ولا عبيد، وبغير أي انشطار أو تشرذم في بنية سكانه. فلئن جئتني بمن يحب الإنسانية أكثر مني، أيتها المرأة التي يضيء حبها كل بقعة مظلمة في باطن نفسي، فإن لك عليّ ما تشائين، حتى وإن كان تلاً من الذهب الإبريز. ولذلك، فإنني أطلب الرحمة لهذا الجنس البشري الذي يذبحه المال يومياً، أو ينحره الجشع الذي يجهل أيما شبع. أجل، يذبحه اشتهاء المال بأسلحة لا تقل شراسة عن الجحيم نفسه. فيا للعار والشنار. ولكنني سوف أظل ألحّ على طلب الرحمة للناس، وهي التي طلبها السيد المسيح لنفسه حين قال: «أريد رحمة، لا ذبيحة».

والآن ما قولك أيتها السيدة الطيبة العطوف، بهذا المذهب الإنساني الذي تتدرج فيه نزعة الحرية، بعد الحب، على نحو ضمني، وهو ما ينبغي أن يتبناه كل من يأنف من أن يكون علجاً أو خنزيراً نجساً لا وظيفة له سوى إلحاق الدنس بالحياة؟ ما قولك، أيتها المرأة التي لا غاية لوجودها إلا أن تنشر عذوبتها حيثما وطئت قدماها؟ ما قولك، يا من تستطيعين أن تجعلي الواقع يستحيل إلى صور خيالية بفضل ما تملكين من قدرة على السحر والخلب وذرّ النور في العتمات؟ ما قولك، يا سيدة ما خلقت إلا لتولج الأصالة والفحوى إلى جوف حياتي الخاوية الناشفة؟ فأنت، على

الرغم من غيابك الطويل الشبيه بغياب يصنعه الموت، لا تقلين عن كونك الماهية الوحيدة التي أجابه بها هذا العالم الفقير إلى حد التسول، والعاجز عن أن ينجز أيما إنجاز جليل من شأنه أن يزود الحياة بالقيمة والدلالة. وهذا كله يعني، أيتها الغائبة غياب الموتى، أنك عزائي الوحيد في حياة خالية من كل عزاء، وذلك لأنك ومضة من نور لا يشبه أي نور أرضي مهما يك ساطعاً أو متألقاً. ولا أحسبني مخطئاً إذا زعمت بأنك العنصر الأرسخ والأدوم والأكثر حضوراً في حياتي كلها. فلولاك، لولا غيابك الذي تكتظ نفسي بهمه المكرب، لقاسيت الشعور بالفراغ إلى حد الرعب، وربما إلى حد التعفن الكريه.

ولكن ألا يسير كل شيء إلى نهايته المحتومة؟ وأنا، ألست ماضياً إلى نهايتي مثل أي كائن آخر؟ وعندئذ فإن النجوم لن تكف عن الدوران. وأهم من ذلك أن معضلتنا أو أن قصتنا المشتركة سوف تكون قد أمّحت من سجل الوجود وإلى أبد الآبدين.

- ١٦ -

ولعلك تذكرين أنني كنت دوماً أطرح بعض الأسئلة على الوجود، ولكن دون أن ألاقي أية أجوبة مقنعة. أما الآن فقد اشتدت نزعة التساؤل في ذهني حتى صارت أسئلتي أكثر من أن تحصى. فلا ريب في أن تجربة مثل تجربتي المخفقة التي جعلتني عدواً لدوداً للشرّ والعدوان وجميع أصناف النذالة، قد كان من شأنها أن أفرزت مجموعة كبيرة من الأسئلة الوثيقة الصلة بالكون والعيش والإنسان، وكذلك بالغاية من وجودنا في هذه الدنيا الدنية، أو بجدوى هذا الوجود كله جملة وتفصيلاً. وإنها لأسئلة كبيرة وعسيرة في الوقت نفسه. ولقد اعتادت على أن تؤرقني في الليالي الداجية منذ أن بلغت السنة العاشرة من سنوات العمر وحتى يومي هذا. ومع أن الأسئلة التي أطرحها على نفسي كثيرة العدد، فإنني سوف أقتصر على حفنة منها وكفى.

ترى، ما هذا الكائن الذي يسمى الإنسان، والذي لا نملك أن نعيش بصحبته ولا من دونه في الوقت نفسه؟ أليست مجالسة البشر صنفاً من أصناف الجلد في كثير من الأحيان؟ وأية مفارقة هي هذه المفارقة؟ فهو كالنار التي إذا أفرطت في الاقتراب منها احترقت، وإذا أسرفت في الابتعاد عنها تجمدت.

ولماذا يغلب على الحب الدافئ الحنون أن يواجه الدحر والإخفاق بدلاً من النجاح والتوفيق، مع أنه السعادة أو وعد بالسعادة والهناء، على الأقل؟ بل لماذا كان من النادر أن يحصل المرء على محبوب حقيقي، حتى كأن ذلك الكائن النفس وهم أو حلم يرى في المنام وحسب؟ ولماذا ينبغي على كل حب أن يشيخ وينطفئ مثل كل حياة مهما يك نوعها؟ وما الذي جعل العيش كئيباً، في الغالب الأعم، ولم يجعله سعيداً حقاً؟ فمما هو ناصع دون أي لبس أن ساعات الفرح الحقيقي التي يمارسها البشر شحيحة أو نادرة. وهل من قيمة فعلية في هذا الوجود لغير لحظات الهناء والسعادة الدافئة؟

وما السبب الذي جعل الكون سرّاً لا يملك الذهن أن يتذهنه أو أن يفض فحواه ومغزاه وما يكتنز من غموض واستتار؟ فمن أين جاء هذا الكون، وإلى أين هو ذاهب؟ هل جاء من العدم؟ ولكن هل يجيء من العدم أي شيء؟ لأن هذا محال يند عن سلطة العقل، وذلك أن فاقد الشيء لا يعطيه. إذن، هل هو أزلي؟ إن لب الإنسان لا يملك البتة أن يستوعب الأزلية التي هي اللاابتداء. فما هذه الأحجية، ما هذا اللغز، إذن؟ ما هذه الواقعة التي لا تعنو لأي تأويل أوحل أو تفسير؟ أليس العقل في عقال حيال هذا السر، كما قال أبو العلاء؟ ألا يجوز الظن بأن السؤال الذي طرحه الفينيق على أوديب يسير جداً إذا قورن بهذا السؤال العسير؟ أليست الإجابة عنه أسهل من تناول شربه ماء؟ ولهذا

أراني أو من أيما إيمان بالاستسرار، أو بما يغلغل في الأشياء من انبهام وغموض. ولكنني أجنح في بعض الأحيان إلى الظن بأن لا وجود لأي سر أو مستور، بل ليس ثمة سوى كرات مادية سخيفة أو تافهة، وعددها لا يحصى، وهي تدوّم في فراغ لا نهاية له قط. ومع ذلك، فإن كيفية مجيئها إلى الوجود سوف تظل مصدر قلق لكل ذهن حي.

فلا افتئات على الحقيقة إذا ما صرّحت بأن نفسي تكاد أن تغثى حين أحاول استبار كنه هذا الكون المعطى للعيان، والذي لا يتيسر إنكاره بتاتاً.

فمن أين أتى؟ وما الغاية من وجوده، إن كان لوجوده أية غاية؟ بل ما هي الغاية من وجودي أنا قبل كل شيء؟ أليس مما يثير الاستهجان ألا يكون الهدف من حياة الإنسان مركوزاً في العقل سلفاً ومنذ بداية تشكل الوعي لدى الانتقال من الطفولة إلى الصبا؟ ترى، هل هنالك من يعرف أيما هدف كريم يكمن خلف الشقاء البشري الشامل لجميع الأماكن والأزمان؟

وما دام الأمر كذلك، أقصد ما دام الغموض يحجّب كل شيء أو يلفّه، فليس أمام الذهن إلا أن يضطرب أو يتوتر حين يستوعب وضعه في الكون، أقصد حين يدرك عجزه عن القيام بأي فعل ذي بال. وبذلك تكون هذه الطاقة الهائلة التي تسمى اللب قد وجدت من أجل أغراض طفيفة الشأن. وهذه مفارقة لا رفع لها، على ما أرجح.

وهنالك مفارقة أخرى أمّر وأدهى. فلا الفناء معقول ولا البقاء معقول أيضاً. إنك، أيها الإنسان، أيها الوعي الذي لا يعي سوى سطوح الأشياء، أمام ضدين أحلاهما مر كالعلقم. وهذا يعني أنك مأزوم على الدوام، شئت أم أبيت، ولا ينجيك من الأزمة العضوض إلا عدم وعيك لها. بل لعلك أن تكون كتلة من الأزمات اصطادتك شبكتها، ولا فكاك لك منها إلا بالموت. وهذا يعني أن وعيك هو صليبك الذي لا صليب لك أكبر منه، كما يعني أن درجة عذابك تتناسب طرداً مع درجة وعيك وقدرتك على الإدراك. ومع ذلك، فإنني لا أفضل أن أكون، كالبلهاء، بغير وعي لأخرج من هذا العذاب المقيم.

أن أموت، ذاك حادث يعني أن عمري كله باطل ولا لزوم له بتاتاً. وأن أعيش إلى الأبد، حتى لو لم تكن هنالك شيخوخة أو أمراض، فذلك هو السأم على وجه الضبط والدقة. والسأم هو عدم اشتهاء الحياة، أو فتور الرغبة فيها. فإذا ما عاش المرء ستين سنة شعر بأنه قد ألف الأشياء وألفته إلى حد الملل، فخسر الدهشة الطفلية والقدرة على الابتهاج الأصلي العميق الذي هو لب الحياة وعصارة ثمارها الشهية. فكيف به إذا عاش ستمائة سنة، أو ستة آلاف؟ وهذا كله يعني أن النفس مغمّسة في اللامعقول من جهاتها كافة، ولا أمل لها البتة في الخروج من حصاره الشامل الذي لا يعيه أو يقاسيه أحد إلا الفرد الفريد وحده. أن أعيش إلى الأبد، أيتها السيدة الفاضلة، ذاك أمر مرفوض تمجه النفس وتتقزز منه.

وأن أموت، ذاك ليس فاجعاً وحسب، بل هو يملك أن يلغي أية قيمة من تلك القيم التي يضفيها الشعور على الحياة وعلى تفاصيلها الكثيرة، بل هو كفيل بأن يلوّن الأشياء طرّاً بلونه الأسود الحالك، ويجعل الوجود والعدم صنوين متساويين تمام التساوي، كما يجعل الذهب والخشب سيان. وربما استطاع تأمل الفناء بعمق أن يدلق برودة جليدية على حرارة الكلف بالعيش والوجود، وأنّ يكبح حماسة الاندفاع نحو البلوغ إلى لباب الحياة وما تدخره من سعادة ونشوات. وههنا تتبدى ضآلة الإنسان المصعوق أمام حتمية الموت، وتتكشف تفاهة الوجود أيضاً. فالبقاء والفناء معاً سوف يتبديان، لدى التأمل الأصيل، مذهلين أو مرعبين ومنغصين، على الأقل. وكل منهما يحتاج إلى شجاعة، أو إلى بسالة تشبه بسالة الصناديد. كما أنهما يحتاجان إلى صلادة في الشخصية لا تقل تماسكاً عن صلادة الصّوان. والنفس الحساسة الناجية من الابتسار ترفضهما كليهما، بل هي تعافهما ولا تسوّغ أياً منها، وليس أمامها إلا أن تشعر بالحيرة حيال الموت أو حيال الحياة السريعة الانقضاء مهماتك طويلة. وهذا يعني أن النفس في مأزق دائم فعلاً، في ورطة أو في أزمة، شريطة أن تكون حسّاسة أو شديدة القدرة على الحضور في العالم. وربما جاز الظن بأن الضغط الذي يمارسه كابوس الزوال على قاع النفس من شانه أن يوجّه الحياة البشرية أو معظم تفاصيلها، وخاصة من خلال الثيو صوفيه الشديدة القدرة على تهدئة النفس المتوترة أمام مصيرها المحتوم. فليس بالأمر

الهيّن أن يتقبل المرء ما فحواه أن هذه الجمرة المتوقدة المتوهجة سوف تستحيل إلى رماد، مثلها في ذلك مثل أية جمرة أخرى.

بيد أن أسئلتي لم تنته بعد. وأنا لا أسردها على مسامعك إلا لأنني أريدك أن تشاطريني همومي الكبرى، وإلا لأنني أرغب في أن تقلقي مثلي، أيتها السيدة العظيمة المقدار، وذلك لأن القلق، الذي ينفي عن النفس الرهل والبلادة البقرية، هو أقوى عامل بين جملة العوامل التي تجعل من المرء إنساناً، أو كائناً ذا قيمة جُلّى.

فلماذا ينحاز طبع الأشياء إلى الأوغاد بدلاً من الأجواد؟ ولماذا يمّهد السبيل دوماً، أو في معظم الأحيان، لنجاحهم وتفوقهم على كل من هو فاضل ونظيف، وذلك عوضاً عن أن يتبنى مهمة دحضهم أو عرقلة مسار أي منهم؟ ولماذا يمنحهم أكثر مما يستحقون بكثير؟ بل لماذا يكون للملقحين ضد الشرف أي وجود على الأرض؟ فقد أفلح أحد نقاد شكسبير حين طرح هذا السؤال: لماذا يسمح القدر لأمثال ياغو أن يولدوا، أو أن يجيئوا إلى هذه الدنيا الملعونة بألف لعنة؟

إن المثنوية، أو السمة الأولى للكينونة، هي التي تحتم أن يكون هنالك أوغاد، ما دامت قد أنجبت الأجواد أو جعلت وجودهم أمراً حقيقياً بالفعل. ولكن، أية صفة من صفات الكينونة هي التي حكمت لهم بالسيادة على الأنقياء والصالحين الشرفاء؟ إنه ناموس الغاب الذي لا يحترم إلا القوة حتى وإن كانت قوة

الغش والخداع، ويبيح للنذل أن ينتصر بأيه وسيلة مهماتك دنيئة أو خسيسة. ثم لماذا لا تجيء أيام الهناء إلا على ندرة فقط؟ فلئن كان المهم هو السعادة، فلماذا لا ننال منها إلا النزر اليسير؟ وهل صدق ابن عربي حين زعم بأن العالم خلق للهناء لا للشقاء؟ فلعل في السداد أن يقال بان المعادلة ليست متكافئة: كثير من التعاسة مقابل اليسير من السعادة والفرح. ولهذا، فإن بي حنيناً عارماً أو متأججاً إلى لقيمة من خبز تلك السعادة الحقيقية التي إذا ما ذاقها المرء تيقن من أن العالم قد صنع للمسرة والبهجة، وليس لأية غاية سلبية مهما يك نوعها.

وما السبب الذي حتّم أن يكون العداء أكثر حضوراً في هذه الدنيا من الإخاء، وأن تكون الكراهية أبرز وجوداً من المحبة؟ فمما يعرفه كل امرئ أن هنالك جيوشاً مسلحة بأفتك الأسلحة، ولا غاية لها سوى أن تمارس الحقد والصراع ممارسة عملية. وإنها لجيوش جرارة لا يحصى جندها ولا يعد. وان تأملها كفيل بأن يؤكد لكلّ ذي لبٍّ صحة قول غوته: «علمني هومرس أن من واجبنا أن نصنع جحيماً على الأرض». فبدلاً من أن نحول هذه الكرة إلى جنة حولناها إلى جهنم. ويلوح لي أن هذا هو قدر البشر الذي يحتمه طبع الأشياء. فهل هنالك جيش واحد،وليكن صغيراً جداً، هدفه أن يمارس الإخاء ومحبة الإنسان للإنسان؟ وهل رصد البشر أي مبلغ من المال في سبيل هذا الغرض حصراً، أعني جعل الحب الأخوي، بل

الحب جملة، أمراً له وجود فعلي في هذا العالم المسكين؟ فأنا شديد الإعجاب بقول ابن عربي:

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه، فالحب ديني وإيماني.

والآن، اسمحي لي أن أتساءل، أيتها السيدة المبجلة، أو أن أواظب على التساؤل قليلاً. ترى، هل تبقى للإنسان أية قيمة وكرامة في حضرة هذا السلاح الذي يبذ الجحيم؟ وحيال هذه الظاهرة الإبليسية، ألا يجوز الزعم بأن القسوة هي الصفة الأولى للوجود الحي، أو للبشر قبل سواهم من الكائنات الحية، وبأن القوة هي القسوة بالضبط، وبأن القسوة هي السمة الأولى للقوة، وبأن كل قسوة تتناسب شدتها طرداً مع درجة القوة الحاملة لها. أو يعقل أن يظل الحب ممكناً في وسط هذه الظروف الشرسة، بل الموغلة في الجنون؟ «الوجود سابق على الماهية». وهل ظلت هنالك ماهية ليسبقها الوجود أو ليلحق بها أو ليواكبها أو ليندمج معها في بنية واحدة؟

ثم ألا يجوز الذهاب إلى أن قادة هذا العالم ليسوا قساة وحسب، بل هم أغبياء بالدرجة الأولى. نعم، أغبياء وجشعون ويفتقرون إلى الطيبة التي أراها المنقبة الأولى للإنسان الحقيقي. وإنهم يلهطون ولا يشبعون. لقد صرفوا أموال الجنس البشري، أو شطراً كبيراً منها، على التسلح وتركوا مليارات الناس للجوع والفقر ومكابدة الفاقة والعوز. وفي قناعتي أن الإنسان لن يصير إنساناً على الأصالة إلا إذا استطاع أن يشن حرباً على الحرب.

كما أعتقد بأن ليس في ميسور أي امرئ أن يصبح إنساناً حقيقياً لا يجهل الكمال. فالإنسانية رتبة لم تعط إلا لخاصة الخاصة، أو لنفر يسير من البشر وحسب، وتظل الغالبية سادرة في الحيوانية إلى الأبد.

وما هذا النهم الراسخ في النفوس بدلاً من القناعة والاعتدال؟ أهو من فصيلة العقلانية أن تكتظ الأرض بأناس يتضورون جوعاً، يقابلهم أناس آخرون يعانون من التخمة؟ وإلى أين يسير هذا العالم؟ إلى أين تسير هذه المجتمعات التي يتحكم بها جشع يجهل الشبع؟ ولعل أهم أسئلتي وأعزها على نفسي أن يكون هذا: لماذا كانت الأمور والأحوال على ما هي عليه ولم تكن على أي نحو آخر.

وبقي سؤال لا أراه يقل أهمية عن أي سؤال سابق: من أين جاء العقل؟ من التجربة؟ ولكن التجربة فقيرة ضحلة محدودة والعقل غني منداح إلى حد لا يخفى على أي لبيب. أجل، إن التجربة العملية أو الإجرائية مسطحة والعقل موغل في العمق، بل إنه رصيد ضخم لا يتيسر توظيفة كله في الممارسة والعمل المنتج مادياً. ولكي لا يظل في حوزة الكسل فقد وظف نفسه في التفنن والتفلسف والتأدب. ههنا بالضبط وظف العقل ذلك الشطر الزائد من رصيده، أعني الزائد عن حاجة العمل والإنتاج.

فمما هو ناصع نصوع الظهيرة في يوم تموزي أن العقل يحوز من العناصر والقوى ما لا وجود له في التجربة، بل ما لا تملك

التجربة العملية أن تنتجه بتاتاً. فهل طوّر العقل نفسه بنفسه فبلغ إلى هذا الثراء الوافر العجيب؟ ربما. ولكن ما هو موضع ريب عندي، بل موضع رفض وإنكار، فهو أن تكون التجربة، وهي الضيقة المحدودة والشديدة الضحالة، قد أنتجت هذا العقل الشاسع المنداح، بل الشبيه بالمعجزة حقاً. إن مياه التجربة، وهي الفقيرة إلى العمق، لا يسعها البتة أن تحمل هذه السفينة الضخمة التي تسمى العقل الذي يتمتع بعدد كبير من الأسماء في اللغة العربية، وكل اسم له معنى خاص يؤشر إلى وظيفة واحدة من وظائفه الكثيرة.ولكن، أليس مما يثير الاستهجان، أقصد استهجان العقل نفسه، أن العقل يجهل كيف نشأ وترعرع ونما، حتى صار إلى حاله الراهنة التي تجعل منه أعجوبة الكون كله؟

أتمنى لو أن الفلسفة ما كانت إلا تساؤلاً عن صفات العيش، ولا سيما عن مثالبه، وتأملاً في قضايا الحياة العينية، أو في التجربة الواقعية التي يمارسها البشر ويعيشونها كل يوم. إن هذا أحسن من ذلك التجريد الذي قدمته الفلسفة بالفعل، والذي لا يخلو من التحذلق والتشدق. فهذا التفكير بالقضايا العينية ليس واضحاً لمعظم البشر وحسب، بل إنه يبحث في هموم الناس التي تغم الكثيرين وتغث بالهم.

والآن، ما رأيك بهذا المذهب، أيتها السيدة الكاملة المزوّدة بجميع المزايا الحسنة، ولا سيما مزية الرشاد وحضور الذهن الحصيف؟

- ١٧ -

أيتها السيدة الموقرة،

أود الآن أن أطرح عليك هذا السؤال الحاسم: هل أستطيع أن أحب الحياة بعدما حرمتني من أعز الناس على فؤادي الملتاع؟ ثم هذا: هل تستحق الحياة أن تعاش مع أنها مترعة بالمصائب والنكبات؟

إنني لا أستطيع أن أنساك بتاتاً، وإن صوتك العذب ما زال يتصادى داخل أذني كلتيهما مثل هطل المطر على الأرض المتصدعة من شدة العطش في سنة من سنوات الجدب. ولعل هذه الذكرى وأمثالها أن تكون الشيء الوحيد الذي لا زلت أحبه بعمق في هذه الدنيا التافهة، بل إنني ما برحت أحن ملهوفاً إلى أمور كثيرة عايشتها معك، أيتها المرأة الزاهرة اليانعة. ومما هو مدعاة للقلق أن المرء لا يملك أن يشكم فؤاده ويمنعه من أن يفرز الأشواق المبرّحة، أو من أن يدلق الحنين عارماً فوّاراً في بعض نوبات الهيجان واستحواذ الذكريات والرغبة في استرداد الخسارة كاملة غير منقوصة. إن ما يرضخ للكبح هو الآلة وحدها، أما الذات فهيهات أن تذعن لأية شكيمة مهما يك نوعها.

وفي الحق أنني أكتب إليك هذه الرسالة بعدما اهترأت عضلة قلبي، أو مضخة حياتي وأنفاسي، فصارت مثل الخرقة البالية وغير الصالحة لأي شيء. أجل، أكتب هذه الرسالة الملهوفة، رسالة الصبابة والهوى، بعدما صرت في سن عالية جداً ولكنني أتصرف كأنني أعيش في طور الصبا والغرام، أو في طور الانتشاء بعبير الأمل وعطر الغناء. ولا أكتبها من باب التصابي، بل استجابة لرغبة ملحة هدفها شرح الأشواق والحنين واللواعج المبرّحة، وكذلك بغرض التعبير عن حرَن الواقع إزاء مطالب الذات وحاجاتها العاطفية النازعة دوماً نحو التلبية والارتواء.

ثم إن بودي أن أحيطك علماً، يا سيدتي الفاضلة، بأن الشيخوخة النفسية قد هيمنت علي حتى لم يبق هنالك شيء يمكن له أن يسحرني أو ينعش الدهشة في قاع نفسي، مع أن الإنسان تواق على الدوام إلى أن يسحر أو يخلب، أو يقتات بشيء من الغرابة وما تدخره الأساطير والخرافات من فتون. ولولا جنوحه صوب الانتشاء بالخيالي، أو بما هو فوق الواقع، لما كان للفنون والآداب أن تعرف دربها إلى الوجود. واستناداً إلى هذا المبدأ النظري، كان لا بد لأي نص أدبي من أن يتصف بالعذوبة والجاذبية حتى لو دار مداره على المرارة حصراً، أو على القصص والزفرات الكاوية للضلوع.

فمما لا يخفى عليك، يا سيدة الفطنة والانتباه، أن الإنسان قدّر عليه أن يعيش مسغبة داخلية لا إشباع لها قط. وربما استحالت

هذه المجاعة إلى هاجس دائم يعذب النفس ويضطهدها، كما قد تستحيل إلى وسواس تكثفه الحاجات القصية الكبرى، فيلحّ مطالباً بالإشباع، ولكن دون طائل أو جداء تقريباً. ومما لا يخفى على الألباء أن ما ينال الارتواء من حاجات ورغبات جوانية عميقة ليس أعظمها أو أهمها، بل ما كان منها متوسط الرتبة، أو ما دون ذلك. أما أعلى حاجاتنا فلن تنال التلبية إلا لماماً، أو بالصدفة فقط. وهذا يعني أن حاجتنا إلى مواجهة العزلة والاغتراب تبقى على حالها في معظم الأحيان، ودون أي تخفيض كبير على وجه التقريب. ولهذا السبب، فإنني لا أرى الأشياء إلا مأهولة بالغثاثة والرثاثة وسوء الحال. وقلما أصادف أمراً أملك أن أحبّذه وأقبله وأرحّب به. وفي الحق أنني أجهل البشاشة والفرح المتدفق من الصميم، كما أنني عزوف عن كل ما هو مبهج أو أنيس. وإني لأستهجن حين أرى أناساً مسرورين في وسط هذه الكوارث الجديدة، وكذلك بين الهزائم التي جاءت بها السنون الأخيرة.

* * *

وأياً ما كان الأمر، فإنني سوف أظل أؤمن بالحب الروحي أو العذري النظيف، أو بهذه العلاقة التي تشدني إليك، يا سيدة الطهر والطهارة، يا نظيفة في عالم يلوثه القذر من جوانبه كافة. فربما كان أبو نواس محقاً حين زعم بأن «اللذاذة في الحرام»، ولكن ذلك الشاعر وأمثاله من الشهوانيين قلما يدركون اللذة الماتعة التي يمكن للمرء أن ينالها جرّاء التزامه بالمثال، أو أن

يجنيها من مقاربته وموالاته لكل ما هو من فصيلة المتعالي. فالمثل الأعلى منارة في الداخل من شأنها أن تضيء باطن المرء بما تشع من أنوار ساطعة أو كاشفة، فتوجه سلوكه في هذه الدنيا المنكوبة بالأنذال وأشباه البشر. فلا ريب عندي في أن الحب هو الحقيقة والحقيقة هي الحب. وهذه هي عقيدة ملتي. ولا أقصد إلا الحب الروحي على وجه الحصر والضبط. إنه حبي لك وحبك لي. وكل ما عدا ذلك لا يدخل في مملكة اللباب، وفي أحسن الأحوال فإنه في منزلة بين اللباب واللحاء.

ففي نحلتي أن الالتقاء بكل ما هو أغيد أو أملد لا يقل عن كونه حاجة كبرى من حاجات روح الإنسان. وفي ظني أن تربية المرء على رعشة الحب الروحي الشديد النقاء، وكذلك على الالتزام بالجمال والولاء لكل ما هو من فصيلة الألطاف الحسنى، تملك أن تجعله ينفر من الشر ويقاومه ويأباه. وعندي أن مقاومة الشر ينبغي أن تكون الهم الأكبر لكل تربية إنسانية أصلية تبتغي أن تعيد صياغة الإنسان. وما لم ينشأ الإنسان الجديد، إنسان الخير والحق والإخاء، فإن هذه الحياة سوف تظل سادرة في بؤسها إلى أجل يتعذر تحديده. وبودي أن أؤكد ما فحواه أن توجيه الفرد إلى الحب الروحي، وكذلك إلى تذوق الجمال والاستمتاع به، قد يقلص هذه المجزرة التي تدور في العديد من البلدان خلال الحقبة الراهنة.

إذن، ها أناذا، كما ترين، يا امرأة صيغت من ماهية القداسة، أنزع إلى أن أكون واحداً من المنافحين عن الروح وأهل الروح

في زمن العدوان الذي تشنه المادة وأهل المادة، بعد ما فاض شرها وطمى حتى شمل الأرض وغمرها بدمار يحاول أن يوهم العين الساذجة بأنه عمار. ولقد استطاع هذا الهجوم الذي تنفذه المادة لتدهم الروح في الآونة الأخيرة أن يكبّ الإنسان على وجهه ويحوّل حياته إلى مرارة لا تحتمل. ولقد تمكنت هذه الهجمة المادية الشرسة من أن تدحر الروح وتحصره في هامش الحياة، كما تمكنت من إسقاط المثال أو من تقليصه وجعله شيئاً ضامراً قد لا يزيد حجمه عن حبة خردل. ففي الحق أن المثالية هزمت أمام المادية خلال السنوات الأربعين الأخيرة هزيمة لم تعرفها قبل اليوم.

ولهذا، فإنني كثيراً ما أطرح على نفسي هذا السؤال: كيف يسع الروح أن تزدهر في عالم تجتاحه البضائع والأموال والأسلحة والمجزرة الكربلائية اليومية؟ وهل ظل في الميسور أن يكون هنالك حب روحي أو غير روحي في سواء هذه المباءة المنتنة والكريهة الرائحة؟ وقد لا أجانب السداد إذا ما زعمت بأن درجة الفساد في أي مجتمع تتناسب طرداً مع كمية المال الموجودة فيه. كما أنني قد أحالف الصواب إذا ما ادعيت بأن قيمة كل فرد تكمن في داخله وليس في خارجه. وهذا يعني أن قيمة الفرد لا تتحدد بما يملكه من أموال، كما أنها لا تتحدد بمنصبه أو بدرجة نفوذه. وأحسبك سوف توافقين إذا ما أعلنت بأن على الأخيار في العالم بأسره أن يشنوا حرباً ضد الحرب والسلاح والمال والبضائع. ففي هذه القوى الأربع يربض الشر كله. ولا ريب في أنها ألد أعداء الإنسان.

وعندي أن المتكيفين مع الأوضاع الجديدة، أو مع الشرور، هم كائنات تفتقر إلى الحساسية، بل إلى الخير، أيما افتقار. وفي ملتي أن الجوهر الإنساني لا يتجسد إلا في الفرد الحساس وحده. والفرد الحساس، وهو كائن شديد الندرة، قلق ومضطرب أو متوتر بالفطرة، أي أن طبعه قابل لإفراز الشعور بالبؤس من تلقاء نفسه، ولا يألو جهداً ليهدئ باطنه المتمور، فيفلح لهنيهة، ولكنه يخفق لساعات طويلة، فيعود إلى تمزقه وتخلعه من جديد.ومع ذلك، فإن وجوده معيار من شأنه أن يؤكد ما فحواه أن المجتمع ما زال يتمتع بشيء من الصحة والسواء، لأنه ما أنفك يحتوي على أناس يعجزون عن النجاح أو عن التكيف في وسط هذه الشرور كلها.

* * *

وعلى أية حال، فإنني لا أدري ما إذا كنت أوجه هذه الرسالة إلى امرأة ما زالت حية ترزق، أم استحالت إلى عظام نخرة تبلى في ضريحها وتذوب لتتحد بالتراب إلى الأبد. ولو كنت أعلم أين ترقدين، يا من فدتك نفسي، لهرعت إليك واحتضنت حجارة لحدك وذرفت غزير الدموع وسخينها، راجياً رب الموت والحياة أن يجمعني بك في عليين مع الأبرار والأطهار. وكنت سوف أفعل ذلك بحماسة، على الرغم من المرض الذي يقعدني ويملي علي أن أكون طريح الفراش أو حبيس المنزل على الدوام.

ولكن، حتى لو كنت تحت الثرى، أيتها المرأة النفيسة، فإن هذه الرسالة يظل لها ما يسوّغها، وذلك لأنها تخاطب طيفك من وراء الضريح. وأهم ما في الأمر أن لهذه الرسالة سلطة عليّ، فهي تأمرني وأنا أطيع وأصدع بالأمر، فتفرض إرادتها لأنها تريد أن تولد وأن تكون. وها أنا ذا أشعر، إذ أكتبها، بأنني أنفذ أوامر سرية تملي عليّ ما تبتغي من رعوش أو شعور. فكأنني أحيا حالة إلهام لا تعنو لأي وصف أو تمحيص. وفي بعض الأحيان كنت أشعر وكأنني بلغت إلى الحد الفاصل بين العقل وبين تلك الفسحة التي يتعذر الولوج إليها أيما تعذر. وعندئذ يرتجّ العقل ويترنح قليلاً، وذلك لأنه يكون قد ارتطم باللامعقول. ولكنني سرعان ما أهيمن على نفسي وأعود إلى سيرتي الأولى.

أرجو الله أن تكوني لا زلت على قيد الحياة، كما أرجوه أن يضع هذه الرسالة بين يديك لتطالعيها ولتعلمي مدى ما أكنّه لك من حب ومن شوق يكوي ضلوعي ولا يمارس عليّ سوى التعذيب والاضطهاد. كما أرجوه أن تكوني على خير ما يرام، مكنوفة بالعناية والرعاية، ومنخرطة في عيش رافه رغيد.

أما أنا فمحاط بالغوغائية والأمية والتخلف، وكذلك بالصخب والوسخ والزحام والفوضى التي يصنعها الاكتظاظ. فقد فاضت الأشياء فيضاناً كميّاً لم يؤلف من قبل. ولعل أهم ما في أمري أنني لا أمل لي بالخروج من هذا المأزق في أي يوم من الأيام. وبعد هذا الخبر، صار في ميسورك أن تدركي مدى التعاسة

التي انخرطت فيها منذ زمن ليس بالقصير. وبينما يضطهدني البؤس ويجلدني الشقاء، فإنني أتحسر على تلك الأيام التي عشناها معاً، والتي أراها أعياداً راحت تتلاحق عيداً إثر عيد، ولكنها تلاشت بغتة لتخلف لوعة ربضت في سويداء الفؤاد.

ولقد تركت هذه اللوعة نتائجها الوخيمة على داخلي المضطرب، كما خلقت في بنية النفس كآبة جعلتني ميالاً إلى الانطواء على ذاتي إلى حد لا يخفى على الناس. وحيثما ذهبت، فإن عزلتي تصحبني حتى ولو كنت وسط قطيع من البشر. وعندي أنْ قد أصاب من قال: «الاستئناس بالناس من علائم الإفلاس». ومما يشجعني على هذا الموقف أن المجتمع كثيراً ما يواجهني بكل ما هو منغص أو كريه. وحين أجالس أحد الأشخاص أشعر في الغالب، بأنني أجلس مع حية أو عقرب. فلا أعرف متى يباغتني فيلسع أو يلدغ. ولكنه يفعل هذا في معظم الأحيان، وعلى حين غرة. وهذا يعني أن معظم الناس أوغاد صفتهم الأولى الرداءة والحقارة وخسّة المعدن.

والأهم من ذلك كله أن العزلة وحدها هي المبدعة، إذ من المحال أن أبدع إلا حين أكون وحيداً ومحاطاً بالصمت والسكون. ومع هذا فلست أنكر أن بعض الناس يشبهون الغيث، وذلك لأن النفوس تنتعش بهم كما تنتعش الأرض بالمطر. وهؤلاء هم الذين يصلحون لمجالسة الملائكة في عليين. فهم نقاوة الجنس البشري وخلاصته النفيسة التي لولاها لما كان على الأرض سوى الشرور.

- ١٨ -

أيتها المرأة التي تحضر صورتها في وجداني كما تحضر الشمس في فضاء الكون، هو ذا البرد شديد هذه الليلة من ليالي تشرين الثاني، على غير عادة، وأنا أكابد نوبة من نوبات الحنين المبرّح إلى وجهك الوّضاح، فضلاً عن أنني أكابد أرقاً لا يرأف بشعوري الملتاع. وهذا يعني أنني الآن عرضة لهجومين يشنهما عليّ عسران، بدلاً من عسر واحد، أولهما ينخسني من الخارج، وثانيهما يحزّ في نفسي من الداخل. وأنى لي أن أصمد في وجه عسرين يدهمانني معاً، وأنا هش كالقش، أو بغير أية قوة أو صلادة. ولكنني أتطلع إلى نضارة الصباح الذي أراه مخلّصي الوحيد من هذه الأزمة المتفاقمة، والذي لا زال بعيداً جداً عن هذا الآن المتوتر الحرج. ولذلك، لا بد لي من معاناة الأرق والعتمات المتراكمة وطوفان الأوهام المشوش، قبل أن تبزغ الشمس ليغمر نورها الكائنات فيجيء الفرج.

إذن، ها أناذا وحيد في مواجهة الليل والصمت والعزلة، ولا شيء يشايعني أو يصطف إلى جانبي بصدق وحرارة، على شدة حاجتي إلى من يشد أزري ويسند ظهري في برهة تفتقر إلى الأسانيد. وبسبب كثافة الصمت الذي أكاد أن أسمعه ينبض أو

يتكلم، فإنني أشعر بوحشة الكون وكآبته ووعورة أرضه وصعوبة السير على دروبه الملتوية. ففي سواء هذه الوحدة التي تحاصرها الظلمات المتراصّة أراني فريسة لقلق يحتّمه تقهقر الروح في عالم بغير قوانين ولا مبادئ إنسانية أو أخلاقية. فكل شيء مباح هذه الأيام، وما من شيء محرم إلا ما يعجز المرء عن أن يفعل أو أن يطال. فما هذه الحال التي صرنا نتخبّط داخل مجاهلها دون أن نعرف أيما درب تفضي إلى الخارج الآمن. فلا غلو إذا ما صرّحت بأن الإنسان آخذ بالاتضاع والهبوط صوب الأسفل، أو بالولوج إلى دائرة الغوغائية التي يفقسها انحطاط الحضارة.

ولا يحصر الأرق نفسه في المعضلة الأخلاقية ومثالبها التي هي صفة البشر في كل زمان ومكان، بل هو يمتد ليشمل السر المنتشر من أوج الكون إلى قاعه السفلي المجهول. ولهذا، فإن علينا أن نحترم ذلك العنصر المستور الراخم في داخل كل شيء. وإنني لأشعر، حين أتلمس السر، أو أتحرى أصل الكينونة، بأن الأشياء قد تعطل فيها التنفس، وبأن فؤاد كل كائن قد كفّ عن الخفقان. ولكنني في لحظة مباغتة عابرة، يتراءى لي السر وقد استحال إلى ثمرة يانعة جاهزة للقطف فالالتهام، أو صار زهرة متأججة فوّاحة الأريج، أو أن أريجها ليفغم الأنف ويملأ المكان. ويلوح لي أن الليل، أو نصفه الثاني، هو خير وقت للتحرش بالسر، وذلك لأنه يحرّض البصيرة على الفعل والانفعال. ولكن

النهار الشديد الميل إلى النصوع، أو إلى خدمة العين والبصر، بدلاً من البصيرة، هو الوقت المناسب للتحرش بالجمال، أو انسجام الكائنات. فلعل في البداهة أن يقال بأن الجمال نوري أو نهاري إلى حد بعيد. ولكنه، مع ذلك، أكثر جاذبية من السر، وذلك لأنه سر مكشوف تتغذى به الروح على الدوام.

والآن، أيتها السيدة التي آمل أن أراها قبل أن يفني الزمن هذه الحشاشة، الطفيفة المتبقية مني، هل ترين شيئاً مبهجاً ما زال في دربي بعدما تخطيت السبعين بكثير؟ ولعل هذا السؤال البسيط أن يكثّف المعضلة ويلخصها ويوضحها: لماذا أتعذب بغير جدوى؟ فلئن كانت نضارة الصباح آتية لا محالة، حتى وإن تمادى الأرق وتأزم عذاب الانتظار في هذا الليل الساكت البهيم، فكيف يمكن لنضارة العيش أن تجيء بعدما افتحل المرض، واستطال العمر، وفني كل رجاء، وصار الأجل قاب قوسين أو أدنى.

ما أصعب الحياة بغير أمل، أو بغير غد نتوقعه ونرجوه! فحين يترمّد الأمل في بؤرة النفس، فإنها لا تعود مأهولة بشيء سوى الخلاء تكابده وقد علق جناحها في فخّه الفولاذي المقيت. وعندئذ، فإنها لا ترى الكائنات إلا موحشة كئيبة ورمادية المذاق. وكيف لي أن أخلص من هذه الحال التي لا أرى مخرجاً يخرجني منها غير الموت. ولكن الموت يماطل ويماطل ولا يمل من المطال. ولولا جمال المنجزات الفنية، وكذلك لولا ما تدخره الطبيعة من حسن جذاب، بل خلاب، لما بقي في هذا الكون غير بؤس وشقاء وأوجاع لا سكون لها آخر الدهر.

وحين ينبثق شعوري من جمال الطبيعة الوضّاء، فإنني أتذكرك وأتذكر الحب، أو ميل القلب إلى كسر حدة الخواء المهيمن على الشيخوخة. وعندئذ أراني أدرك ما فحواه أن الحب هو الفرح بالوجود، والابتهاج بالحياة. أو بأننا كائنات تكره الموت والعدم وتبتهج بالحركة والتنفس والصحة الوردية اللون.

فرفقاً بي أيتها المرأة الطيبة، لأنني أتوتر بين حدَّين متطرفين، بين الوجود والعدم، أو بين الحياة والموت، وإذ أحتاج إلى عون فإنني لا أصادف سوى اللامبالاة في زمن الأقزام هذا. فليتك تهرعين إليّ على الفور، إذا ما وقعت رسالتي هذه بين يديك ذات يوم من الأيام الدانية أو الآتية قريباً. ولئن حدث ذلك بالفعل، فإنني سوف أكف عن اتهام هذا العصر بالقماءة والبذاءة. كما أني سوف أنظر إليه على أنه من أجود العصور التي عرفتها الأرض في غابر زمانها الطويل. ولئن لم يحدث، فإن كل شيء سوف يظل موحشاً وكئيباً حتى أجل غير مسمى. ولكنني أكاد أن أجزم بوجود غريزة سرية تستقر في أعماقك، ويمكن لك من خلالها أن تشمي رائحة هذه الرسالة فور خروجها من المطبعة، حتى وإن كان بينك وبينها مئات الكيلومترات. وربما صدق حدسي بأنك إذا ما قرأتها فما من قوة على الأرض سوف تثنيك عن المجيء إليّ بأقصى سرعة ممكنة. فلا ريب عندي في أن طبعك النبيل لا يتحمل أن تعلمي بما أكابد من بؤس وأن تظلي

على الحياد لا تبالين بي مهما تكن النتائج. وفضلاً عن ذلك، فإن الصلة الطاهرة التي بيننا لا تخرج عن إطار الكلام، حتى كأننا أخ وأخت، بدلاً من أن نكون عاشقين. وبسبب النجاة من الدنس وما يجلب من سوء السمعة، فإنك لن تتهيبي من الاندفاع نحوي دون ريثٍ أو إبطاء.

ليتني أراك لأعرف ما قد حل بشعرك الفاحم الغزير ووجهك الضاحي الصقيل وخصرك الضامر اللطيف. فما من شيء يبقى على حاله في عالم دأبه التبدل والتغير على الدوام. ولكن، أما طرأ أي عيب على روحك الأصيل النبيل؟ فمما لا أنسى أنك ما كنت تطيقين العيش في الواقع، وتحبذين المثال والخيال والصور الآتية من عالم الروعة اللامنظور. فهل تغيرت، أيتها المرأة العظيمة، فهجرت المثل وسمحت للمادية الفقيرة إلى كل قدرة على الأخذ أن تستولي عليك فتدعّك إلى دائرة الغرائز حيث يستتب الانحطاط؟ وهل حلت الجلافة، بسبب التقدم في السن، محل اللطافة التي كانت سمتك الأولى في ماضينا المشترك؟ وأي نقص حل بمزاياك الكبرى، ولا سيما نزعتك الإنسانية وحرارة روحك وحيويتك الرائعة ونضارة حضورك؟ فبهذه المزايا العظيمة أظنك تشبهين كاهنة من أولئك اللائي يسهمن في سدانة السر الكبير الذي لا يباح لأي من سدنته أن يفشي من كنهه ولو نتفة صغيرة لا تزيد عن قلامة ظفر.

ولقد كنت ذهناً يعمل بأوامر الوجدان دون أية مواربة أو استعصاء، فهل بقيت على تلك الحال أم أنك قد تغيرت على نحو جذري أو نسبي؟ ولكنني لا أحسبك قد خسرت الحلم والحنين إلى شيء يستحق أن يعاش من أجله. وعهدي بك أنك فيّاضة بالطاقة والحيوية ونضارة الروح دوماً، فكأنك تشعّين حضوراً وإرادة ووداداً على جميع الكائنات المحيطة بك أو القريبة منك، فتغمرينها بأنوارك البهية الساطعة. ومما قد لا يخفى على أحد أن حبك للحياة يصدر عن هذه الحيوية والنضارة الداخليتين اللتين تتمتعين بهما، يا سيدة الخصوصية والتفرد الأصيل. ولهذا كله، لا أحسب أن الزمن قد سمل من روحك ولو خيط شعاع واحد، ولكنني أحسب أنك أبعد الكائنات الحية عن الموت في الحياة. فأنت تغتبطين بالعيش كما يغتبط وثني بأصنامه التي يتزلف إليها دون أن يعتوره أي فتور.

ولعلك اليوم تعتقدين بأنه ما من درب تفضي إلى أي مكان إلا إذا كانت من مملكة الحلم والخيال. ولكنني لا أخالك تبحثين عن درب من شأنها أن تؤدي بك إلي. أما أنا فما برحت أنقب عن درب قد تفضي إليك، يا غاية جميع الوسائل والغايات دون استثناء. وإنني لأعتقد جازماً بأن ثمة، في الواقع لا في الوهم، درباً تفضي إليك حقاً، ولكنني لم أستطع أن أعثر عليها حتى الآن، ولم أفطن إلى النقطة التي تبدأ منها بعد. وكلي ثقة بأنني سوف أصادفها ذات يوم، فأنا إن نسيت

جميع الدروب فلن أنسى الدرب التي تؤدي إليك إلا مؤقتاً وحسب، أيتها الأنوثة الكاملة. ثم إنني أنا المتشائم كثيراً، أصير متفائلاً جداً حين يتعلق الأمر بك وبلقائنا الذي لم يعد لوجودي من هدف سواه، ومما أراه حقيقة كبرى مثل الشمس والقمر أن من كنت أنت همّه، فإن همّته فاعلة قوية بالضرورة، لا يعتورها الخور ولا يعوزها المضاء، فلا تعجز عن تحقيق أهدافها مهما تك عسيرة أو شاقة.

وإذا ما تحقق هذا الهدف العظيم، فإنني سوف أنظر إلى حياتي بوصفها نجاحاً باهراً لا يبذه أي نجاح آخر قط. وسوف يرشح شيء من باطني على ظاهري، فيتبدى السرور على صفحة وجهي لامعاً واضحاً لا تخطؤه مقلة العين مهما تك كليلة أو حسيرة. ويومئذ سوف يتحقق التكامل وأعيش العيد الأكبر، عيد السعادة والحبور، أو أعظم عيد في عمري، وبصحبة الأنوثة الكاملة السامية.

- ١٩ -

أيها الغزال الضائع في براري الأرض وسهوبها، لقد أحاط بي القبح من كل جانب، فمن حبس المنزل الذي قلما أغادره إلى الخارج الرحيب لا أعاين أي مشهد جميل سوى شجرة من تلك الفصيلة التي تسمى «المجنونة». وهي تتسلق جدار البناية المجاورة لنا من الجهة الغربية، وتعرّش على شرفة أحد البيوت في تلك البناية المقابلة لبنايتنا تماماً. فأجلس يومياً على أريكة في داخل منزلنا وأتأمل زهرها الدائم المتأجج أو الشديد الشبه بالنار، ولا سيما في الصيف والربيع. وهذا يعني أنها حصتي من الطبيعة في هذه الأيام، ولا حصة لي سواها على وجه التقريب. ويا له من مشهد خلاب وفريد في وسط هذا القبح الشامل الذي يكتنفني، بل يحاصرني، من كل حدب وصوب. فهذه الشجرة في نظري حارس يحرس الوجود، فيشكم البشاعة ويضبطها ويمنعها من أن تطغى أو تتفشى في كل شيء. ولهذا، فإنها حقاً عزاء صغير لفؤادي العليل في قلب هذه الخرائب

الشنيعة الموحشة، وهي التي أراها صورة خارجية لمحتوانا الداخلي، أو نسخة ماحلة جرداء عن ماهيتنا الهزيلة أو الفقيرة إلى كل ما هو ذو بال.

ترى، لماذا كان حالنا على هذا النحو ولم يكن على أي نحو آخر؟ ألم ننشئ حدائق بابل المعلقة، ذات طور من أطوار التاريخ؟ فكيف آل مصيرنا إلى ما هو عليه الآن، أيتها السيدة التي لا أعرف أيما ذهن أخصب من ذهنها النجيب؟ كيف خسرنا ذلك الذوق المرهف الذي رفع تلك الحدائق الغناء اليانعة؟ كيف؟ ومتى؟ ولماذا؟ هل لديك أية إجابة لها القدرة على تهدئة فورة الذهن العاجز عن البلوغ إلى الهدوء والطمأنينة؟

ولعل أهم ما في أمر هذه العريشة التي لا تكفّ عن الإيراق والإزهار، طوال العام تقريباً، أو بعد استثناء جوف الشتاء، أنها تخفف عني وطأة ما أكابد من غمّ وكدورة في النفس، بل لعلها أن تعّد بحق رشفة ترياق صغيرة من شأنها أن تساعدني على تحمل هذه التعاسة التي تحيق بي من جميع الجهات. ولهذا، فإنها تملك أن تقنع كل امرئ مهما يك متشائماً، بأن الحياة لا تخلو تمام الخلو من الكائنات القادرة على أن تنسج الهناء والوجدان السعيد. ونظراً لما تسديه إليّ من صنيع حسن، وما تجلبه إلى

الروح من فرح أو سرور، فإنني أتمنى من كل قلبي أن أكون رساماً لأخلد هذه الشجرة النفيسة بلوحة عظيمة أو دعها في واحد من أشهر متاحف العالم.

* * *

ولكنني، مع شدة ميلي إلى كل ما هو جميل، أستطيع أن أؤكد ما فحواه أن الجمال، مهما يك فاتناً أو خلاباً، لا يملك القدرة على دحر الشعور بالألم، بينما يملك الألم كل قدرة فعلية على طمس الشعور بأي جمال في هذا العالم. أجل، مع الألم يستحيل العالم إلى قبح وحسب. ولكن هذه النزعة من شأنها أن تغاير المذهب المثنوي الذي يند عن كل نقض أو تهديم، والذي لا يرضى إلا بأن يكون الشيء وعكسه حاضرين في الوجود على نحو مؤكد. ولهذا، فإن في الميسور القول بأن وجود الألم من شأنه أن يحوّل جل مساحة الوجود إلى قبح، أو لنقل إن الشعور بالجمال يتقلص أو يضمحل حتى درجة مرعبة حين يتذكر المرء وجود الألم وفاعليته وقدرته على ترميد شطر كبير جداً من رقعة الحياة. ومع إيماني بأن الجمال غذاء الروح، وبأن وظيفته الأولى هي تلطيف الجلافة أو القسوة التي أراها الصفة الأطغى على الحياة، فإننا حين نخسر الشعور بالجمال لصالح

الألم الشديد لا نكون قد خسرنا كل شيء، وذلك لأن الألم أقدر من الجمال على تهذيب النفس وصقلها وتحسينها. وفي قناعتي أن الألم الرزين أليق بالنفس الكبيرة من أي شيءٍ أخر.

* * *

أيتها الروح التي لا يتطرق إليها فساد أو عفونة، أيتها الهوية السرية المبثوثة في أرجاء الكون كله، لعل مما هو ملائم في هذه اللحظة أن أنوه بأن شعاعاً اختراقيّاً يصدر عن بصيرة ثاقبة، هو وحده القادر على الاتصال بالكنه الجذري للوجود. ولعل في الميسور الذهاب إلى أن كل تفكير لا يصنعه هذا الشعاع السري النفيس، والذي قد تخالطه رغبة شوقيه في البلوغ إلى قرارة الأشياء الراسخة، أو إلى نواتها الأولى، لا يتمتع بالقيمة الجلّى في دنيا التفكير، وإن كان لا يخلو خلوّاً تاماً من الجاذبية والأهمية. وربما صح الزعم بأن الهم المتفوّر، أو القلق المنهمك بالعثور على الحق، هو استطاعة فعالة وشديدة القدرة على معانقة المخبوء. نعم، القلق الذي يمازجه اللوبان الحميم على سرّ الكينونة والاشتياق إلى لقياه هو الجذر الأول لكل تفكير أصيل. فمن دون الصدق، ومن دون الحنين الدافئ العارم، أو لنقل من دون الصدق الحنيني الأصيل، سوف يكون من المحال أن ينجز الذهن البشري أيما انجاز يستحق التبجيل والتكريم .

إذن، يتراءى لي أن ثمة واقعاً أسمى أو أعلى يرخم خلف المرئيات وينداح إلى ما لا نهاية. وهذا هو عالم السر، أو عالم الرؤيا والزكانة، الذي لا يقل أهمية عن عالم الجمال المرئي في نظر الروح المرهف. ولكن هذا الانشطار الذي حتم أن يكون هنالك علّو ودنو، أو مياومة ناشفة ماحلة، والذي أراه قدراً يرصد البشر، ولا مفر منه بتاتاً، ما دامت لنا أرواح نفيسة وحاجات مادية خسيسة، هو ما قد أنضج الفن ودفع الإنسان إلى ممارسة الصوفية، ولا سيما تجربة الاتحاد، وذلك ابتغاء الاتصال بالسامي والرفيع، وهو ما لا أظنه يقبل الحدوث إلا من خلال تماسّ سريع الزوال. وليتك تسمحين لي أن أنوه لك، يا سيدة تتمتع بأنشط خيال عرفته في حياتي، أن هذه الرغبة، أعني رغبة الالتقاء بالعلو، هي الغاية المشتركة بين الفن والصوفية. ولا أحسب أن من شأن هذا الأمر أن يخفى عليك، ولكنني ذكرته لأنه يستحق الذكر في هذا الموضع.

ترى، هل سيتاح لي أن أعثر ذات يوم على ذلك المفتاح الذهبي، أو على «افتح، يا سمسم»، لينكشف أمامي كهف نفيس يختزن جميع الأسرار والألغاز والمستورات، وجميع الكنوز العظيمة، بل كل ما هو من فصيلة الحقيقة التي لاب عليها الذهن البشري، طوال آلاف

السنين، دون أن ينال سوى نتف تشبه الفتات، والتي سوف يظل يلوب عليها قلقاً مهموماً حتى أخر الدهر؟

ويلوح لي أن الروح سوف يظل ينافح ويكافح على الكثير من الجبهات: جبهة الجمال، وجبهة الفن، وجبهة الحب، وجبهة العلاقة مع الآخر، وجبهة السر، وجبهة الشر حيث يزفر التجار أنفاسهم السامة. وربما كانت هنالك جبهات أخرى كثيرة، ولكنْ تعوزني القدرة في هذه البرهة على تحديدها كلها. وقد يجوز الزعم بأن الكفاح على أية جبهة من هذه الجبهات هو من العسر والمشقة بحيث يشبه ترويض النمور، أو تدجين الحيوانات الشديدة القدرة على الافتراس. ولكن أهم ما في الأمر أن الإنسان قلما يحصل على طائل وثيق الصلة بأعمق حاجاتنا الروحية أو الوحدانية. وهذا هو قدرنا المشترك الذي أراه الاسم الآخر لطبع الأشياء.

* * *

والآن، أيتها النخلة الباسقة في فضاء هذا الكون الشاغر، بسبب غيابك المرير تشتعل في سريرتي حاجة ملحة واحدة، وهي أن ألتقي بك قريباً، يا زبدة الأشياء كلها، ويا أجمل شجرة ورد غرستها يد الألوهة نفسها . فلئن كانت الشجرة المتسلقة

على جدران الجيران قد فتنت روحي إلى هذا الحد المسرف، فماذا عسى روحك الهيفاء اليانعة أن تصنع بوجداني لو أنني التقيتك ذات يوم ليس ببعيد؟

ففي شعوري أن كل شيء يكابد عريه الدائم منذ أن رحلت قبل خمسين سنة وحتى يوم الناس هذا. وإنه لعري بارد شائن قبيح، ومن شأنه أن يجعل الحياة والموت، أو الوجود والعدم، صنوين متساويين تمام التساوي. فكأن الأشياء قد خسرت كل دافع يمكن له أن يدفعها نحو أن تكون وهذا هو الخلاء الروحي الذي يسببه نفي الحب، أو ذلك الفعل السلبي الذي يملك أن يجعل من الحياة هباء منثوراً. وما لا يقل أهمية عن هذا النفي أنه لا وجود لأي تعويض يسد مسدّك أو يملأ جزءاً من الفراغ الذي تتركين. لقد اغتالني رحيلك، يا امرأة ظهرت لي في حلم ذات ليل. فلئن قيّض لي أن أراك فعلاً، فإنني سوف أصادف تلك القيمة التي لا تبذها أية قيمة أخرى في هذا العالم. ولهذا كله، فقد بتّ أنظر إلي غيابك بوصفه رمزاً لغياب الماهية عن هذا العالم المسكين، أو أقله لنفي السعادة والمحبة من هذه الحياة التي أراها شبيهة بالقفار بعد تجريدها من كل اتصال في العمق بين الأفراد، ولا سيما ذلك الاتصال الغرامي النبيل الذي يدمج الذكر بالأنثى على مستوى الروح قبل الجسد. فكيف

يطيق الناس أن يعيشوا بغير هذا الالتحام القادر على إنتاج الشعور بالسعادة والهناء؟

لعل أهمّ ما في أمرنا، نحن البشر، أنَّ الأشياء التي نحصل عليها بالفعل ليست أقصى غاياتنا العزيزة على أفئدتنا، وأن كل ما هو غاية قصوى لا نناله بتاتاً، أو ربما نلناه بالصدفة وحسب. وقد يجوز الذهاب إلى أن هذه المعضلة هي الداء الأكبر لحياتنا المأهولة بألف داء وداء. نعم، كل ما هو عزيز على الفؤاد لا ينال إلا في الخيال، أو في الحلم الذي أراه ضنفاً من أصناف الخيال. فكيف لنا أن نحصل على الحب والسعادة، إذن؟ هل هنالك من يعرف من أين تبدأ درب السعادة؟ وإذا لم نحصل على السعادة، أو على الغبطة إلا لماماً، فكيف نطيق هذا الجفاف الذي قد يجمّد الدماء في الشرايين؟ ترى، هل بانت سعاد، كل سعاد على الإطلاق، وإلى أبد الآبدين؟

ثم هل يحق لي أن أفترض بأن الروح قد ابتكر فكرة القداسة لتجئ بمثابة تعويض عن هذا الغياب الكبير القادر على أن يلطم الحياة بالتصحر الروحي المقيت؟ وهل أنقّب عنك لأنك تجسيد للصورة المسبقة الصنع في خيالي، والتي هي بمثابة تجريد للحياة الطوباوية اللذيذة التي أريد لها أن تعم هذا العالم الفقير إلى كل ما هو من مملكة اللباب؟ ولكن، أفي

جوف هذه الشيخوخة الشاملة لجميع تفاصيل هذا العالم، أنتظر منك الإنابة إلى روحي الملتاع، وأؤمل في الوقت نفسه، أن يحصل البشر على سعادة أصلية قوامها الحب والمسرة والبرء من كل داء؟ لقد أسرف العالم في الشيخوخة فأفلس، أو التهمته الأوجاع والأوهان، حتى ما عاد في ميسوره أن يمنح الإنسان الحساس أيما شيء ذي بال. فها قد جاء الانحدار الكبير وانتهى الأمر، بل حسم كل شيء، فصار العالم غريباً عني إلى حد لا صلح معه بتاتاً. ولهذا، لم يبق إلا أن أعلن ما فحواه أن المستقبل استهلك سلفاً، لقد استهلكه هذا الحاضر وهو يحشرج بصوت مسموع.

إذن، أغلقت كل باب، حتى باب الزمن الذي لم يأت بعد. ولكن اللوبان عليك، أو على معنى الوجود، سيّان، قد أشعل ناراً لاهبة في دمائي المتفورة سلفاً. ألا تعني هذه النار المتوقدة في كل خلية من خلايا بدني أنني لا أومن بصحة ما أقول، أو أنني اظهر شيئاً وأبطن ما يغايره. ولو كنت أؤمن بما أعلن لما طرحت هذا السؤال: هل سوف يتيسر لهذه الحمى المتفشية في دمائي أن تبرد ذات يوم؟ ولا هذا: أليس هنالك أي جداء من أن يوقد المرء شمعة الأمل في سواء هذا الظلام الدامس، ثم ينتظر الخير الذي قد يأتي وقد لا يأتي؟

لقد صرت مثل طفل صغير يحاول المشي ولكنه لا يعرف كيف ينقل رجليه. إلى أين أسير، إلى الأمل أم إلى اليأس؟ إن الحياة الأصلية هي التوازن بين الضدين، كل ضدين متقابلين، ولكن التوازن قد اختل في هذه الأيام لصالح اليأس المكثف المخيف. والأهم من هذا الاختلال أن معضلتي تكمن في أنني لا أجد أي مذاق عذب لأي شيء مهما يك نوعه. ولهذا، فإنني أتوتر على الدوام، بل أقلى في مقلاة هذا العالم، فتتفحّم عظامي، أيتها المرأة المحايدة التي لا تبالي بي وبما أقاسية من عذاب مرير، والتي بتّ أرتاب حتى بوجودها، أو بكونها ما زالت على قيد الحياة.

* * *

ها أنا ذا أتمطى على تخوم الخواء حيث أطفو مثل خشبةٍ على سيلٍ جارفٍ، وتقضمني كائنات مرعبةٌ تعترض سبيلي بين الفينة والأخرى، وتعتدي على روحي الأعزل المسكين. إنها تشبه الحشرات ولكنها تجسد الرعب الاضطهادي الكئيب. أو يعقل أن يتعفن جسدي على هذا النحو المميت، وأن أنحدر باتجاه الهاوية التي لا ينجو منها أحد، دون أن أتمكن من النهوض بأي إسعاف أو إنقاذ؟ أما أنت فلا أسمع لك أي صوت من شأنه أن

يحمل ولو نتفة من عزاء إلى سريرتي المقرورة على الدوام. ولعل صوت الانهيار أن يكون الصوت الوحيد الذي أسمع في هذه الأيام الماحلة، يا امرأة جعلتني شديد القدرة على تحسس كل شيء، مع أنها غائبة عني إلى حد اللوعة.

لقد رحت أذرع أرجاء الوجود كلها. بحثاً عنك، أو عن فلذة مما هو ذو قيمة أو أهمية، فلم أصادف سوى قفر ينداح إلى ما لانهاية. ويبدو أن من يبحث عن السر، أو أن من يلوب عليك بلهفة صادقة، لا يعرف الطمأنينة أو هداة البال بتاتاً، وذلك لأن الطمأنينة من نصيب سدنة الأسرار وحدهم. وبودي أن أؤكد لك ما فحواه أن جوع الروح، مثل جوع الجسد، لا يسعه البتة أن ينتج السعادة في النفوس الحسّاسة. ولكن، هل تخلو هذه الحياة الشاسعة الواسعة من وجوه زاهرة كالأطياف الجميلة الملونة بألوان قوس قزح، وجوه يتألق فيها الغرام كما تتألق النجوم في ليله صافية؟ فربما تحمل المرء هذا البؤس كله من أجل وجه أغرّ يشبه الشمس في راد الضحى أما العيون التي تبذ للآلىء بهرة، فإنها عزاء كبير لمن حصل عليها، لأنها قد تنسيه عذابه حتى وإن كان بحجم عذاب أيوب وآلامه.

* * *

والآن، أيتها المرأة الحرة كالنسيم، بودي أن أنوه لك بأنني أرتاب بصحة مقولة «الحرية» التي كثر اللغط بها في الأجيال الأخيرة، وعلى مدار العالم كله. فالإنسان الغربي الذي أطلق شعار الحرية في فضاء العصر الحديث منذ أكثر من مائتي سنة، والذي ملأ الدنيا لجباً وصخباً وهو يتغنى بهذا الشعار الأجوف، ليس إلا عبداً للمصارف، أو لحفنة من دهاقنة المال الذين يبتزونه، بل يمتصون دماءه دون أن يعلم بحقيقة أمره. فلقد خدروه بحقنة الحرية حتى ما عاد يدري كيف تكون الحرية الناجية من كل زيف.

فيا له من كائن مغمى عليه هذا الإنسان الأورو أمريكي الذي يظن أنه قد ربع الدائرة، أو أنجز المحال، وذلك لأنه اخترع هذا العالم الحديث المعقد والملوث بجميع أصناف السموم الجسمية والروحية. إنه مفعم بالهراء وبوهم الحرية التي، إن فتشها المرء، وجدها اللاشيء حصراً. ويكفيه بؤساً أنه يكابد عزلته في قلب حريته الفارغة من كل محتوى أصلي، وقلما يصادف من يعنى بروحه، أو من يتصل به في العمق، ودون زيف أو تزوير. ومع ذلك كله، لا بد لي من الذهاب إلى أنها ماهية متينة الصلة بطبيعة الحياة، أو بقلبها النابض، أعني أنها حاجة لا غنى عنها لكي يحل التوازن في

مركز الأشياء، أو لكي لا تتمكن العبودية من التهام مساحة الواقع بأسرها. يقول ابن عربي: «لا بد من عرش وفرش». وهذا يعني أنه لا بد من متباينين يتقابلان على الدوام. ولئن لم يكن الأمر كذلك فإن اختلالاً كبيراً يكون قد اجتاح البنية كلها. أما الموقف العادل فخلاصته تقليص المسافة الفاصلة بين الضدين الاجتماعيين إلى أدنى درجة ممكنة.

ولكن، ماذا عساها أن تكون الجدوى التي أتوخاها من مقولة كهذه المقولة ذات الجاذبية الفاتنة؟ أن أعيش حراً ولكن في عتمة غيابك الذي من شأنه أن يجعل من الحياة جحيماً لا يطاق؟ فما الفائدة من كل تحرر في هذه الحال، أعني في الوضع الذي تغيب عنه كل عذوبة، أيتها العذوبة المفقودة؟ ما مردوده علي إذا ما عشت في عالم غابت شمسه إلى الأبد؟ ما معنى الحرية عندئذ، يا امرأة لا أراها إلا بضعة مني، فصلها القدر عني وطوح بها في النائيات؟ ما حقيقتها، إن كانت لها أيه حقيقة ذات أهمية أو مغزى؟

حنانيك، هل من إجابة ترسلينها إلّي على الورق، أو بأية وسيلة من الوسائل؟ ألا ليتك تفعلين، ليتك تفعلين ولو في الحلم.

-٢٠-

والآن، يا ذات الروح الأهف الأملد، ها أناذا أوشك أن أفرغ من كتابة هذه الرسالة على الورق، ولكنني سوف لن أكف عن كتابتها أو تدبيجها على صفحات الخيال، بل على شغاف القلب حصراً. ولسوف أثابر كذلك على مخاطبة طيفك الماسي من وراء الفاصلة المنداحة وعرامها الملوع المرير، يا امرأة من بلسم وندى وهدأة بال. فليت في الميسور أن يبرم كل من العشق والمسافة اتفاقية، أو تسوية، من شأنها أن تهب السلام للعشاق المتيمين.

وحين يشتعل شوقي إليك اشتعال الحرارة في تموز، وعندما يحتدم الحنين في جوف الوجدان، أو داخل بؤرته الأولى، فأكابد صنفاً من أصناف الشجن لا تطيقه أعصابي الموهونة، فإنني أتنسم رائحتك الزكية وهي تهب عليّ مع النسيم المنبعث من مدرج الصَّبا، والممزوج بريّا القرنفل، على حد عبارة امرئ القيس.

وحينئذ أتيقن، على الرغم من انדياح الفصال، أن تلك الرائحة المنعشة هي رائحتك أنتِ، وأن اتصالاً ما قد تم بيني

وبينك، يا أزكى الزاكيات، ويا أطيب الطيّبات. أجل، يا امرأة ما زال عطرها يفوح في الذاكرة ويحتل العمر كله، بل يجتاحه اجتياح الفاتحين، ويا من سوف تظل في خيالي منارة تذرّ النور على جميع الكائنات، ولا سيما على وجهي الملتاح.

أيتها السيدة الموقرة الهانئة بسكينتها الخاصة وبرغد روحها الفاخر، ويا قمراً غاب عن سمائي ولم يبزغ بعد ذلك قط، تحية لك من صميم الأعماق، بل من حشاشة النفس الآيلة إلى النضوب عما قريب. أما من كانت تحوز هذا الجمال الروحي الأخّاذ الذي تحوزين، فلا أحسب أن الفناء قادر على التهامها وتحويلها إلى عدم. فلئن كانت الفلسفة هي التساؤل عن الوجود، والصوفية هي محاولة التغلب على الفصال ابتغاء الاتصال «بالحقيقة الكلية التي تعم الحق والخلق»، على حد عبارة ابن عربي، فإن هذه الرسالة هي محاولة للتساؤل عنك وعن أحوالك وما آل إليه مصيرك، أو عمرك الذي لم يعد قصيراً منذ زمن بعيد. ولكن أهم ما في أمرها أنها صلاة لروح المسافة كي تتهاون معي أو تتساهل. كما أنها ضراعة لإله الغرام الطيب الذي منحني عشقاً لا يبلى، بل يصر على البقاء ما بقي الدهر.

ثم إن هذه الرسالة قصيدة غزلية تبتغي شرح اللوبان على الحميم المنشود، وشرح الوجد الذي ينتجه الفقد، والذي لم ألق له أيما كابح في أي يوم من الأيام. كما أن مسارها يتبدى في مناجاة طيف امرأة غائبة يتوجه إليها الخطاب من وراء

الانداح الكبير. وإنه لاضطراب مرهق أو منهك يسوطني كما تسوط العاصفة ثبج البحر في يوم عبوس مكفهر، فتغيره من الأزرق إلى الأسود الكالح. ولهذا، فإن صدمةً عنيفةً تستولي علي وتضطهدني فيصفر لوني حتى الامتقاع. ولكن الصدمة التي تترك رضاً على صفحة النفس لها القدرة الكافية على جعل المرء يشعر بأنه كائن حي لا تعوزه الحيوية الكفيلة بتيسير التنفس.

فمما قد بات محسوباً، أيتها المرأة التي وهبت جاذبية لا تبذها الجاذبية الأرضية، أن روحي عاجزة عن أن تأبق من إسارك الفضي اللذيذ. فجميع الأغلال تنتسب إلى العبودية باستثناء غلك الذي أشعر أنه ينتسب إلى مملكة الخير وحدها. ولأنك خير، أو من سلالة الخير وشيعته الملكية، فإن نفسي مشوقة إليك ومشغوفة بك وبذكرك على الدوام، وكذلك بمعرفة أخبارك وما صارت إليه أمورك وأحوالك. ولكن ما يدعو إلى الأسى أن ليس ثمة أي جواب قط. وهذا أمر من شأنه أن يجعل الشوق يفور في صدري كما يفور قدر على نار لاهبة. فلم يبق إلا أن ألوب عليك مثلما يلوب الظمآن على جرعة ماء في برية مقفرة جرداء تلفحها رياح القيظ الشديدة الحرارة. وحين يستبد بي الحنين إلى ماضينا المشترك، وهو الذي بدّده الزمان، فلم يعد إلا طيفاً يسبح في الذاكرة، فإنني أردد هذا البيت الشعري الذي أجد فيه تعبيراً صادقاً عن واقع الحال:

كأن لم تجاورنا أمام ولم نُقم

بفيد الحمى، إذ أنت بالعيش قانع

ولكنني الآن أرجوك، أيتها السيدة الوقور، أن تذكريني بشيء من الحرارة والحنين الدافئ، إذا ما غيبني الثرى، فلم يعد لي وجود فوق سطح الأرض، وإذا ما قيّض لك أنت أن تعيشي من بعدي. فالتذكر الصادق الحميم برهان على الإخلاص والوداد الحقيقي، وعلى أن ما قد غبر واندثر لا زال حياً ينبض مع خفق الفؤاد الآخذ بالاهتراء. كما أرجو منك أن تذرفي دمعتين حزناً علي، إن استطعت، وذلك لأنك إن فعلت ذلك تكونين قد برهنت على أنك تحبينني بالفعل. أرجوك، دمعتان اثنتان وحسب، واحدة من كل عين. ولكن إياك والبكاء الصاخب الناحب، فما الدمع الهتون إلا حال من أحوال البؤس الصرف. أما القليل من الأسى والشجى فهو آية على أنك قد أولعت بي أيما ولع في الماضي الذي ولى إلى غير رجعة، وأنك ما برحت على التزامك بذلك الغرام الصادق المخلص، حتى وأنا عظام نخرة تذوب وتمحّي في التراب.

والآن، أيتها المرأة الماسية التي لا نظير لها ولا ند بتاتاً، يا مصدر قلقي وغمّي واضطراب نفسي، نامي قريرة العين، سواء أكنت حيّة أم ميتة، ولكن بعد أن تثقي تمام الثقة بأن حبك هو أنفس وديعة أودعتها أنت في سويداء روحي المتلهف المشوق، أو خزنتها في المكان الذي يتعذر على أية يد أن تمتد إلى حرمه المستور

المصون من كل عيث أو عدوان. وكيف لي أن أفرط به وهو نتاج لخروجك من ساحة العمر طوال هذه المدة الهائلة؟ وإنه لخروج كسر فقار ظهري ومزّق نياط فؤادي على نحو ملوّع، كاوٍ ومرير. ولهذا، أراني أملك حق الزعم بأن السعادة لا تكون إلا حيث لا أكون.

يا من تشعين على روحي مثلما تشع منارة على شاطئ تصفعه الأمواج دون انقطاع، يا رمز الأنوثة الكاملة ومثالها الصافي المشرق الأنيس، أود قبيل الختام أن تثقي تماماً بأن أعزّ أمنية على قلبي في هذه البرهة هي أن تقع رسالتي الراهنة في يدك ولو بالصدفة. ولئن علمت بأنها قد وصلت إليك بالفعل، فإنني سوف أظل أشعر بالغبطة والسعادة ما دمت أحيا على هذه الأرض وأتنفس. ولعل وصول رسالتي إليك أن يكون اتصالاً كبيراً حدث بيننا بعد انقطاع دام عشرات السنين. ولهذا، فإنني أعوّل كثيراً على وقوع رسالتي في يدك، وأرجو أن يحدث هذا الوقوع بأية وسيلة من الوسائل.

وأخيراً، سلاماً يا امرأة تجسد الأنوثة على خير وجه، سلاماً، يا سيدة من سلالة الطيبة وشيعة الدماثة، سلاماً، يا من علمتني أن الضمير هو أنفس إنجاز أنجزه هذا الكون، سلاماً يا أريج الزهور كلها، يا زهرة الخزامى التي لا يبذ نشرَها أيما عطر، ويا زنبقة بياضها مثل بياض ثلج على جبال لبنان الباذخة، سلاماً يا أكثر اليانعات ينعاً، ويا أكثر الزاهرات إزهاراً، سلاماً

يا أكمل الكاملات، يا من قالت لي ذات يوم، إما أن تصير ضميراً وإما أن تحرم من القيمة الجلّى، سلاماً يا أحسن الحسناوات، ويا أملح المليحات، سلاماً يا حبي الأول الناجح الكبير، ويا امرأة لن تغيب عن البال ولن يخرج هواها من القلب، إلا إذا غابت الشمس ذات مساء ولم تبزغ مرة أخرى إلى أبد الآبدين.

مخيم اليرموك

آذار - كانون أول، ٢٠١١

الطبعة الأولى / ٢٠١٢م

عدد الطبع ١٥٠٠ نسخة

آفـــاق ثقـافيــة

من أجواء الرسالة

وأذكر أنني أخبرتك في سالف الزمان أن لوبيا الجليلية، التي مر بها السيد المسيح كثيراً، هي أمي التي أنجبني رحمها، ثم ماتت بعد مضي حفنة من السنين على ولادتي وتركتني شريداً في عالم من الصخور الصوانية والمعادن الفولاذية. وفي الحق أنها المكان الذي غادرته أنا منذ دهر، ولكن دون أن يغادره قلبي حتى الآن، ولن يغادره إلى أبد الآبدين. وإنه لعالم شرس، بل مفترس، ذاك الذي حرمني من مسقط رأسي طوال هذه المدة ومنحه للأغراب والمتطفلين.

أما دمشق التي كانت فاتنة في غابر الأعوام فهي أمّي بالتبني، أمّي التي آوتني وضمتني إلى صدرها الحنون، وأجلستني في حضنها الدافئ الـرؤوم، بعدما خسرت الوطن الأول الغالي على فؤادي الملتاع. ومن حسن حظي وحظك، أيتها المرأة المخلوقة من جوهر العذوبة وزبدة البراءة، أننا عرفنا دمشق وهي لم تزل في الريعان، ويوم كنا نحن ما فتئنا أغراراً يافعين. ولست أغالي إذا ما زعمت بأن من لم يعرف دمشق في تلك الأيام الخوالي، أو تلك السنين الهيفاء ذات البياض الثلجي الناصع، ومن لم يستيقظ باكراً ليجيء إلى هذه الدنيا قبل أن تخسر شبابها ويذوي نسغها وينضب زيتها، قد فاته خير كثير وحلّت به خسارة لا تعويض لها آخر الدهر. لقد افتض المال بكارتها، وأفسدتها السياسة ذات الماهية الغوغائية التي لا تمسّ شيئاً دون أن تحوّله إلى هشيم يابس بغير حياة.

الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة

www.syrbook.gov.sy

٢٠١٢م

السعر (٥٠) ل.س